

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية

كلمة صاحب الجلالة أمير المومنين
إلى ندوة الطرق الصوفية
"دورة الطريقة التجانية":

العيون - إسلام اباد - فاس
وفاء للثوابت

الإمام
عبد الجبار الفجيجي

د ● 254 ● ربيع II - جمادى I 1406 / يناير - فبراير 1986


المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
الدروس الحسنية
نص المحاضرات التي ألقيت في التفسير والحديث بحضرة صاحب الجلالة
والمهابة الملك المعظم أمير المؤمنين مولانا الحسن الثاني نصره
الله وأيده، في شهر رمضان المبارك عام 1405 هجري



شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط . المملكة المغربية



أسسها :
جلالة المغفور لـه
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957م

التحرير :
الهاتف : 623.60

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

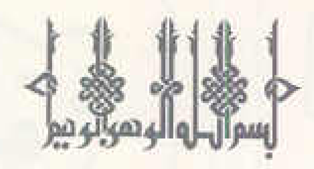
❋

الاشتراكات : في المملكة المغربية : 70 درهماً
في العـــالـــم : 80 درهماً

الحساب البريدي : رقم 55-485 . الرباط
Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

● المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي كاتبيها ولا تلزم المجلة أو الوزارة التي تصدرها ●

فهرس العدد 254



افتتاحية:

العيون - إسلام أباد - فاس وفاء للثوابت

للأستاذ الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري
وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

في الآونة الأخيرة، اجتمعت وفود إسلامية، من بلدان عديدة بالعيون، وإسلام أباد وفاس، وهي مدن يمتد البعد المكاني بينها من أقصى المغرب على المحيط الأطلسي، إلى أقصى المشرق الآسيوي، ويبدو في حساب المسافات، أن ما بينها بعيد، ومع ذلك فإنها قريبة أدنى القرب، لما تمثله كل منها من دلالة في تاريخنا الإسلامي ماضيا وحاضرا.

□ «العيون» : القلعة الصامدة التي ارتبط ذكرها في ذاكرة جيلنا بذكرى ((المسيرة الخضراء)) التي أبدعها أمير المؤمنين جلالة الحسن الثاني، احتضنت ندوة «البيعة والخلافة في الإسلام»، وأصّل المشاركون فيها بالتحليل والدرس، جدارة هذا النظام الإسلامي وصلاحيته لجيلنا وعصرنا ولكل جيل وعصر.

□ «إسلام أباد» : المدينة التي أست لتكون عاصمة باكستان الإسلامية المستقلة، بما تمثل من جهاد للحفاظ على الهوية الإسلامية، والدفاع عن الشريعة الغراء احتشدت لاستقبال «المؤتمر الدولي الرابع للسيرة النبوية»، تعبئة فكرية في مواجهة تيارات الغزو الفكري، وساهم المغرب في أشغال هذا

الملتقى، وكان للرسالة الملكية السامية ـ التي بعثها مولانا أمير المؤمنين إلى المؤتمر ـ أثرها الفاعل في نفوس المشاركين، واستمد منها الملتقى توجيهاته وتوصياته.

□ «فـاس» : الحاضرة العلمية والحضارية بما تمثل من عطاء سخي في ميادين الفكر والثقافة والعمران، والجهاد الروحي والوطني، استقبلت صفوة المشايخ وأقطاب التصوف من أنحاء المعمور في احتشاد مهيب، نبّه إلى عراقة ماضينا، وإلى الدور الرائد الذي اضطلع به وطننا على مر الدهور في خدمة الإسلام والمسلمين، حيث ظل منبتا للتصوف : يخرج العلماء العاملين، الذين يرجع لهم الفضل في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية في بلدان القارة الإفريقية وكان هؤلاء العلماء العاملون يتحملون مشاق الرحلة، ومصاعب الغربة، لزرع الطمأنينة في النفوس، فارتبط اسم المغرب والمغربي في ذاكرة الافريقي بالشيخ، المربي، المعلم، الأستاذ، المصلح الطبيب الروحي...

ونحن بقدر ما نفتخر بهذا الرصيد الذي لوطننا في نفوس الأفارقة نتطلع بتحفز وتفاؤل إلى أن نحافظ على ميراث الأسلاف وأن ننميه بتطوير الإتصال المغربي الإفريقي على كافة الأصعدة وخاصة الصعيد العلمي وفاء بالدور الذي ينبغي أن نقوم به في خدمة الإسلام والمسلمين.

وهكذا يأخذ المغرب بقيادة أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني موقعه المتميز في الساحة الإسلامية، كالعهد به منذ غابر العصور، وكأنه فيما بين (العيون، إسلام أباد، فاس) يعبر عن الثوابت في شخصية المغرب الأصيلة، ((عقيدة ومذهبا، وسلوكا)).

وهي الثوابت التي عناها الإمام ابن عاشر في «المرشد المعين» بقوله :

في «عقد الأشعري» «وفقه مالك»

و«في طريقة الجنيد السالك»

وتمضي الأيام والسنون، ويظل المغرب وفيا لهذه الثوابت منافحا عنها من حيث هي عناصر تضمن استمرار عطائه وأصالته «مذهبه المالكي وعقيدته الأشعرية، وتصوفه السني النقي».

الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري
وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

" إن التصوف الإسلامي بنقائه وصفائه واقتباسه من مشكاة النبوة وجذوتها كفيل إذا سلك به أهله العارفون المسالك الصحيحة السليمة، أن يسهم الإسهام الكبير في إصلاح أحوال المسلمين. "

تنفيذا للتوجيهات السامية لمولانا أمير المؤمنين، دام عزه وعلاه، نظمت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ملتقى فكريا دوليًا هامًا استهدف دراسة جانب من أهم جوانب الفكر الإسلامي، وهو الفكر الصوفي، وقد خصصت الدورة الأولى من هذه الندوة لدراسة الطريقة التجانية، وهكذا، وفي ضيافة مولانا أمير المؤمنين، أيده الله ونصره، استقبل قصر المؤتمرات بفاس، ابتداء من يوم الاثنين عاشر شهر ربيع الأول 1406 (23 دجنبر 1985)، وعلى امتداد أيام الأسبوع وفود العلماء والمشايخ والمريدين الذين توافدوا على العاصمة العلمية، من داخل المملكة وخارجها، والذين شارفوا ثمانمئة مشارك، وفيهم شخصيات علمية بارزة تعتبر من أقطاب التصوف في العالم الإسلامي، تمثل المغرب والسنغال وموريطانيا وتونس ومالي ومصر ونيجيريا والنيجر والسودان وغينيا وغانا وغامبيا وساحل العاج وباكستان بالإضافة إلى مشاركين من مسلمي الصين الشعبية وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية.

وقد تميزت جلسة الافتتاح بإصغاء المشاركين لنص الكلمة الملكية السامية التي وجهها أمير المؤمنين جلالة الحسن الثاني أعزه الله، إلى المشاركين في الندوة، وقد تلاها وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الأستاذ الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري بحضور مستشار صاحب الجلالة الأستاذ أحمد بنسودة، وفيما يلي النص الكامل للكلمة المولوية السامية :

بسم الله الرحمن الرحيم — وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيئين والمرسلين

حضرات السادة

إنه لفرح عظيم يغمرنا في هذا اليوم الأغر السعيد ونحن نرحب بأقطاب التصوف، ومشايخ الطريقة التجانية، وجميع الذين لبوا دعوتنا وحجوا إلى مدينة فاس العريقة لحضور هذا الملتقى الديني الجليل الهادف إلى تدارس موضوع التصوف بصورة عامة، والطريقة التجانية بصورة

خاصة كنموذج للتصوف الإسلامي السليم النابع من كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه وسلامه.

وإذا كان عامة المسلمين وخاصتهم من العلماء والعارفين على تعاقب العصور والأجيال قد اهتموا بالتصوف منبعاً وسلوكاً، وتشبعوا به قولاً وعملاً حتى أكسبهم ما أكسبهم من القوة والصلاح، فإنهم اليوم في أمسّ الحاجة إلى هذا الاهتمام والتعرف إلى فضائل التصوف ومزاياه، والاستمداد من الطاقة الإيمانية والأسرار الربانية الكامنة في المبادىء الصوفية لعلاج ما حالت إليه أحوال المسلمين أفراداً وجماعات من فتور في المبادىء الخالدة، واغترار بالتيارات الفكرية المادية، واندفاع وراء سرابها الكاذب وبريقها الخادع، ووقوع في أشراك الخلاف والنزاع والصراع ومهاوي الفرقة والشتات والإعراض من الاعتصام بحبل الله المتين.

حضرات السادة

إن التصوف الإسلامي بنقائه وصفائه واقتباسه من مشكاة النبوة وجذوتها كفيل إذا سلك به أهله العارفون المسالك الصحيحة السليمة أن يسهم الإسهام الكبير في إصلاح أحوال المسلمين في ترسيخ الإيمان بالله في قلوبهم وتعميق الشعور بالوحدة وتمتين عرى الإخاء والمودة في نفوسهم، ودفعهم إلى التعاون على البر والتقوى والتناصر والتآزر على الحق لتبقى كلمة الله هي العليا، ولتكون العزة لله ولرسوله، وتستعيد الأمة الإسلامية آنف مجدها وسابق سؤددها، وتقوم بدورها في إصلاح أحوال العالم وإسعاد البشرية.

واقتناعاً منا بالدور الذي تستطيع الطرف الصوفية أن تضطلع به في إصلاح النفوس، أصدرنا تعليماتنا إلى وزيرنا في الأوقاف والشؤون الإسلامية قصد الإعداد لانعقاد ندوة مفتوحة للطرق الصوفية ببلادنا تختص دورتها الأولى بالطريقة التيجانية، وكم كان سرورنا عظيماً بالترحيب الحار الذي قوبلت به الفكرة، وظفر به هذا المسعى الحميد من السادة العلماء والعارفين مشايخ التصوف عموماً والطريقة التيجانية خصوصاً، وما الحفاوة والإكرام الذي لقيه الوفد الذي وجهناه لتسليم الدعوة إليكم والتجمعات الشعبية التي أقمتموها له في بلدانكم وحضوركم اليوم من مختلف الأقطار للمشاركة في هذه الندوة العلمية والموسم التيجاني المبارك إلا دليل واضح على ما يلبيه لقاؤنا هذا من حاجة وما يحمله في طياته من فوائد.

حضرات السادة

إن تاريخ الأسرة العلوية حافل بمظاهر التكريم والتقدير التي كان يضفيها ملوك هذه الأسرة الأماجد على الطرق الصوفية عموماً وعلى الطريقة التيجانية خصوصاً.فقد أصدروا ظهائرالتوقير والاحترام لمشايخ الطريقة، وبذلوا في العناية بهم والرعايةلهم ولزواياهم ما هو معروف ومشهور، ويكفي أن نذكر في هذا الصدد ما لقيه الشيخ أحمد التيجاني رضي الله عنه من التكريم والتعظيم والإعزاز على يد عمنا السلطان مولاي سليمان قدس الله روحه، وما تلقاه الشيخ عمر الفونتي تغمده الله بواسع رحمته وهو يجاهد في سبيل نشر الإسلام في إفريقيا من الدعم والسند من جدنا السلطان مولاي عبد الرحمان طيب الله ثراه، وما وجدته مؤلفات الطريقة التيجانية، ودواوين التجانيين من عناية عمنا السلطان مولاي عبد الحفيظ رحمه الله، وما ناله أبناء الشيخ سيدي أحمد التيجاني وأتباع طريقته في عهد سائر الملوك العلويين من حظوة ومكانة وما كان من صلات متينة أكيدة بين والدنا جلالة المغفور له محمد الخامس نور الله ضريحه وكبار مشايخ

الطريقة التيجانية في السنيغال وغيرها من البلاد الإفريقية.

إن تكريمنا اليوم للطريقة التيجانية بعقد هذا الموسم الكبير في مدفن شيخها ومطلع شمسها ومركز إشعاعها مدينة فاس لهو امتداد لما تركنا عليه أجدادنا الكرام وتأكيد لمحبتنا لهذه الطريقة وأتباعها الأبرار.

ولا عجب فالطريقة التيجانية في مستوى هذا التكريم، فهي قائمة على الاقتداء بالرسول الأكرم سيدنا محمد ﷺ، واتباع هديه والتزام سنته وطريقته وملء الأوقات بذكر الله، والصلاة على رسوله ﷺ والمواظبة على تلاوة القرآن والمحافظة على الصلوات مع الجماعة والإقلاع عن المعاصي والذنوب بالتوبة والاستغفار ولزوم الجماعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهي طريقة موافقة للسنة، سائرة على نهجها، رزقها الله القبول فكثر أتباعها وامتد إشعاعها في الآفاق، ويسر الله على يدها دخول الملايين من الأفارقة في الإسلام، وان بلدنا لفخور ببزوغ فجر هذه الطريقة من أرضه ومعتز بأن يكون أحد أبناء المغرب وعلمائه العارفين وهو الشيخ أحمد التيجاني هو شيخ هذه الطريقة وقطبها، فخره واعتزازه بما قام به السلف الصالح من أبنائه في نشر الدعوة الإسلامية بأقطار إفريقيا.

وإننا لنحمد الله تعالى الذي يسر أسباب اجتماع شملكم، وجعل مدينة فاس من جديد مركز التقائكم، وكأن الله تعالى أراد أن تتم انطلاقة هذه الطريقة التجانية المباركة مرة أخرى من هذه المدينة التي ترحب بكم أعظم ترحيب، وتعتز أيما اعتزاز باحتضان هذه الندوة.

ونسأل الله تعالى أن يوفقكم ويكلل بالنجاح أعمالكم، وينفع بعملكم وصلاحكم، ويجعلكم في عباده المتقين الذاكرين الذين قال فيهم سبحانه : ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب، الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾.

صدق الله العظيم.

والسلام عليكم ورحمة الله.



البيان الختامي لندوة الطرق الصوفية

دورة الطريقة التجانية



صورة للمشاركين في أعمال ندوة الطرق الصوفية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

اللهم صلي على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم.

اللهم صلّ على سيدنا محمد في الأولين

وصلّ على سيدنا محمد في الآخرين

وآته الوسيلة والفضيلة، وآته الدرجة الرفيعة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته، وارض اللهم عن آله الاطهار، وصحبه الأخيار

وأتباعه الأبرار

وارزقنا اللهم هداهم الذي هو مجلي هداك،

والحياة على آثارهم التي هي صنوان رضاك،

وارض اللهم عن شيخنا الحبيب المحبوب سيدي أبي العباس أحمد التجاني رضي الله عنه وأرضاه وهو صاحب هذه الذكرى العطرة، وجامع هذه الوجوه النظرة، بأنواره المتصلة.

وقد تشرف هذا الجمع الكريم بإقامة هذا المؤتمر العظيم في أرض ضمت جسده الكريم، وانطلقت منها روحه إلى رب العالمين، في مدينة فاس أعزها الله وزادها شرفا وتكريما. وذلك بالدعوة التي تفضل بها **صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني أعزه الله**، إجلالا وتعظيما للمتصوفة في شخص سيدنا أحمد التجاني العارف الكامل، وهذا واضح جلي في رسالته لهذا المؤتمر العظيم حيث يقول جلالته :

«إن التصوف الإسلامي بنقائه وصفائه، واقتباسه من مشكاة النبوة، وجذوتها كفيل إذا سلك به أهله العارفون المسالك الصحيحة السليمة أن يسهموا الإسهام الكبير في إصلاح أحوال المسلمين بإرساخ الإيمان بالله في قلوبهم، وتعميق الشعور بالوحدة وتمتين عرى الإخاء والمودة في نفوسهم، ودفعهم إلى التعاون على البر والتقوى، والتناصر والتآزر على الحق، لتبقى كلمة الله هي العليا، ولتكون العزة لله ولرسوله، وتستعيد الأمة الإسلامية سالف مجدها وسابق سؤددها، وتقوم بدورها في إصلاح أحوال العالم وإسعاد البشرية».

ومن هذا المنطلق الذي وضحه **جلالة الملك الحسن الثاني أعزه الله ونصره**، تتضح قيمة التصوف في الإسهام في إصلاح الأمة الإسلامية.

كما تتضح قيمة الطريقة التجانية على وج الخصوص بين الطرق الأخرى، كما يقول جلالة الملك الحسن الثاني في نفس الرسالة.

«وإن تكريمنا اليوم للطريقة التجانية بعقد هذا الموسم الكبير في مرقد شيخها ومطلع شمسها، ومركز إشعاعها مدينة فاس لهو امتداد لما تركنا عليه أجدادنا الكرام، وتأكيدا لمحبتنا لهذه الطريقة وأتباعها الأبرار، ولا عجب فالطريقة التجانية في مستوى هذا التكريم، فهي قائمة على الاقتداء بالرسول الأكرم سيدنا محمد ﷺ، واتباع هديه والتزام سنته وطريقته، وملء الأوقات بذكر الله والصلاة على رسوله ﷺ والمداومة على تلاوة القرآن والمحافظة على الصلوات في الجماعة والإقلاع عن المعاصي والذنوب والتوبة والاستغفار ولزوم الجماعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي طريقة موافقة للسنة سائرة على نهجها، رزقها الله القبول فكثر أتباعها، وامتد إشعاعها في الآفاق، ويسر الله على يدها دخول الملايين من الأفارقة في الإسلام».

وإن تكريم أمير المومنين هذا تكريم لأولياء الله وتكريم لمن يستحق الإكرام كما قال تعالى في سورة النساء : ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا**﴾.

وإن نصرته لأولياء الله توفيق إلهي لقوله تعالى : ﴿**إن الله يدافع عن الذين آمنوا**﴾ ولقوله تعالى : ﴿**ولينصرن الله من ينصره**﴾.

وكما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله قال : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب» إلى آخر الحديث...

وقال تعالى : ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾.

وبعد دراسة الدور العظيم الذي قام به أهل الله العارفون به السادة الصوفية بوجه عام، وما قامت وتقوم به الطريقة التجانية بوجه خاص، من حمل رسالة الإسلام، وحفظ تعاليمه ونشرها، ومحافظتها على الشخصية الإسلامية الصحيحة، ومساهمة هذه الطريقة في حفظ تراث الإسلام وزيادة حصيلته الفكرية يوما بعد يوم.

وفهما للدور الذي قامت به هذه الطريقة في مقاومتها للغزو الثقافي الاستعماري والانحراف الفكري، ومحافظتها على العلوم الشرعية واللغة العربية، وما قامت به

من أعمال مختلفة في الماضي والحاضر، وما ستقوم به في المستقبل.

وبعد الاطلاع على الدور الذي قامت به لنشر الإسلام في إفريقيا بوجه خاص وفي العالم أجمع، وبعد الاطلاع أيضا على التراث العلمي المخطوط والمطبوع الذي يزداد يوما بعد يوم، وهو محتاج إلى دراسة وتحقيق وترجمة ونشر، وبعد الاطلاع على الأعمال المختلفة التي قام بها التجانيون في العالم. والذي ظهر جليا في دورة فاس الأولى، هذه وذلك بعد ما تفضل علماء هذا الطريق والمشاركون معهم من الطرق الأخرى، ومناقشة العلماء والحاضرين للمسائل المختلفة والهجمات الشرسة التي يوجهها أعداء الإسلام ومن تابعهم من المغرضين للتصوف، وإلى هذه الطريقة على وجه الخصوص، وهم من البلدان التالية :

- وفد المملكة المغربية
- وفد جمهورية الباكستان الإسلامية
- وفد الجمهورية التونسية
- وفد جمهورية مالي
- وفد جمهورية مصر العربية
- وفد الجمهورية الإسلامية الموريطانية
- وفد جمهورية نيجريا
- وفد جمهورية النيجر
- وفد جمهورية الصين الشعبية
- وفد جمهورية غانا
- وفد جمهورية غامبيا
- وفد جمهورية غينيا
- وفد جمهورية ساحل العاج
- وفد جمهورية السودان الديمقراطية
- وفد جمهورية السنغال
- وفد الولايات المتحدة الأمريكية
- وفد فرنسا

توصل المؤتمرون إلى القرارات والتوصيات التالية :

1) إن عقيدة السادة الصوفية والتجانية على وجه الخصوص هي عقيدة أهل السنة والجماعة.

2) إن المذاهب الفقهية التي ينتسب إليها الصوفية هي مذاهب الأئمة الأربعة وهم : الإمام مالك، والإمام أبو حنيفة، والإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهم.

3) إن التصوف الذي نعنيه هو التصوف السني السليم المرتكز على الكتاب والسنة، وهذا هو قول مؤسس الطريقة سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه حيث قال :

«إذا سمعتم عني شيئا فزنوه بميزان الشرع، فما وافق فخذوه وما خالف فاتركوه» وكما قال الشيخ في كتاب جواهر المعاني : «ولنا قاعدة واحدة، عنها تنبئ جميع الأصول، أنه لا حكم إلا لله ورسوله، ولا عبرة في الحكم إلا بقول الله وقول رسوله ﷺ، وأن أقاويل العلماء كلها باطلة، إلا ما كان مستندا لقول الله أو قول رسوله ﷺ، وكل قول لعالم لا مستند له من القرآن ولا من قول رسول الله ﷺ فهو باطل، وكل قولة لعالم جاءت مخالفة لصريح القرآن المحكم ولصريح قول رسول الله ﷺ، فحرام الفتوى بها».

القرارات :

1) العمل جديا لإنشاء أمانة عامة للتجانيين يكون مقرها الدائم في مدينة فاس المحروسة.

2) تكوين لجنة دائمة لمتابعة القرارات والتوصيات التي انبثقت عن الندوة، ويكون في مقدمة أعمالها الإعداد لإيجاد الأمانة العامة السالفة الذكر.

3) إنشاء صندوق تابع للجنة المتابعة يكون مقره مدينة فاس المحروسة.

4) توجيه نداء مباشر للأمة الإسلامية على وجه العموم، والتجانية على وجه الخصوص من أجل تمويل هذا الصندوق.

5) استعداد علماء الطريقة التجانية لإقامة ندوات علمية، للحوار والمناقشة مع كل من يريد حول التصوف الإسلامي عموما، والطريقة التجانية خصوصا، وذلك حرصا منهم على وحدة الصف بين المسلمين، وإقامة هذه الوحدة على أسس علمية سليمة.

6) دحض الشبهات التي تثار أحيانا حول التصوف الإسلامي وطائفته السنية.

3) إصدار دراسات مركزة تنشر في شكل كتيبات للتعريف بطريقة أبي العباس الشيخ أحمد التجاني رضي الله عنه، وبيان سير رجالها وأعمالهم العظيمة في ميدان الدعوة إلى الله، ومالهم من مؤلفات وذلك باللغات المختلفة حسب الإمكان.

4) إنشاء مجلة صوفية عالمية تجانية باسم (الطريق الحق) امتدادا لمجلة فضيلة المرحوم مولانا الشيخ محمد الحافظ المصري التجاني رضي الله عنه، والتي كانت تحمل نفس العنوان، ويكون مقرها مدينة فاس المحروسة.

5) ويحذرون كل من يشفق على نفسه من مغبة التمادي في إذاية أهل القبلة باللسان أو بالقلم، وذلك أنطلاقا من هدي رسول الله ﷺ، القاضي باحترام المسلم وإعطائه القيمة اللائقة به، كما قال ﷺ : «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، ذلك المسلم الذي له ذمة الله، وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته».

ولقوله ﷺ : «من قال لأخيه : يا كافر، فقد باء بها أحدهما».

6) توجيه نداء حار إلى الأخوة التجانيين بضرورة المحافظة على وحدة صفهم، والابتعاد عن كل ما يهدد هذه الوحدة الضرورية، وذلك لكي يتفرغوا لرسالتهم في الحياة، ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء**﴾ أو كما قال الشيخ أحمد التجاني رضي الله عنه : «امتثال الأوامر واجتناب النواهي من حيث يرضى لا من حيث ترضى».

7) توصي الندوة بإعداد البحوث التي عرفت خلالها من أجل طباعتها، كما توصي بالعمل لترجمتها إلى بعض اللغات حسب الإمكان.

8) ويوصي المؤتمرون بعقد مثل هذه الندوة كل سنتين وفي مدينة فاس المحروسة.

9) توصي اللجنة بإنشاء مركز لإحياء التراث الصوفي الإسلامي وذلك لتوضيح مكانته، والتعريف به وبأهله، وتكون مهمة هذا المركز كما يلي :

1 ـ جمع كل ما يتعلق بالتراث الصوفي المطبوع والمخطوط والمسموع.

2 ـ إنشاء مكتبة تجمع هذا التراث الصوفي كي تكون مرجعا في هذا العلم لجميع الرواد والباحثين والسالكين.

3 ـ القيام بعملية الدراسة والتحقيق لهذا التراث المخطوط والمطبوع.

4 ـ يقوم هذا المركز بدراسة نشأة الطرق والزوايا الصوفية، وبيان تطورها على مر العصور، باعتبارها تمثل جانبا هاما من تاريخنا الإسلامي المجيد.

6 ـ العمل على ترجمة هذا التراث إلى لغات العالم قدر المستطاع.

7 ـ إصدار مجلة علمية مهمتها نشر العلوم الصوفية باللغة العربية وبعض اللغات الأخرى.

8 ـ تعريف المؤسسات العلمية بأساتذة التصوف للاستفادة من علومهم وخبراتهم.

نص البرقية التي رفعها إلى مولانا أمير المومنين العلماء والمشايخ المشاركون في ندوة الطرق الصوفية

• العلماء المشاركون في الندوة يسألون الله أن يوفق الشعب المغربي المناضل للمحافظة على روح المسيرة الخضراء التاريخية نحو استكمال الوحدة الترابية الكاملة لهذا البلد العزيز.

إن العلماء المسلمين التجانيين، وهم يختتمون في مدينة فاس العريقة ندوتهم العالمية الأولى، والخاصة بالطريقة التجانية يحمدون الله تبارك وتعالى على ما منحهم من توفيق، تجلت آياته وأشرقت أنواره في جميع نشاطات هذه الندوة المباركة، والتي يتوقعون من ورائها الخير الكثير للإسلام والمسلمين.

لقد كان لاجتماع هذا العدد الكبير من العلماء والمقدمين من أتباع الختم التجاني، وفي مدينة فاس المحروسة، وما وفقهم الله له من تبادل وشورى على أرفع المستويات وترددهم خلال هذه الفترة السعيدة إلى زاويتهم الأم، قانتين لله وزائرين لضريح القطب الرباني الشيخ أحمد التجاني رضي الله عنه، واجتماعهم مرات. بحفدته وذريته الأكارم الذين يكن لهم كل مريد تجاني غاية المحبة ونهاية التقدير.

كان لكل ذلك وقع عظيم في نفوسهم، وتأثير عميق في قلوبهم.

وعليه، فإن المؤتمرين أجمعين يتوجهون بجزيل الشكر وعظيم الامتنان وعاطر الثناء لجلالتكم، حيث أجرى الله هذا الخير الفياض على يديكم، وجعله السبب في عقد هذه الندوة العظيمة الفريدة، وإن الإخوة التجانيين، إذ يستشعرون عظم هذه المنّة التي تقلدوها، ليؤكدون عزمهم الوطيد على مواصلة مسيرتهم الإسلامية الصوفية التجانية المظفرة غير هيّابين ولا وجلين، سائلين الله عزّ وجلّ أن يحفظ جلالتكم بما حفظ به ذكره الحكيم، وأن يقر عينكم بولي عهدكم سمو الأمير سيدي محمد وأخيه مولاي الرشيد، وسائر أفراد الأسرة المالكة، وأن يكلّل جميع مساعيكم بالنجاح والتوفيق والسّداد، وأن يوفق الشعب المغربي المناضل للمحافظة على روح المسيرة الخضراء التاريخية نحو استكمال الوحدة الترابية الكاملة لهذا البلد العزيز، والسلام على المقام العالي بالله ورحمة الله وبركاته.

نص البرقية التي رفعها إلى مولانا أمير المومنين فضيلة الشيخ سيدي أحمد التجاني

• تأكيد التجند الكامل خلف أمير المومنين جلالة الحسن الثاني للذب عن حوزة الوطن والدفاع عن مغربية صحرائنا.

مولاي صاحب الجلالة :

في هذه المناسبة التاريخية الخالدة، ونحن في مدينة فاس العريقة نستقبل في ضيافتكم الكريمة، وتحت رعايتكم السامية، وبمبادرتكم الخاصة، إخوتنا في الله، المنتسبين إلى الطريقة التجانية، والمهتدين بها من مسلمي القارات الخمس، يسعدنا في هذا الظرف الخالد، أن نتقدم إلى مقامكم العالي بالله معربين عن خالص الشكر وعميق العرفان، وعظيم الامتنان، لهذه المبادرة الكريمة التي لمت شتات طائفة من أكبر طوائف المسلمين في مدينة فاس العاصمة العلمية للمملكة.

إنكم يا صاحب الجلالة تعيدون إلى المغرب بهذه المبادرة الجليلة دوره التاريخي في الإشعاع الديني والروحي وتجددون عهد أسلافكم الميامين الذين كانوا على مرّ التاريخ السند المتين والراعي الأمين لكل الدعاة إلى الله وفي مقدمتهم والدنا الشيخ سيدي أحمد التجاني قدس الله روحه فلقد وجد الشيخ في بلده المغرب وملوك المغرب وأبناء المغرب الرعاية التي هو أهل لها، والتي افتقدها في أماكن أخرى.

إن عيون التجانيين في أطراف المعمورة مشدودة إليكم اليوم يا صاحب الجلالة، وإن أيديهم لترتفع إلى الله، بالدعاء لكم، فاسمحوا لنا يا صاحب الجلالة أن نغتنم هذه الفرصة لنجدد ولاءنا المتين، ونؤكد تعلقنا الوثيق بالعرش العلوي المجيد، وتجندنا الكامل خلف جلالتكم للذب عن حوزة الوطن والدفاع عن مغربية صحرائنا الغالية ضارعين إلى الحق جل وعلا أن يسدد خطاكم ويؤيدكم بنصره ويحفظكم ويرعاكم ذخراً للإسلام والمسلمين ويقر عينكم بولي عهدكم سمو الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه السعيد مولاي رشيد وباقي أفراد الأسرة العلوية الشريفة.

ولينصرن الله من ينصره والسّلام على المقام الأسمى ورحمة الله وبركاته.

حفدة الشيخ سيدي أحمد التجاني

البحوث المقدمة
إلى ندوة الطرق الصوفية بفاس
دورة الطريقة التجانية

أسهم الأساتذة العلماء والسادة المشايخ الذين شاركوا في ندوة الطرق الصوفية «دورة الطريقة التجانية» ببحوث ودراسات وعروض قيمة، أعطت لهذا الملتقى الفكري الدولي الهام صبغة خاصة، ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بصدد إصدار كتاب خاص يتضمن أعمال الندوة، وفيما يلي قائمة بهذه البحوث :

تمسك الطريقة التجانية بالسنة ودعوتها إلى الله	ذ. عبد الغفور الناصر (المغرب)
التصوف في سائر أطواره حتى الطريقة التجانية	ذ. أحمد الزيتوني الشاعري (المغرب)
لماذا رعاية الدولة للطريقة التجانية ؟	ذ. عبد العزيز بنعبد الله (المغرب)
رشفة من عذب بحر الطريقة التجانية	ذ. عبد السلام جبران المسفيوي (المغرب)
مصدر التصوف الإسلامي	ذ. محمد هشام سلطان (سوريا)
الطريقة التجانية والقادرية وتعاونهما لصالح الوحدة الإسلامية . .	ذ. شيبهنا حمداتي ماء العينين (المغرب)
الشيخ التجاني والشيخ الرياحي	ذ. محمد الشاذلي النيفر (تونس)
الصوفية الإسلامية وموجز أحوال انتشار طرقها في الصين	ذ. نعمان متيان نائب رئيس الجمعية الإسلامية الصينية
الشيخ محمد الخليفة ولد دوليب . . . . وهو أول من نشر الطريقة التجانية بالسودان العربي	ذ. محمد الدرديري (السودان)
دور الزاوية المغربية في تدعيم المذهب السني	ذ. أحمد بوكاري (المغرب)
دور التصوف في بناء المجتمع الإسلامي	ذ. الحاج محمد نفسيرغي (غامبيا)
الطريقة التجانية طريقة الكتاب والسنة	ذ. أبو عركي الشيخ عبد القادر (السودان)

كلمة حول ندوة الطريقة الصوفية . . . . ذ. محمد حبيب الجاي (السينغال)

كلمة مندوب الهيئة العامة للطريقة الحتمية بالسودان . . . . ذ. حسين عبد القيوم (السودان)

التصوف الإسلامي وأثره في نشر الإسلام في السينغال . . . . . ذ. محمد ناصر إبراهيم نياس (السنغال)

العقيدة التجانية . . . . ذ. السيد ولد أباه (موريطانيا)

التعريف بمؤلفات وحياة السيد الحاج الحسن البعقيلي رضي الله عنه . . . . أعمون مولاي البشير بن محمد التناني بالزاوية التجانية (المغرب)

كلمة حول ندوة الطرق الصوفية . . . . ذ. الأستاذ محمد المامون الجاي (السينغال)

بحث حول الطريقة التجانية . . . . ذ. محمد بن أحمد البشير الشنقيطي (موريطانيا)

الذوق قاموس المعرفة . . . . ذ. الخليل النحوي من (موريطانيا)

رد المفترين على الشيخ التجاني رضي الله عنه بأنه فضل صلاة الفاتح لما أغلق على القرآن الكريم . . . . فضيلة الشيخ الحاج ملتقى تال الخليفة للأسرة العمرية في السينغال (السينغال)

الشهود العدول على فضل آل بيت الرسول (خلاصة الكلام في حب آل البيت ورؤية النبي في اليقظة والمنام) . . . . جمع وترتيب إبراهيم محمد دفع الله (السودان)

دور الطريقة التجانية في إنقاذ البشر من عالم الغفلات والانهماك في الشهوات . . . . تيرنو عمر سيل، مفتش التعليم العربي في موريطانيا.

دور الصوفية في نشر الإسلام في غرب إفريقيا وعلاقتها بالطريقة التجانية . . . . الحاج سعيد عمر توري المدير العام لمدارس سبيل الفلاح الإسلامية بجمهورية مالي

أهداف ندوة الطرق الصوفية (دورة الطريقة التجانية) . . . . عبد اليقين الدجاري أديـا (نيجيريا)



كلمة السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية في الجلسة الختامية لندوة الطرق الصوفية بفاس

دورة الطريقة التجانية



بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

- سعادة عامل صاحب الجلالة على إقليم فاس.
- سعادة السيد رئيس المجلس البلدي لإقليم فاس.
- السادة ممثلو ومنتخبو المدينة والإقليم.
- أصحاب الفضيلة والسماحة أساتذتنا ومشايخنا العلماء الأجلاء الصوفية الكرام.
- حضرات السادة الأفاضل.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إن التصوف درجة من النضج الفكري والصفاء الروحي، لا يصل إليها الإنسان إلا عندما يطل على مشارف الفهم الصحيح لطبيعة الكون ونظامه وسبب وجوده والغاية منه، وموقع الإنسان في هذا الكون وفي هذا النظام، وصلته بالخالق فيؤمن بالله بكل ما تدل عليه صفاته وأسماؤه، ويستسلم لتدبيره ويرضى بقضائه ويخلص التوكل عليه، ويشعر بأنه في حرزه وأمنه، ويعلم أن الله ما أحل له شيئا إلا وفيه خير، وما حرم عليه شيئا إلا وفيه شر، فيأتي ما أحل الله له، ويجتنب ما حرمه عليه، لمجرد علمه بحكم الله طاعة لله، ودون تعلق بالأسباب والعلل، ولا بالمنافع والمصالح، ويتم له صفاء الروح ونقاؤها وجلاء النفس وشفافيتها وطهارة القلب وانشراح الصدر واتقاد البصيرة وزوال الغبشة عنها، بإخلاص العبادة والمواظبة على ذكر

الله والمحافظة على الصلوات والمداومة على تلاوة القرآن وتدبر أسراره، والإقتباس من أنواره، فإذا تم للإنسان ذلك كله، فإما أن تحصل له نفرة من الدنيا ومن الناس وزهد في أمور الدنيا وخوف وفزع من الوقوع في المحظور، فينطوي على نفسه وينصرف بكليته إلى التأمل والعبادة مع القعود فيكون قد أخطأ طريق التصوف الحق وفوت على الأمة النفع المرجو من أمثاله، وإما أن يمتثل قول الله تعالى : **﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون»**، وقوله : **﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾**، وقوله : **﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾** فإن امتثل لهذه الآيات ومثيلاتها التي تحض على العمل والسعي والتعاون مع الناس وطاعة أولي الأمر في تنفيذ سياسة النماء والإزدهار الإقتصادي والإصلاح الإجتماعي وتعلم العلوم وتعليمها ونشرها وغير ذلك مما فيه صلاح أمور الدنيا وسعادة البشر وقوة المسلمين وعزتهم ونجاح الفرد في الحياة ومشاركته الفعالة في التنمية.

إذا كان هذا الصوفي قد دخل إلى هذا المعترك وهو كما علمنا نضجا فكريا وصفاء روحيا، التقت حينئذ المادة بالروح والعمل بالتقوى واستقامت أمور الدين والدنيا معا، وأدت الصوفية دورها على الوجه الذي يرضي الله ورسوله، وهذه الغاية السامية، والمرتبة العالية هي ما قصده أشياخ الطرق الصوفية عندما وهبوا حياتهم لتربية الإنسان ولدفعه للإسهام فيما فيه عزة الإسلام والمسلمين، وهي الهدف الأسمى الذي تهدف إليه الطرق الصوفية الحقة جميعها.

إن الصوفية أيها السادة، ليست طرقا للإنزواء في الزوايا، وإنما هي طرق لتزويد الإنسان بطاقة الإيمان وتوجيهه للعمل النافع وللصلاح والإصلاح.

- حضرات السادة الكرام :

إن كبريات الزوايا في المغرب كانت عامرة بالعلماء، وكانت فيها خزائن الكتب وكانت مراكز للتربية الصوفية وتلقين العلوم، وفي نفس الوقت كانت رباطات للجهاد، وشارك مشايخ هذه الزوايا وأتباعهم مشاركة عظيمة في حماية ثغور بلادنا والمحافظة على وحدتها الترابية والإبقاء على رايتها عالية سامية، وأسهم الصوفية في بلادنا وفي جميع البلدان الإسلامية إسهاما كبيرا في حركات الإصلاح الإجتماعي وفي مختلف الحقب التاريخية، لأن الزوايا كما قلنا لم تكن ملجأ للعجزة ولا للقاعدين، وإنما كانت مدرسة لتخريج العلماء العاملين والدعاة الصالحين المصلحين. وعندما أصاب التأخر العالم الإسلامي أصاب الزوايا فيما أصاب، فانكمشت وتراجعت حتى لم يبق منها في وقت من الأوقاف إلا رسمها، ثم جاء الإستعمار ليمهد الطريق للكنيسة التي حاربت الزوايا بضراوة وما زالت تحاربها إلى الآن. وتحامل بعض المسلمين أيضا على الزوايا بما أضعف عضدها وأخبى جذوتها وأعان من يريد هدمها والتخلص منها، وأضاف أبناء الزاوية أنفسهم سببا إلى هذه الأسباب فتنازعوا وحارب بعضهم بعضا، وأطلق بعضهم لسانه في بعض، مع أنهم أسرة واحدة وأمة واحدة، ورغم ذلك كله، بقي المنصفون يشهدون بأن التصوف طاقة إيمانية قوية وضرورية للأمة، ويعترفون بأن الزوايا أدت خدمة جليلة للإسلام، وما زالت قادرة على أداء خدمات أخرى ربما لا يقوم بها غيرها من المؤسسات، وأنه لا بد من إعادة الإعتبار لها ولأهلها والإعتراف لها بالجميل، وتيسير السبل لها لمواصلة رسالتها وأداء أماناتها، وقد بذلت جهود مخلصة في هذا السبيل فأعطت - ولله الحمد - ثمارها الطيبة وأعادت الحياة إلى الزاوية على أيديكم أيها العلماء الصوفية الأفاضل، فما من واحد منكم إلا وقد وقف حياته ليعيد للزاوية دورها ومكانتها واعتبارها، وليسهم بجهوده المخلصة في أداء رسالة الزاوية التي أراد الله لها أن تؤديها، وها نحن في المغرب **برعاية أمير المؤمنين، صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله وأيده** نضع أيدينا في أيديكم ونضم جهودنا إلى جهودكم ونسهم بكل ما استطعنا لخدمة الزاوية وجعلها قادرة على أداء الأمانة التي ناطها الله برجالها، ها نحن **برعاية أمير المؤمنين وبدعوته**

وبإشرافه وبرعايته تعقد هذا الملتقى الدولي للطرق الصوفية وللطريقة التجانية خاصة في منبعها ومطلع شمسها ومنطلق أسرارها وأنوارها، في مدينة فاس الفيحاء التي رحبت بكم قبل أن تصلوا إليها، ومنذ بلغها خبر توجهكم إليها واستمرت في ترحيبها وفي إظهار البهجة والسرور والسعادة بوجودكم بين أحضانها منذ وطئت أقدامكم الكريمة هذه الديار. ولقد استمعتم أيها السادة الكرام إلى **كلمة جلالة الملك أمير المؤمنين الحسن الثاني أدام الله نصره وعزه،** تلك الكلمة السامية الكريمة التي أبى جلالته إلا أن يوجهها من فرنسا إلى ملتقاكم هذا، والتي أبرز فيها مكانة هذه الطريقة وأهلها في نفس جلالته وقلبه وما يكنه لها ولأهلها من تقدير وإكبار وإعزاز، ورثه عن آبائه وأجداده الكرام. والحمد لله فالطريقة التجانية في مستوى هذا التكريم رغم الحاسدين والماكرين والضالين المضللين، ولهؤلاء نقول : من أراد أن يعرف فضل الطريقة التجانية، فلينظر إلى عدد من اعتنق الإسلام على يد مشايخها في إفريقيا وفي العالم، ولينظر إلى عدد اتباعها وليحص أتباعه، وهل له مثل اتباعها، ولينظر إلى إيمان رجالها الراسخ وعقيدتهم الصافية وأخلاقهم العالية، ولينظر إلى علمائها ومشاركتهم في العلوم تلقينا وتأليفا، ولينظر إلى أدبائها وشعرائها، ولينظر إلى وزرائها، ولينظر إلى جهادها بالنفس والنفيس في سبيل إعلاء كلمة الله، ولينظر إلى روح الأخوة والتعاون والتآزر والتآلف التي بين أفرادها، ولينظر إلى مكانة كتاب الله فيها، ولينظر إلى ذكر الله فيها، ولينظر إلى موضع سنة رسول الله ﷺ فيها، ولينظر إلى حب أهلها لآل البيت وتعلقهم بهم وولائهم الروحي لهم.

ماذا عساني أقول، وهل أستطيع أن أعد محاسنها ؟ فليخرس لسان كل حاسد، وليطأطئ رأسه كل مكابر معاند.

- أيها السادة :

والله لا أحتاج إلى الترحيب بكم، لأنكم في بلدكم وبين أهليكم وإخوتكم، وليس فيكم ضيف واحد، بل كلكم أسرة واحدة في بلدكم وفي منبع طريقتكم وفي مدفن شيخكم.

- حضرات السادة الكرام :

اسمحوا لي أن أتوجه بالشكر العميق الجزيل إلى راعي هذه الندوة باسمكم جميعا **إلى أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني،** فهو الذي آوى الصوفية في بلده، وهو الذي حمى الصوفيين وهو الذي بسط رداءه للصوفيين، وهو الذي رحب بكم في مملكته.

واسمحوا لي أن أشكر كل من أسهم في إعداد هذه الندوة وتوفير الجو المناسب لها والوسائل الضرورية لإنجاحها، بدءا بالكتابة الخاصة لجلالة الملك، وديوان جلالته، والسيد الوزير الأول في حكومة جلالة الملك، وجميع وزارات حكومة جلالته، وأن أخص بالشكر سعادة عامل صاحب الجلالة على إقليم فاس، وسعادة رئيس المجلس البلدي لمدينة فاس، وأن أشكر أطر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية وعلى رأسهم الكتاب العام للوزارة الحاج محمد المرابط الذين خدموكم بكل حب وتفان وإخلاص غيرة منهم على هذه الندوة والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الفنّ النصْري بيْن غرناطة وفاسْ

للدكتور عبد الهادي التازي

إن هناك ظاهرةً حضارية أخذت معالمها تظهر في الأعوام الأخيرة، على يد مسؤولين سامين سواء في إسبانيا أو المغرب، ويتعلق الأمر بالبحث في التراث الذي يشترك فيه الطرفان المتجاوران وصولا إلى الأواصر القوية التي تربط على مر الدهور بين الشعبين الإسباني والمغربي، وانتهاءً إلى الحفاظ على تلك الوشائج ودعمها وتنميتها بروراً بذلك الماضي الأثيل وتطلّعاً للمستقبل الذي ننتظر أن تنعكس فيه وعليه صورة ذلك الأمس الجميل...

إن «أبناء العم» الذين انتقلوا من الأندلس إلى المغرب ظلوا على صلة وثيقة بالأندلس، يعيشون معها في وجداتهم، في قلوبهم، في مخطوطاتهم، في عاداتهم، في فنونهم..

ولم يكن غريباً علينا أن نسمع في المغرب عن أسماء لمدن أندلسية تحملها بقاع في المغرب تعبيرا عن ذلك الارتباط القويّ الذي نمّته السنون والقرون الخالية، سوف لا أذكر هنا بهذه المناسبة سوى واحد من تلك الأعلام الجغرافية التي تجد لها مكانا في جنوب المغرب على نحو ما تجد لها هنا مكانا في جنوب الأندلس...

ويتعلق الأمر بحصن المنكب الذي نقرأ عنه في الوثائق المغربية التي ترجع لعهد السعديين[1]، والذي رحل بدون شك، من الأندلس ليعيد إلى الذاكرة اسماً كان يحتضن طائفة من «أبناء العم» بعضهم فضل أن يبقى، وآثر الانتقال بعضهم الذي احتفظ باسم المُنكَّبَ كتحية متجددة إلى «أبناء العم» الموجودين هنا ! وكتعبير عن فكرة ما يسمى في اصطلاح البلديات المعاصرة بالتوأمة بين المدن...

فإذا ما تجاوزنا هذا الصعيد : صعيد «توأمة» المواقع والمدن، وإذا ما تجاوزنا كذلك نقاط اللقاء المتجلية في العادات والتقاليد، إذا ما تجاوزنا ذلك إلى ميدان الفن فإننا سنجد أنفسنا أمام حشد زاخر بالمعالم التي تدعونا إلى الجلوس سوية للوقوف على مفاتنها ومباهجها ووحدة مواضيعها، الأمر الذي يتميّز به هذا الركن دون غيره من أركان العالم...

وقد اخترت أن يكون حديثي اليوم خاصّا برواقين يحتلاّن قلب مدينة فاس، وبالذات في صحن أقدم وأهمّ وأشهر جامع يوجد بالمغرب، معروف باسم جامع القرويين أو جامعة القرويين نسبة إلى المهاجرين الذين وردوا من القيروان...

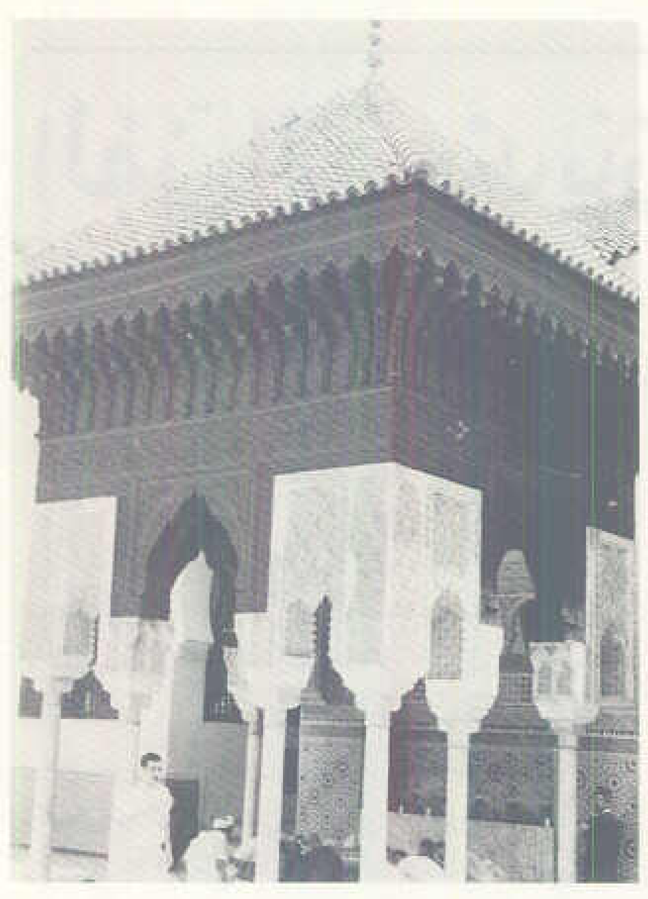
إذا قدّر للمرء أن يزور ساحة الحمراء في غرناطة ثم تأخذه طائرة لتنزله في فناء مسجد فاس فإنه ليخيّل إليه أنه ما يزال في صحن الحمراء..! الشكل واحد والتصميم واحد والمقاييس واحدة وحتى الموقع المتقابل واحد...

1) هذا هو الحصن الذي ورد في شعر أبي فارس الفشتالي يهنئ بفتحه الخليفة الناصر أواخر رمضان 1029 = 29 غشت 1620 : وهو بالذات «إيمي نتانوت».

ورد البشـر بفتـح حصـن الفتـح في
شهـر بـه حـور الجنـان تزيـن...
ع. كنون : رسائل سعدية ص 227 228.م السوسي : المعسول ج 19 ص 84.



منظر من ساحة الأسود في حمراء غرناطة.



منظر من صحن جامع القرويين بفاس.

وهذا كان يعني أن هناك امتداداً ملحوظاً للفنّ النّصرى نحو المغرب، والواقع أن الجهود تضافرت بين اليد المغربية واليد الأندلسية منذ الأيام الأولى للوجود العربي في جنوب اسبانيا على نحو ما نقرأه للمؤرخ الأندلسي أبي مروان عبد الملك ابن صاحب الصلاة في الفصل الخاص من كتابه بـ «بناء جامع اشبيلية» حيث نجد طائفةً من الفنانين المغاربة يعبرون البوغاز لأداء مهمتهم هناك.

ولكن الذي يهمني الآن هو تقديم الرواقين الفاسيين... منذ العهد الذي بنى فيه جامع اشبيلية على عهد الموحدين، أنشئت في صحن هذا المسجد الشهير، بالناحية الشرقية منه، خصّة حسناء من رخام قديم أعدت لوضوء المصلّين لكن الخصة بقيت عارية دون ما أن يظللها سقف يحمي المتوضئين من وهج الشمس وهطول المطر...

وبما أن الجامع المذكور كان يحظى من سائر ملوك المغرب بما يجدّد من حياته وما يجمّل جهاته فقد رأينا السلطان أبا العباس أحمد المنصور الملقب بالذهبي يزوده بخصة أخرى عوض بها الخصة القديمة... وقد جلب رخامها من فرنسا على ما يقيده المقّرى في كتابه «روض الآس».

ولما تمّ هذا الاستبدال وجدها المنصور فرصة لبناء قبّة رائعة على الخصّة حيث وجدناه يستشير عددا من المهندسين حول تصميمها...

وبما أن فاس على هذا العهد كانت تزخر بالبنّائين الذين كوّنهم أجدادهم بعد تسليم مفاتيح الحمراء ثاني يناير 1492 = 20 صفر 896 فقد وقع اختيارهم على تصميم الرواق الموجود بساحة الحمراء..

قال المقّرى : وقد رأيت هذه القبة وقد أكملت صنعتها إلى الغاية، وجعل على خارجها وفي داخلها الذهب الأحمر، فهي عبرة لمن اعتبر، وكان ذلك سنة 996 هـ = 1588م.

وقد طلب إلى ابن القاضي صاحب (الجذوة) أن ينشىء شعرا مما يكتب داخل القبة المذكورة المزركشة بأنواع الألوان والنقوش وغير ذلك من أنواع الصباغات، فنظم أبياتاً ضمنها تاريخ الانشاء[2] :

كهف الملوك أبو العباس أنشأني
بحر المكارم من معد بن عدنان
حزت المفاخر بالمنصور أجمعها
ومن علاء سنام المجد أرساني
من جاء يشكو الظمأ يوما وقبلى
أغناه ما قد همى من صوب أجفاني
لا تنكرنّ وجود الدمع من فرحي
فالعين تدمع من إفراط سلوان !
واشرب هنيئا من السلسال لا حرج
فعين دمع جرى من فيض خلجاني
فخر السلاطين من أبناء فاطمة
أشاع صيتي إلى أطراف عمّان !
وقد جرت مقلتي تحكي سحائبها
كف الخليفة من أبناء زيدان
لا زال للدين والدنيا يسوسهما
ما هيجت عاشقا وُرْق بأفنان
إذ شادني زمن التاريخ وافقه
(للدين) والأجر بحر الجود أجراني

وقد نقش خارج القبة شعر الأديب الكاتب أبي العباس الغرديس (ت 1020 هـ) الذي لم يتضمن تاريخا :

حسن سنى منظري يستوقف النظرا
وفائق الصنع منى طرّز الطّررا
حباب ماء من الدر النثير عدا
وصوب وردي من ذوب اللجين جرى
ابن نبيّ الهدى المنصور أبدعني
من فيض نعماه ما بين الورى انتشرا
فعال بره لا يحصى تعدّدها
وخبر آثاره يصدّق الخبَرا

وقد كان من المفروض أن يشتمل الخد الغربي للقبة، الموالي للصحن على البيتين الباقيين من قطعة الغرديس :

لا ينثني راشف ثغريّ من ظمأ
إلاّ ويحمد مني الورد والصّدرا
من أمّ قُربي بفرض أو بنافلة
يجد معيني مبينا للظهور سرى

لكنه، أي الخد الغربي يشتمل اليوم على ما يشبه أن يكون بيتين من شعر غريب يظهر أنه طرأ عند عملية إصلاح للقبة فيما بعد، أيام الدولة العلوية.

قال المقرى : «وقد رأيت القطعتين مكتوبتين بالقبة، تلك من داخلها وهذه من خارجها».

ويظهر أن المنصور الذهبي كان يعتزم أن ينشىء في مقابل هذه الخصة بما يعلوها من قبة، أخرى بخصتها في مقابلها، إلا أن الوفاة أدركته وادّخرت الأقدار لذلك حفيده الأمير أبا محمد عبد الله بن محمد الشيخ..

وهكذا رأينا هذا الحفيد يسعى لتجميل الجانب الغربي من صحن جامع فاس بخصة وقبة كانتا تفوقان من حيث الفنّ والدّقة ما كان جده المنصور قام به في الجانب الشرقي، فاكتملت بذلك صورة طريفة من الأندلس، ومن غرناطة بالذات، من ساحة الأسود، حيث تتقابل قباب في مثل هذا التصيم وهذا التركيب !.

---

2) د. التازي : جامع القرويين ج 2 ص 336 ـ 337.



مئذنة القرويين

وعلى نهج سابقتها فقد طرزت هذه القبة بباقات من الشعر زاهرة، نقش في داخلها مما تمكنتُ من تبينه بعد طول معاناة هذه الأبيات :

يـــا واقفـــا نـزّه صنعي وتصـــويري
(حـن سنـــاي) بـــديـع غير منكـــور
يـا من ترشّف عـذب الماء من ظمـأ
عليـك أقسمت بـالأحـزاب والنّـور
تـدعـو بنصرٍ لمن لاحت محـاسنـه
على الـدنـا كهلال فـوق ديجـور
خليفـة اللـه من في النبـوءة قـد
علت بـه همّـة بـالنصر مغمـور ؟
هـو الإمـام الـذي قـد حـاز منـزلـة
عنـد الإلاه بـدار الخلـد والحـور
أبـو محمـد عبـد اللـه أفضـل من
حـلاّه ربي بـجف ؟ الحسن والنّـور
من لا يـزال وعين اللـه تكلـؤه
من شرّ مـا يتقى وكـل محـذور
فـاخلص لـه دعـوة تمحـو إسـاءتـه
بجـاه أمّ القرى والبيت والطّـور

وعلى كـل قـوس دائرة عن اليمين، وأخرى على اليسار، ثمان دوائر نقش عليها كلمات : «باسم الله، ما شاء الله، لا قوة إلاّ بالله».

وعلى جوانب القبة من الخارج نقشت الأبيات التالية التي تـوزعت ابتـداء من الركن الشمـالي إلى الشرقي إلى الجنوبي، وهي تشير إلى تفوّق قبة الحفيد على قبّة الجد :

بـدائعي نسخت لمـا تلت سـورا
من الجمـال الـذي أبـدى بهـا صـورا

آيـات تلـك التي قـالت مصرحـة
«حسن سنـا منظري يستـوقف النّظرا» !
فحقّهـا أن تحـط الرأس صـاغرة
فـالكـوثر العـذب من مـاء المعين جرى
ولي فخـار عليهـا بـانتسـابي إلى
عبـد الإلاه الـذي كـل الـورى بصرا
ابن الإمـام الرضى المـأمـون من عظمت
بـه قريش وسـادت بـالعـلا مضرا
في عـام (زهـو) بعيـد الألف أبـدعني
لهجرة من دنـا من ربّـه وسرى
(لا ينثني راشف ثغريّ من ظمـأ
إلا ويحمـد منّي الـورد والصّـدرا)
(من رام قربـا بفرض أو بنـافلـة
يجـد معيني معينـا للطهـور جرى)[3]

هـذا وفي القـوس الشرقي الـذي يلي جهـة الصحن تتقابل لـوحتـان، نقش عليهما بخط نسخي كلام استعصى علينا التقاطه كله، ويشبه أن يكون قطعة شعرية مختومة بقافية اللام، ففي اللوحة الجنوبية من بدايتها : «صلى الله على محمد...» وفيمـا قبل السطر الأخير يمكن أن تقرأ : أبو محمد عبد الله أنشأها ؟.

وإذا كـانت سواري القبة الشرقية تخلو من كـلّ أثر للكتابـات المنقوشة، فإن بعض السـواري في هـذه القبـة الغربيـة امتـازت ببعض النقوش التي تحمل أسماء وتواريخ من عهد بني مرين، ويتعلّق الأمر بـالساريتين المتقابلتين اللتين تجاوران جدار الصومعة.

وتصميم الرواقين معا لا يكـاد يختلف في هـذا وذاك، فكلاهما يحتوي على أقواس مطرزة، وكلاهما يحتضن خصّة من المرمر : الشرقي يضم خصة المنصور السعدي والغربي يضم خصة حفيده.

وبعد فقد قصدت بهذا العرض أن أضع بين يدي القراء عنصراً من عناصر المقارنة والمفارقة بين ما يشاهده السائح في ساحة الأسود بحمراء غرناطة، وما يشاهده الزائر في صحن القرويين : بجامعة فاس.

3) نلاحظ أن البيتين الأخيرين للفرديس السابق الذكر...

ملاحظات حول مادة

القرآن في دائرة المعارف الإسلامية

للدكتور ابراهيم حركات

نشر المجلد الذي يتضمن مادة (قرآن) في هـذا المرجع بالإضافة إلى مواد أخرى، سنة 1927، ودائرة المعارف الإسلامية كما هو معلوم رجعت إليها ولا تزال هيئات علمية وباحثون عبر العالم، والطبعة الثانية بالرغم من بعض المراجعات التي أدخلت عليها ومساهمات بعض الباحثين والمهتمين من المسلمين في تحريرها، لا تخلو من هفوات ومثالب، دون أن يحق لأحد، أن ينكر ما بذل فيها من جهد كبير، وما تقدمه مواد عديدة فيها، من معلومات كثيرا ما تبلغ منتهى المقصود.

وممّا يلفت نظر القارئ فيها : بعض المواد المتعلقة بالعقيدة والتشريع، وحتى غيرها مما يهم المعرفة الإسلامية، ولما كان المجال لا يتسع لكاتب واحد ولا تسعه سطور أو صفحات، فسأقتصر هنا على مادة «قرآن» وعرض أهم النقط التي «عالجها» كاتبها (بول) Buhl، ثم محاولة تصحيح ما ورد فيها من أخطاء وتقويم ما لزم تقويمه.

بعد أن يعرف الكاتب مضمون القرآن على وجه العموم وينسب الوحي به إلى (محمد) ﷺ، لا إلى الله سبحانه، يدقق في اشتقاقات مصطلح القرآن ويذكر بعض مرادفاته كالكتاب والذكر، ثم يشرح الفرق بين السورة والآية.

وفي ص 1126 من الطبعة الأولى، علما بأن الطبعة الثانية أكدت سابقتها في أكثر من وجه، يود الكاتب أن يبرز غموض القرآن حسب فهمه، بشأن الطريقة التي كان ينزل بها الوحي، وأن محمدا ﷺ لم يكن يستطيع أو يريد استجلاء هذا الغموض، وبالمقابل، فطريقة نزول الوحي يمكن التعرف عليها من الحديث النبوي، ومن ذلك أن محمدا (والكاتب لا يعترف به رسولا)، كان يصاب بحالة تصف مرضية من الجذب، فيتدثر بمعطفه (!)، وفيما عدا بعض الاستثناءات فقد كان محمد يسمع خلال الوحي صوت الله... وعندما يخاطبه الله بـ «قل»، ينطق بما عليه أن يقوله فيعطي لكلامه عند ذلك صبغة إلاهية...

ويرى الكاتب أن نزول القرآن ليلة القدر في رمضان، حيث ينزل الملائكة إلى الأرض بأمر ربهم، حاملين وصايا إلهية مختلفة، إنما هو حسب شعاد Schaad، صدى متأخر للفكرة البابلية القديمة التي تقتضي أن يحدد مقدما (أي بطريقة فلكية) ما هو مقدر من أحداث خلال السنة.

ويواصل (بول) افتراضاته، بأن الرسول قد اعترف مرة على الأقل بآلهة مكة : اللات والعزى ومناة، ولكن عند ما (شعر بخطئه)، أخذ الوحي الصبغة التي نعرفها في الآية : ﴿**أفرأيتم اللات والعزى**﴾ إلى آخر قوله تعالى.).

أما السور المكية التي يصفها الكاتب بالقديمة فأسجاعها وصيغتها التي نراها عليها حتى الآن كانت في منظوره موضع تعديلات لاحقة. لكنه لا يفسر أسباب ولا (شكل) أو أهداف هذه التعديلات المفترضة والتي لا دليل عليها مطلقا، ويؤكد (بول) أن الآيات المتعلقة بالإيمان والشريعة لا تعالج هذا الجانب بكيفية مستفيضة قط، فالنبي (لا ما أوحي إليه) يمر بسرعة من موضوع إلى آخر حسب الظروف، وعلى سبيل المثل، فنحن لا نجد في القرآن إلا قليلا من التوضيحات المتفرقة حول الحج الأكبر، بحيث يستحيل إعادة تركيب كل احتفالات الحج لو لا وجود الحديث (النبوي).

وبعد أن يكتشف الكاتب (نقصا) في تناول أوقات الصلاة في القرآن يتطرق بسخرية إلى قضية المحكم والمتشابه، ويقول إن المتشابه لا يعرفه إلا الله، وأن محمدا يلقن تعاليم ثم يغيرها الله، وهذا هو الناسخ والمنسوخ... ثم ينتقل (في ص 1127) إلى ما يتعلق بصحف إبراهيم وموسى ويجزم بأن الرسول لا يمكن أن يكون قد قرأها، ومن ثم، فلا فائدة في حديث القرآن عنها !

وفي ص 1128 يحكم بدون الاستناد إلى مصدر، بأن الرسول رجع في أفكاره العامة، والدينية والأخلاقية، بل وحتى في فكرة الوحي الإلهي الذي يتكفل به ملائكة مخصوصون، إلى الاتصال باليهود والمسيحيين، واتصل (دون شك) كما قال، بالطوائف التي انفصلت عن اليهودية والنصرانية، والتي كانت كثيرة في بلاد العرب، ليتعرف على سلسلة الأنبياء المقصودين في الكتب السماوية، وتعاليقه (أي تعاليق الرسول ﷺ) تستمد في المرحلة المكية شكلها، لا من الكتاب المقدس (La Bible) لكن من كهان عرب ووثنيين، أي من خطبهم وعباراتهم وبركاتهم ولعناتهم...

وفي صفحة 1131 يتساءل عما إذا كان ترتيب السور الذي قام به ابن مسعود وأبيّ (رضي الله عنهما) من حيث البدء بالسور الطوال فما دونها تقليدا يهوديا، وينشغل كثيرا بما اختلف به مصحف ابن مسعود عن مصحف عثمان (رضي الله عنهما).

وفي الصفحة التالية يشك في قيمة إعدام المصاحف التي لا تتفق مع مصحف عثمان، بحجة أن القراء كانوا يحفظون هذا وتلك، وبدليل أن صاحب الفهرست يؤكد وجود نسخة تخلفت إلى عهده، من مصحف من مسعود، وينتقل بعد ذلك إلى الفاتحة التي لا يجد فيها أية فكرة إسلامية خاصة، بل تسودها بشكل قوي، كما قال، المصطلحات اليهودية والمسيحية وهو يعتبر أن السور الأخيرة التي تبدأ بـ «قل» تتميز بصبغة خاصة عن باقي السور، وليس لها وجود في مصحف ابن مسعود، ثم يتساءل : هل تمت إضافة هذه السور دون أن يعرف مصدرها ولا ما إذا كانت من عمل الرسول نفسه ؟ وهذا يقودنا (التعبير للكاتب) إلى مسألة مهمة أخرى، وهي ما إذا كانت باقي السور مصدرها الرسول نفسه، وبعض الخوارج يرفضون السورة 12 (سورة يوسف)، بوصفها قصة حب لا تليق بالقرآن، ولم يقل الكاتب إن ابن حزم هو الذي ذكر هذا لكن في عرض حديثه عن أشد الغلاة تطرفا بين الخوارج، وغلاة الخوارج انقرضوا في وقت مبكر من تاريخ الإسلام.

وفي صفحة 1133 ينقل رأي دوساسي De Sacy القائل بأن آية : ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل**﴾، إنما كانت من خيال أبي بكر، (أي تم اختلاقها بعد موت الرسول ﷺ).

هذه الافتراضات والتعاليق أهم ما احتوى عليها مقال (بول) في دائرة المعارف الإسلامية في طبعتها الأولى بشأن مادة القرآن، وليس في الطبعة الثانية إلا تأكيد لما سبق، فأما تأثير الوحي على الرسول ﷺ فقد أشار إليه القرآن الكريم إشارة خفيفة في قوله تعالى : يا أيها المدثر... يا أيها المزمل... وليس من شأن القرآن أن يصف تأثير الوحي بدقة، بل المقصود هو ما يوحى إلى الرسول وهو ما يهم الرسالة والموجهة إليهم هذه الرسالة.

والكاتب ينطلق في سائر عرضه، من أن القرآن من عمل الرسول، ويسير على ذلك بإصرار ودون أي دليل، وحيث إن القرآن بدأ ينزل على الرسول في ليلة القدر خلال شهر رمضان فإن (بول) يجد في ذلك علاقة بالتنجيم البابلي لأن الملائكة ينزلون بتعاليم ربانية ولأن ليلة القدر فرصة لتحسين أعمال المومنين شبيهة بالفرصة التي يتيحها طالع السنة لدى البابليين.

إن الربط هنا ليس علميا بالمرة، فالتقديرات الفلكية لا علاقة لها بما يقدر في ليلة القدر، فالأولى حسابات وتنبؤات، والثانية مجرد إخبار يؤكد الاستمرار وليس فيه طالع ولا أبراج أو منازل.

وفيما يتعلق باعتراف الرسول مرة بالأصنام كما قال، كان عليه أن يعود إلى كتب التفسير وسيرة ابن هشام، ولعل تفسير ابن كثير يغني عن غيره من التفاسير في هذا الباب، كما أورد الطبري في تاريخه الكثير من الروايات بشأن هذا الاعتراف المزعوم.

ما معنى أن القرآن لم يتضمن كل مراسيم الحج ؟ فمن جهة، يظهر أن الكاتب يجهل أن الحج كان يمارسه العرب قبل الإسلام بآلاف السنين فالقرآن إنما يذكر ببعض شروط الحج ومزاياه مع أن أكثر أعماله استمرار لما بدأ في عهد إبراهيم، ومن جهة أخرى فعمل السنة توضيح ما غمض ومالم يفصله القرآن، وهذا ما حدث فعلا، ولو كان على القرآن أن يوضح كل جزئيات الحج وسائر الشعائر وأحكام الشريعة لاستغرق مجلدات ولن يفي بالجزئيات، ومن ثم يصبح الرجوع إلى نصوصه متعذرا. والصلاة على سبيل المثل لا يتضمن القرآن من أعمالها وأنواعها إلا النزر اليسير حتى إن طريقة أداء الصلوات المفروضة اقتضت وحيا خاصا كما هو معروف في كتب السيرة، وهذا الوحي لا يتضمنه النص القرآني وذلك اكتفاء بممارسة الرسول للصلاة طبقا لما أوحي إليه، وتقليد الصحابة له في ذلك ثم سائر الأجيال بالتواتر، وهذا ما حصل في أوقات الصلاة أيضا وفي غيرها.

والكاتب يجهل أن النسخ في القرآن يرمي في أكثر من حالة إلى التدرج في التشريع، وأن الفرق بين المحكم والمتشابه هو كالفرق بين قدرة الإنسان التي تنتهي عند حد، وقدرة تعلوها بلا حدود. ولنطلب من عالم قدير أن يحدد نهاية السماء وما وراءها، أو يقدم تاريخا لنهاية الكون، أو ما هو البديل عن الماء إذا نفد وتوقفت السماء عن الإمطار، أو هل يستطيع الإنسان أن يتحكم في تحديد عمره لا فلكيا بل بيولوجيا، بحيث يحددكم يعيش بمحض رغبته، فإن الجواب عن هذا وعن مآت الأسئلة الأخرى لن يكون في أحسن حالة، إلا رجما بالغيب أو اعترافا بالعجز والقصور، على أن في علماء الإسلام من تناول المتشابه بالدرس وبعضهم قريبون من عصر الصحابة كمقاتل بن سليمان المتوفي سنة 150 هـ وكتب حتى في الناسخ والمنسوخ فضلا عن التفسير.

أما صحف إبراهيم وموسى فإذا كان الحديث عنها عبثا في القرآن لأن محمدا يجهلها، فالحكم نفسه صالح بالضرورة ليطبق على قصص الأنبياء والأمم الماضية وحقائق الكون، وهي كلها وغيرها كان لا يعرفها الرسول ﷺ، ثم إن الخطاب القرآني وما يتضمنه من أخبار وأحكام لا يختص بالرسول، فقد يهم فئة من الناس أو كل العرب أو المسلمين أو مجموع البشرية.

وفيما يتعلق بسجود الرسول للأصنام فقد طعن في هذه القصة عدد من كتاب السيرة كاليعمري أبي الفتح ابن سيد الناس بالرغم من رواية الطبري بهذا الشأن، وقد ناقش هذه النقطة كاتب هذه الملاحظات في دراسة عن السياسة والمجتمع في العصر النبوي ستنشر إن شاء الله.

ثم إن (بول) يصر على أن الرسول يقتبس عن اليهود بصفة خاصة وأحيانا عن المسيحيين أيضا، فحتى ترتيب مصحف ابن مسعود ومصحف أبيّ يقتبس عن الكتاب المقدس، وأي قارئ عادي يستطيع أن يؤكد بمجرد إلقاء نظرة على أسفار الكتاب المقدس، أنه لا وجه للمقارنة بينها وبين سور القرآن لا من حيث الشكل ولا الترتيب ولا من حيث المحتوى، وحتى مصحف ابن مسعود الذي لم يتعرف

منه (بول) إلا على ترتيب السور يدخل في هذا الحكم طبعا، ومن ناحية أخرى فإذا كان القرآن قد أخذ بمصطلحات عبرية ففيه أيضا مصطلحات حبشية ويونانية وفارسية، فلماذا الإلحاح على العبرية بالذات وهي والعربية من منبع واحد هو الآرامية ؟ ألم يكن الأولى أن نقول إن القرآن أخذ بعدد من المصطلحات الآرامية الأصل، والتي احتفظت بها العبرية ثم أحيتها العربية عندما احتاجت إليها انطلاقا من القرآن ؟ كذلك فإن غياب النصوص والمعلومات لدى المسلمين عن ديانة إبراهيم والتي هي أصل الديانات السماوية الثلاث أتاح للموسوية أن تتزود من منبع هام كان قريبا منها تاريخيا، فأغناها قطعا بالمصطلحات والتعاليم، والإسلام لم ينقض ديانة إبراهيم بل احتفظ بجملة من معالمها وبالأخص ما يتعلق بطقوس الحج والأضحية. وعندما وجد الرسول ﷺ اليهود يحتفلون بعاشوراء قال نحن أولى بهذا العيد منهم أو كما قال، كان بدون شك ينظر إلى الجذور السماوية لهذا العيد، فإذا كان القرآن قد سجل تحريف التوراة فهو ينوه باستمرار بالأصول الحنيفية كما ورد في قوله تعالى : ﴿**ملة أبيكم إبراهيم، هو سماكم المسلمين**﴾ الآية...

وحيث أن (بول) يقحم الرسول ﷺ في تحرير النص القرآني فلا شيء في نظره يمنع من اعتبار الآية الكريمة : ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل...**﴾ (سورة آل عمران) مجرد ارتجال من خيال أبي بكر، بينما يعتمد الكاتب في هذا الافتراض على مستشرق آخر، وبذلك فإن الآية المذكورة إنما أضيفت إلى القرآن بعد موت الرسول ﷺ ! والحقيقة أن أبا بكر لم يزد على أن ردد نصا قرآنيا نزل على إثر نكسة أحد والتي أشيع خلالها مقتل الرسول ﷺ، وواضح أن عددا من المستشرقين والمتطفلين على ميدان الاستشراق نفسه يخلطون بين الوحي القرآني وتدوينه. ومعنى هذا فحتى إذا سلم عدد منهم بأن القرآن وحي، فإن كثيرين يجعلون من عملية التدوين تحريرا حقيقيا للنص، أو إعادة تحرير تتصرف فيه الأهواء.

فقليل هم أولئك الذين ينفضون عنهم فكرة أن تحرير الأناجيل والتوراة في فترة لاحقة للمسيح وموسى عليهما السلام ليست هي عملية تدوين القرآن التي تمت في العهد الراشدي، ومآت من الناس يحفظونه ويتقاضون عن حفظه تعويضا مشرفا في عصر عمر، ولم يرتفع صوت مطلقا في أن آية معينة ولا حتى لفظا معينا كان موضع أخذ ورد أو شبهة، أما اختلاف القراءات فمعظمه إما لعدم نقط المصحف (أي عدم شكله) وإما لتباين بسيط في اللهجات وهو اختلاف شكلي ولازال محفوظا لدى مقرئي العالم الإسلامي حتى يومنا هذا، وبكلمة موجزة فيكفي للتدليل على احتفاظ النص القرآني بوحدته منذ التدوين العثماني أن تستمع الآن إلى مقرئ من أندونيسيا وآخر من المغرب مثلا، للتأكد من هذه الوحدة التي استمرت أربعة عشر قرنا ولن يفلح أي كان في زعزعتها.

وحيث إن الكتابة في موضوع القرآن ليست مجرد عملية عقلانية تستند إلى الافتراضات والتصورات، فإن اللوم يقع في النهاية على الجهة التي سمحت باعتبار مقال بول صالحا كمادة علمية لدائرة معارف إسلامية ذات صبغة دولية،فما الذي ينقص هذا المقال ليصبح دراسة علمية سليمة ؟

أولا - يجب أن يستطيع كاتبه الرجوع إلى الحديث النبوي وكتب التفسير والسيرة النبوية، وأن يكون ملما بشيء من مصطلح الحديث أو على الأقل أن يُلمّ بمعلومات كافية عن الصحابة الذين تكفلوا بتدوين القرآن ليمكنه أن يتناول قضية التدوين بكيفية موضوعية.

ثانيا - ينبغي أن تكون له نظرة عن القراءات وشيء من المعرفة بفقه اللغة وما يمس اللهجات العربية، وحد أدنى من علوم الشريعة الإسلامية.

ثالثا - يجب أن يجعل من الدراسة مادة متكاملة تتناول بالإضافة إلى ظروف الوحي وتدوين القرآن، أسباب النزول والناسخ والمنسوخ وحتى بعض ما قيل عن المتشابه عبر التفاسير وغيرها.

رابعا - يعرض موضوعات القرآن ويقدم نماذج تتعلق بمسائل العقيدة والتشريع في التوراة ليقارنها بما أورده

القرآن، وهذه النقطة ضرورية لتوضيح التطور الذي انتهى إليه القرآن بالنسبة للديانات السالفة.

وبعد أن تعوزه الحجة بالرغم من كل هذه المستندات والاستعداد العلمي فحينئذ يضع تساؤلاته وحتى افتراضاته فيما يخص الجوانب التي عجز عن توضيحها، وهذا مع العلم بأن إخضاع كل شيء للعقل لا يستطيعه العقل، كما هو الشأن مثلا في أنواع من العلاج الروحي يعجز عنها الطب البدني والتفسير العلمي.

وبديهي أن المادة التي تقدمها أي دائرة معارف لا يمكن أن تنبني على النقد من البدء إلى النهاية، فلابد من عملية تركيبية تجمع شتات النقط الرئيسية في أقصى حدود التركيز والموضوعية، ثم تستخرج أهم النقط التي من شأنها، إثراء الموضوع بشيء جديد، والمصادر الأساسية هي التي يجب أن تكون معتمدا، أما الحديثة فللاستئناس ونقل بعض الآراء عنها بأمانة دون التقيد بها، بل من الواجب مناقشة أهمها عند الاقتضاء إذا كان لها أو لصاحبها تأثير كبير على القراء ودون أن تصبح هذه الآراء هي المحور بدل المادة الأصلية، ومع هذا فمن الأمانة نقل الآراء التي لا توافق مزاج الكاتب، فربما كانت هي الراجحة، والخطر في جميع الأحوال هو أن يسند عمل مهما بلغ من خطره، إلى أي كان مهما نزل جهله.



كيف طبع الإسلام المسار الحضاري في المغرب

2

للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله

معركة وادي المخازن : (جمادى الأولى 986 ـ 4 غشت 1578م) : في هذه الغضون كان المتوكل قد وصل إلى اشبونة فتطارح على ملكها الشاب الدون سبستيان الذي كانت نفسه الطموح تحدثه بغزو المغرب في حملات صليبية جديدة، وحسب الأمير المغرور الفرصة سانحة فاهتبلها رغم نصح رجال الدولة بالعدول عن هذه المغامرة الزائفة، غير أن الحشود (20) البرتغالية كانت قد تجمعت في طنجة وأصيلا (ربيع الثاني عام 986 هـ) وبرر المتوكل هذه الحملة الصليبية على المغرب وفتح أبواب أصيلا للمسيحيين ـ وكانوا قد جلوا عنها أيام محمد الشيخ ـ بتقاعس المسلمين عن نصرته فأجابه العلماء والأجناد برسالة حملوه فيها تبعة الفرار من المسؤولية والنزو على العرش الذي عهد محمد الشيخ به للأكبر تبعا لتقاليد الملك العضود في صدر الإسلام، وسار الأجناد البرتغاليون في حركة بطيئة بعرباتهم ومعداتهم الثقيلة فوصلوا إلى أرباض القصر الكبير في ظرف زهاء عشرة أيام واستنفر أبو مروان في هذه الأثناء جيش فاس بقيادة أخيه لمواجهة هذا الزحف الأجنبي الذي نصح المتوكل تعزيزه باحتلال تطوان والعرائش للاستعانة سلفا بقبائلهما ولكن أبا مروان استعجل سبستيان بالتحدي (21) فعبر وادي المخازن وعسكر قبالته وبادر أبو مروان غب وصوله بنسف قنطرته فانحبس البرتغاليون بين نهرين وتعذر عليهم كل تراجع إلى الخلف لانعدام المشارع في الوادي وانتظم الرجالة المسيحيون ضمن مربع قبعت في قلبه قوافل عربات المؤن والذخيرة ووقف الرماة في الطليعة والفرسان ميمنة وميسرة وواجههم المسلمون في نفس النسق في شكل هلال مسرح الأجنحة للانقضاض من الجوانب عند الاقتضاء وبدأت المعركة في الهجيرة (متم جمادى الأولى عام 986 هـ ـ 4 غشت 1578م) وأشعة الشمس تبهر عيون العدو ولهيبها يلفح وجوههم وأسنة الرماح وقذائف الأنفاض تهددهم من أمام والمياه الزاخرة من خلف، وسارع جيش أبي العباس إلى الهجوم فانقضت ميمنته على مؤخرة العدو بينما اتجهت الميسرة ضد الرماة فتهالك المسيحيون صرعى من جراء هذه الصدمة العارمة، وانحازت الفلول الفارة فغرقت في اليم وفي ضمنها سبستيان والمتوكل ولفظ أبو مروان نفسه الأخير بعد استعصاء مرضه، فسلخت جثة المتوكل وحشيت تبنا وطيف بها في المدن وسلّمت أشلاء الأمير البرتغالي من طرف الأمير أبي العباس إلى ذويه ونقل رفاة أبي مروان الشهيد إلى مقبرة الأسرة بمراكش، وبويع أحمد خليفة فخف للقبض على زمام الأمر

(20) بلغ عدد الجنود البرتغالية 125.000 حسب نزهة الحادي والمنتقى المقصور و60.000 حسب الذخيرة السنية ونحو 200 مدفع أما المراجع الأجنبية فإنها تتحدث عن 14.000 راجل و2000 فارس و36 مدفعا مقابل 50.000 راجل في الجيش المغربي و22.000 فارس معظمهم أعراب من الخلط وغيرهم و1.500 من الرماة و20 مدفعا.

(21) تقول النزهة بأن أبا مروان كتب رسالة إلى الأمير البرتغالي يستفز نخوته للمجئ إلى وادي المخازن وكانت مكيدة من الخليفة السعدي.

بعد استتباب النصر وإعلان موت السلطان بينما تسارعت الفلول المهزومة لاجئة لأصيلا حيث بقي الأسطول رابضا.

وإذا كانت هذه المعركة الفاصلة فترة عارضة في تاريخ الصراع بين المسيحيين والإسلام - كما يقول طيراس - فإنها كانت انتفاضة شعبية ضد الصليبية المعتدية أنزلت الضربة الأخيرة بالطموح البرتغالي وفككت أوصال دولة البرتغال، لأن الدون سبستيان مات بدون وارث فخلفه عمه فيليب الثاني ملك إسبانيا التي اندمجت فيها البرتغال أزيد من ستين سنة، ولكن الأساطير انبثقت لتحيط هذا الجانب أو ذاك بهالة من القداسة ربما كان الكثير منها بعيدا كل البعد عن الواقع الذي لم يكن أكثر من معركة قضت على الوجود البرتغالي بالمغرب كما قضت وقعة طريف البسيطة العادية على الوجود المريني في الأندلس، ولكن صدمتها كانت من مظاهر عناية الله بالدولة الناشئة التي خطبت ودها الدول العظمى لأن هزيمة دولة استعمارية كالدولة البرتغالية لم يكن بالشيء الهين ولا بالشيء الذي يمر دون أن يثير إعجاب العالم مهما تكن حقيقة الأوضاع والملابسات، وأشع هذا الانتصار فتح عهدا جديدا في علائق النصرانية والإسلام.

بويع أبو العباس أحمد المنصور غداة انتصاره في معركة وادي المخازن وتوالت عليه وفود التهنئة من تركيا ٨الجزائر وقشتالة وفرنسا وحتى البرتغال بالهدايا والتحف الثمينة استعرضت في حفل شعبي بفاس.

وكان شغوفا بمظاهر الحضارة الأندلسية المغربية وبالطابع القومي في الفكر والتقاليد منكبا على دعم مقومات الدولة التي حاول أن يضفي عليها طابعا إفريقيا بتوسيع رقعتها في أقصى فيافي الجنوب ولعل اندحار البرتغال هو الذي حداه إلى أن يخلفه في اكتساح الصحراء والسودان.

واستشعر المنصور من مقامه في دار الخلافة العثمانية بما للمظاهر والشكليات من أثر عميق فوسم بلاطه بمعالم الفخفخة وتجلت التراتيب الطريفة في الجهاز العسكري بتنافس فاس ومراكش، ولم يغب عن ذهن المنصور ما كان يهدد كيان المملكة من الخارج لولا النزاعات الأروبية التي وجد فيها الخليفة حاجزا مؤقتا، وكان الصراع قائما آنذاك بين بلاد النمسا وانجلترا وفرنسا وهولندا مما قلص سياسة التوسع الإفريقي الإسبانية، ومعلوم أن شارل الخامس ملك إسبانيا كان امبراطورا للنمسا وألمانيا وحارب ملك فرنسا فرانسوا الأول طوال ثلاثين سنة وكذلك الأتراك وخلفه ولده فيليب الثاني الذي ملك إلى جانب إسبانيا هولندا ثم البرتغال بعد مرور ثلاث سنوات على وادي المخازن (1580)، وعاش بعد ذلك زهاء العشرين سنة (إلى 1598م) لم تمكنه الظروف خلالها من استفزاز المغرب الذي كانت ذكرى انتصاره الباهر ما زالت عالقة بالاذهان، كما انغمرت تركيا في الحروب الأوربية فلم تعد تهدد المغرب، وكان بذخ المغرب وقصوره الفخمة وعملته القوية تحدو الدول إلى خطب وده تقديرا لسكره وابريزه، وبعد أن كان فيليب الثاني يطمح إلى احتلال العرائش اضطر إلى التنازل عن أصيلا (1592م) لحمل السلطان على عدم تأييد الدون انطونيو الطامع في عرش البرتغال.

وكان المنصور قد اقتبل ببرود وفد مراد العثماني الذي ورد على مراكش للتهنئة بالنصر، فحنق الباب العالي وأنصت للطامعين في غزو المغرب أمثال الباشا علي علوج الذي تمكن من إقناع السلطان بتوجيه حملة ضد مراكش وطرق الخبر سمع المنصور فاستعد للنزال بينما وجه إلى القسطنطينية سفارة فيها الأحمدان : ابن ودة والهوزالي لقيت أسطول علوج في طريقه إلى المغرب فتم التهادن وتبادل الوفادات والهدايا وعززت إسبانيا حلفها للمغرب خوفا من وجود علوج بالقرب من مركزها بوهران، ولكن علوج أقصى إلى الشرق الأدنى ومات بعد خمس عشرة سنة، فتقاربت إسبانيا وتركيا بالاعتراف بالوضع القائم غربي البحر المتوسط وكان في ذلك تعزيز غير مباشر للسعديين.

أما مع إنجلترا فإن المبادلات التجارية ظلت نشيطة وعرف المغرب كيف يستغل قضية انطونيو الذي كانت إنجلترا تحدوه إلى مساعدته، فاحتفظ المغرب بنجل هذا الداعي واضطرت البرتغال للتنازل عن أصيلا لحمل المغرب

على عدم الإعانة فحاول الأسطول الإنجليزي وحده عبثا إمداد الأمير لاحتلال البرتغال، ومع ذلك بقيت إنجلترا تطمع في إقناع المنصور بالتحالف ضد إسبانيا والاشتراك في غزو الهند وبدأت الدبلوماسية الفرنسية منذ ذلك العهد توجه قناصلها للمغرب كما توطدت علائق طيبة مع هولندا.

وقد سبق للمنصور أن تلقى هدايا أمير برنو الذي استعان بالسعديين على نشر الدعوة الإسلامية، وكان قد استولى عام 990 هـ على بعض منافذ الصحراء كتوات وكورارة، فاستغل وجود الوفد السوداني لدعوته إلى البيعة ووفد رسولا إلى الأمير إسحاق للمطالبة بترتيب خراج على معدن الملح بتغازي مثقالا ذهبيا لكل حمل لتمويل الجهاد المشترك في سبيل نشر الإسلام بالسودان، وكان آل سكية يستدرون من هذا المنجم أموالا طائلة طمح المنصور إلى استغلالها باسم الخلافة فكان رفض الأمير إسحاق مطية لغزو السودان الذي بادر المنصور بامتطاء أوعاره رغم معارضة حاشيته، وتحرك الجيش المغربي بأجهزة جديدة قوامها آلاف الجمال (22) والأفراس وعدد من المدافع المحمولة على العجلات بقيادة الباشا جؤذر فوصلت القافلة العسكرية عن طريق درعة إلى تنبكتو ومنها إلى كاغو بعد ستة أشهر (16 ذي الحجة 998 هـ جمادى الأولى 999 هـ)، فانبرى الجيش السوداني والتحم الفريقان في تونديبي فانهزم الزنوج واحتل جؤذر مدينة كاغو وانحاز الجيش إلى تنبكتو بعد أن أرهقته وخامة الجو، فغضب الخليفة وبعث جيشا جديدا بإمرة محمود باشا أخي جؤذر فاستحث القائد الجديد ركائبه ووصل أوائل السنة التالية (1000 هـ) بقواربه المفككة لشحن الجند بمياه النيجر، وساوقه أغلب الجند برّاً فالتحم الفريقان وطورد إسحاق وأخوه فقتلا وظلت السودان خاضعة للقائد محمود ثم لسلسلة من الباشوات المستقلين والكاهيات الذين حكموا البلاد ودعي لهم على المنابر إلى آخر عهد الحسن الأول والاحتلال الفرنسي (1893م).

وقد اتخذت الحضارة المغربية في هذه الفترة مظهرا جديدا تبلورت فيه الازدواجية العربية التركية في الجيش.

ولكن هذا الجهاز الضخم ما لبث أن انهار بعد أن تطاحن أبناء المنصور لاعتلاء أريكة العرش وتجدد انقسام الدولة إلى مملكتي فاس ومراكش، وانبرى أمراء الطوائف لتجزئة المغرب إلى إقطاعيات. وانتشرت الفوضى بتعاقب الأدعياء على العرش وظلت الفوضى ضاربة أطنابها بفاس رغم محاولة مملكة مراكش السيطرة عليها إلى أن ملكها أهل الدلاء. كان زيدان منهمكا في تركيز سلطته بمملكة مراكش فسالم البرتغاليين في الجديدة واستنجد بالباب العالي (23) واستعان بالقراصين الإسبان عند استعصاء وضعه السياسي لتهريب ذخائره وخزانة كتبه إلى أكادير ولكن المنية عاجلته (1037 هـ) فخلفه ولده أبو مروان عبد الملك.

وهنا انبرى العياشي ففر من أزمور حيث كادت تحيط به عصابة زيدان بعد إثخانه ضد الجديدة ثم حارب إسبان المعمورة وانضمت إليه قبائل الأقاليم الممتدة من تامسنا إلى فاس وتازة معززة بالفقهاء والعلماء كسيدي العربي الفاسي وابن أبي بكر الدلائي ومحمد بن ناصر الدرعي، ثم استأصل بجيش فاس معظم حماة حلق الوادي وكاد يحرر المهدية لولا توارد الامدادات وتقاعس الجند الأندلسي عن إعداد الجهاز الحربي لتسلق الأسوار، ولم يقتصر جهاد العياشي على المهدية بل والى غاراته على العرائش وتوغل في مملكة مراكش للانقضاض على حماة الجديدة فاستأصل عام 1049 هـ (1639م) جند البرتغال ونقل أسراهم إلى سلا ثم حارب العدو في طنجة (1050 هـ - 1640م)، واستتب نفوذه في الغرب بإقرار النظام والضرب على يد المشاغبين وخاصة بفاس ومطاردة المغير الأجنبي ولكن خصومه الأندلسيين كانوا قد لجأوا إلى الدلائيين الذين أسس جدهم أبو بكر زاوية بالدلاء شرقي الخنيفرة بآيت إسحاق،

(22) تقول المصادر العربية بأن هذا الجيش بلغ 22.000 من رماة وفرسان ورجالة مقابل 104.000 مقاتل سوداني مجهز بالرماح والسيوف.

(23) ذكر اليفرني أن زيدان أهدى إلى القسطنطينية عشرة قناطير من الذهب فأعانوه بـ 12.000 جندي غرقوا في البحر.

فأصبحت مركز اشعاع علمي وخلفه نجله العالم محمد الذي التف حوله برابرة الأطلس الأوسط وعند وفاته (1046 هـ) أصبح ولده محمد الحاج زعيما سياسيا ما لبث أن زحف نحو الغرب فاحتل مكناسة (1050 هـ) ثم فاسا بعد مقتل العياشي وانضمام سهول الملوية.

وقد انبرى أبو الحسن أو أبو حسون علي بن محمد بن محمد نجل الصوفي أحمد بن موسى السملالي في السوس، فاستولى على تارودانت ولكن صوفيا آخر هو يحيى الحاحي انتزعها منه بعد عراك فمات بها (1035 هـ)، وامتد نفوذ أبي حسون بودميعة بعد موت زيدان إلى درعة وسجلماسة حيث استمر حكمه إلى قيام أمر الشرفاء العلويين.

وبينما كان الزيدانيون في الاحتضار محاطين بإمارات طرقية مستقلة أقرت وجودها بتزعم حركة الجهاد، كانت أفواج المهاجرين تتوارد بعد أن طردت إسبانيا نصف مليون من المسلمين واليهود الذين استقروا بتطوان والشاون ومصب أبي رقراق، فأصبحوا حربا على قوات الصليب وقراصنة البحار وأقاموا كيانات كانت لها سياستها الخارجية المستقلة ضمن كيان المغرب المنهار، وقد استوطن قصبة الوداية أول الأمر أندلسيون انحدروا تلقائيا من مدينة هورناشو الواقعة قرب ماردة، ثم التحقت بهم بعد سنة فلول من مدن الأندلس السفلى فاستقروا برباط الفتح أو (سلا الحديثة) داخل سور يقطع السور الموحدي عموديا من الجنوب إلى الوادي بأبراجه وأبوابه (شالة ـ البويبة ـ التبن) وأشرفت القصبة على المجموع في جهاز أوربي يدير دفته رئيس ديوان ومقدمان والتأموا مع زيدان والعياشي كجنود مجاهدين وقراصنة أشاوش ينوب الملك السعدي من أسلابهم العشر ولكنهم ما لبثوا أن تحرروا من قيود السلطان.

وقد هاجم الإسبان مصب أبي رقراق قبل وفاة زيدان بأربع سنوات بعد أن أصبحت المرسى مأوى للقراصنة الأجانب وخاصة منهم الإنجليز بزعيمهم هنري مانوارين، وقد اقتبس السعديون من العثمانيين نظامهم العسكري وأزياءهم وكثيرا من مصطلحاتهم، وأسند المنصور إلى ضباط أتراك تدريب العلوج والأندلسيين والعبيد الذين ضخم بهم جيشه بعد احتلال السودان، وأسندت قيادة قبائل الجيش (الكيش) إلى باشوات، وقد بلغ عدد جنود فاس في عهد المنصور 22.000 من بينهم 4.000 مخازنية (كلهم بأكسية الملف والحرير والكتان) وفرسان مراكش إثنى عشر ألفا (24) والسلطان مولاي عبد الله هو الذي أدرج الأندلسيين في ديوان الجيش، في حين أدخل المعتصم أهل فاس.

ويلاحظ بخصوص المؤسسات العسكرية أن الانقلاب الذي طرأ على الأساليب الحربية تحت تأثير بوادر النهضة الأوربية وانبثاق عهد الآلة حدا بالدولة المغربية إلى تعديل مناهج وطرق التعمير، فالأسوار المحيطة بالمدن الكبرى تعززت بأبراج مجهزة بعتاد جديد لمقاومة المدفعية مثل «باستيون» (أي حصن) تازة الحامي لممر تازة الواصل بين الشرق والغرب، طول اضلاعها ستة وعشرون مترا وتطل منها على المدينة ثلاث عشرة غرفة للرماية كما تحتوي على مستودعات للعتاد، وقد أقام المنصور بفاس برجين آخرين يشرفان على المدينة، ومازال البرج الجنوبي على حالته، بينما أدخلت تعديلات على البرج الشمالي خلال القرون الأخيرة، وتجدر الإشارة هنا إلى أن السعديين أضافوا أجهزة قوية جديدة إلى المعاقل والحصون البرتغالية في المدن المحررة (أسفي وأزمور والجديدة)، كما بنوا قناطر ذات طابعين إستراتيجي ونفعي ومعابر لنقل المياه وسقايات عمومية.

☆ ☆ ☆

أما الملوك العلويون فهم من أصل حسني انحدروا إلى المغرب من ينبع النخل بالحجاز، وأول من دخل منهم إلى المغرب هو حسن بن قاسم أواخر القرن السابع.

24) تاريخ الدولة السعدية (ص 38 ـ 48 ـ 53 ـ 74).

وأول قائد سياسي من حفدة حسن بن قاسم هو مولاي علي الشريف الذي أقام بفاس وجاهد في السودان والأندلس وترك في هذه ذكرا طيبا حدا الكثير من الغرناطيين إلى الرغبة في مبايعته.

وقد كون محمد بن الشريف بن علي جيشا تزعم به حركة تحرير الإقليم الشرقي من حكم الأتراك، حقق هدفه الأول وهو إثارة القبائل المغربية ضد خلافة الأتراك الذين شعروا لأول مرة بالخطر يدهم سلطانهم في المغرب الأوسط، فانبرى مولاي الرشيد يوطد دعائم الدولة الجديدة، وكانت الظروف مواتية، لأن سلطة الأمراء الإقليميين آذنت بالأفول، وأصبح المغرب في حاجة إلى انتفاضة يتزعمها قائد حربي، وكانت الجولة الاستطلاعية الرشيدية خير رائد للأمير العلوي في تخطيط سياسته العسكرية.

وقام أهل فاس من سكان الحوز (الحياينة والبهاليل والصفريويين) بتكوين جيش جهوي اكتتبوا لشراء خيله وعتاده، وأسهمت كل دار ببندقية في هذه العدة الحربية، وكانت باب الفتوح معرضا لهذه القوة.

وكانت للأمير خطتان رشيدتان في استئصال خصومه، هما تبديد قواهم بالحملات الدورية وتجزئة هذه الحملات ضد أعدائه دون أن يترك لهم فرصة التكتل ضده، فلم يكن يشرع في محاربة هذا حتى ينقلب فجأة ضد الآخر. وهكذا لم تكد تمضي سنوات معدودات على ظهور المولى الرشيد على المسرح السياسي، حتى أصبح سيد البلاد غير منازع، ووحد الأقاليم التي فرقت بينها إمارات جهوية جعلت من المغرب صورة لعصر ملوك الطوائف بالأندلس. وبنى القصبة المسماة بقصبة الشراردة حيث رابط جيش شراقة أي الجنود الواردون من المغرب الشرقي من عرب أشجع وبني عامر وبربر مديونة وهوارة وبني سنوس، فكانت النواة الأولى لجيش وطني انضوى تحت رايته المواطنون من العرب والبربر، وكابد الأمرين من دسائس الفرنسيين والإنجليز بالشمال، وكان البريطانيون قد استقروا بطنجة بعد أن زوج خوان السادس أخته لكارلوس الثاني ملك الإنجليز وجهز إليه العروس بمفاتيح طنجة، مما حدا فرنسا آنذاك إلى التفكير في احتلال بعض المراكز المغربية في ساحل الريف، ولكنها لم تفعل حيث اقتصر بعض تجارها على طلب تأسيس شركة في الحسيمة، فرفض الأمير هذا المقترح رغم وعود (رولان فريجوس Roland Fréjus) بإمداده بالعتاد الحربي كما رفض التفاوض مع الهولنديين، لأنه كان يهدف لإقصاء الأجانب مهما كلف ذلك من ثمن، وكانت اتفاقات بعض الملوك السعديين مع الدول المسيحية قد خلفت ذكريات مؤلمة لم تزل عالقة بنفوس الشعب، وهذا ما حدا المولى الرشيد إلى عدم استئصال أساطيل القرصنة بمصب أبي رقراق، لأنها كانت تشكل حاجزا دفاعيا ضد المغير الأوربي الذي بدأ يتعلل بأبسط الأسباب للتدخل في المغرب، وكان هذا الأسطول يقض مضاجع الغربيين الذين انبثوا على الساحل : الإنجليز في طنجة، والبرتغاليون في البريجة (الجديدة)، والإسبان في المعمورة (مهدية) وأصيلا والعرائش، بينما طفق الفرنسيون يمخرون بسفنهم الحربية على طول المراسي بين الريف ومصب الملوية عباب البحر الأبيض المتوسط حيث حصن الرشيد مرسى الحسيمة أو المزمة وحجرة نكور (مركز أول دولة عربية بالمغرب في القرن الأول للهجرة)، وصارع الإنجليز الذين كانوا يعملون من وراء الخضر غيلان واضعا بذلك اللبنات الأولى لتحرير الوطن بكامله من ربقة الاستعمار الغربي الناشئ.

وكان عشرات الآلاف من المتطوعين يتواردون من شرق البلاد وجنوبها للانخراط في الجيش الوطني الذي تكونت نواته الأولى من شراكة (المغرب الشرقي) والأوداية من الجنوب وأحواز الرباط والشراردة والمغافرة (25) وكذلك العبيد الذين كانوا يرابطون في مكناس، وقد انضمت إلى هذه العناصر القارة فلول من سوس وهم بقايا بني معقل الذين أدخلهم السعديون (أولاد مطاع وجرار

---

25) توجد بالأطلس المتوسط قبائل صنهاجية لا تحمل هذا الاسم وقد عدد أسماءها صاحب الاستقصا ج 9 ص 199 (طبعة دار الكتاب).

وزرارة والشبانات) وكذلك أهل عبدة والمنابهة والرحامنة وأولاد أحمر والخلط، وكان معظم هؤلاء الجنود من العرب. ولم يكن هنالك ديوان عام للجيش اللهم إلا فيما يخص العبيد (26) وأهل سوس الذين كانوا يمثلون العنصر النظامي في الجيش الوطني، فكانت أسماؤهم وحياتهم تقيد في سجلات خاصة (27)، وكان المولى إسماعيل يستمد جنده من القبائل أول الأمر حتى أطلعه عمر عليليش على دفتر فيه أسماء العبيد الذين كانوا في جيش المنصور السعدي وكانوا منتشرين في مراكش وأحوازها وقبائل الدير، فجمع منهم ثلاثة آلاف وقد سمى هؤلاء العبيد بالبخاري نسبة إلى الإمام البخاري، وحكى الرحالة طوماس بيلو وجود كتائب صغرى على رأسها قواد أجانب كانوا يرابطون في القصابي، ولا يستقرون في مكناس طويلا، ولعل السلطان كان يستخدم بعض العناصر منهم في المدفعية والهندسة العسكرية، ولم يستعملوا قط ـ كما فعل السعديون ـ على رأس المناصب الأساسية.

أما مسطرة التدريب العسكري فقد بدأت عام 1100 هـ بتوزيع أبناء العبيد على فرق اختصاصية في النجارة والبناء وباقي الحرف قبل الانخراط في الجندية، والتدرب على حمل الاثقال وركوب الخيل والكر والفر والمطاعنة والمراماة، ثم تزويج المتخرجين ببنات يربين في القصر وتسجيلهم في الديوان العسكري، وبهذه الوسيلة بلغ عددهم مائة وخمسين ألفا، وزع ثمانون ألفا منهم على القلاع لحمايتها، ورابط الباقي في مشرع الرملة أو «المحلات» المختلفة.

وقد آلي المولى إسماعيل على نفسه أن يحرر من ربقة البرتغاليين والإسبان جميع المراكز التي كانوا يرابطون فيها بالسواحل المغربية، وهكذا حرر المهدية التي استمر الإسبان في احتلالها نحوا من سبعين سنة (1092 هـ)، وأسر كثيرا من رجالها وأنزل بها حامية من أهل سوس، وفتح في أسوار القلعة البرتغالية بابا من جهة البرمع مسجد وقصر لوالي الحامية، وبعد ذلك بثلاث سنوات (1095 هـ) توجه الجيش إلى الشمال لفتح طنجة، فحاصرها واضطر الإنجليز إلى الجلاء عنها بعد أن هدموا جانبا من أسوارها وأبراجها، وبعد خمسة أعوام (1101 هـ) حوصرت العرائش طوال بضعة أشهر، فاستسلم الإسبان تحت تأثير الألغام المغربية التي أحدثت ثغرات في الأسوار، وعددهم نيف وثلاثة آلاف نقل معظمهم إلى مكناس، وقد ظل البرتغاليون مرابطين في الجديدة، بينما استمر احتلال الإسبان لسبتة رغم محاصرة السلطان لها بجيش عتيد عدة سنوات، وكذلك مليلية والحسيمة وبادس (28)، لأن معظم الجيوش كانت منهمكة في توطيد دعائم الدولة وتأمين البلاد، وقد قضى المولى إسماعيل نحوا من ربع قرن في هذه الحملات، أصبح المغرب بعدها موحدا، وامتدت رقعته إلى مجاهل الصحراء واخصب مناطق السودان حيث لم يسبق للمنصور السعدي نفسه أن وصل، واعترف الشعب عن بكرة أبيه بأن له ملكا واحدا ـ كما يقول اندري جوليان.

وكان المولى إسماعيل يحاول الضرب على يد الأدعياء في نفس الوقت الذي يقيم الحصون والقلاع، حيث استغرق أزيد من ربع قرن (1083 ـ 1111 هـ) في النضال الدائب لجمع شتات الأقاليم الموزعة بين الأدعياء، وتحرير بعض المراكز المحتلة من طرف الغربيين، ولولا ازدواج الجبهتين الداخلية والخارجية، لاستطاع أن يحرر ما بقي من مدن ساحلية في قبضة الأجانب.

26) تقول بعض المصادر بأن عليليش جمع بأمر من قاضي القضاة محمد العياشي نحو 70 ألفا من العبيد ألحقها بمشرع الرملة قرب سيدي سليمان (14 ألفا حسب الناصري) وألحق بباب السلطان نحو العشرة آلاف من الذكور و20 ألفا من الأناث، ويقول الزياني أن عدد هؤلاء وصل إلى 150 ألفا آخر أيام مولاي إسماعيل.

27) مازال بعض هذه الدفاتر في الخزانة الزيدانية بمكناس وتوجد دفاتر أخرى تحتوي على لوائح جنود القبائل، وكان في كل قبيلة بجانب السجل الجبائي سجل خاص بالخدمة العسكرية يحرر في نسختين، وقد أشار الناصري في الاستقصا (ج 4 ص 42) إلى أن قضية تجنيد العبيد مفصلة في الكناش الكبير الاسماعيلي، ومن بينهم أهل الديوان المجلوبون من القبائل العديدة برسم الجندية، وأشار إلى الخلاف الذي قام بين السلطان والعلماء حول (ديوان الحراطين) دفاعا منهم عن حرية هؤلاء وتملكهم بدون حق وقد قتل خلال هذه الأزمة العالم عبد السلام بن حمدون جسوس عام (1121 هـ) على يد عامل فاس.

28) في المنزع اللطيف في التلميح لمفاخر إسماعيل بن الشريف للمرحوم ابن زيدان ضمن الباب السابع أن الجيش الإسماعيلي فتح بادس وهدم حصنها سنة 1113 هـ.

وكانت مكناس كرسي الوزارة في عهد المرينيين فاختارها المولى إسماعيل حاضرة لملكه أقام فيها القصبة التي فتح في سورها عشرين بابا تعلوها أبراج معززة بالمدافع والمهاريس، وأسس بحيرة تمخرها الزوارق، وأهراء واسعة لخزن المحاصيل، وحصنا مستديرا تصوب مدافعه إلى الجهات الأربع، واصطبلا تمتد مرافقه بضعة كيلومترات يسع آلاف الأفراس، وملحة مربعة لإيداع العتاد.

ولعل من العوامل التي حدت السلطان إلى اختيار هذه العاصمة موقعها الاستراتيجي المؤدى إلى الأطلس الأوسط، والمشرف على المنافذ الشمالية لفازاز وتادلة الشارعتين إلى مراكش وأقصى الجنوب، وأهمية هذه المناطق من الناحية العسكرية هي التي تفسر لنا تكليف ولي العهد نفسه بإدارة شؤونها.

وكان الأمير في تخطيطاته المعمارية رائعا منطقي التوزيع، عرف كيف يصم مواقع الجيش، وقد نهج المولى إسماعيل مع أوربا سياسة التدافع نظراً لأطماع الغربيين، وكان يهدف إلى عقد تحالف هجومي مع فرنسا ضد المراكز الإسبانية بالمغرب، كما كان يهدف إلى غايتين : هما تحرير الأساري المغاربة المشتغلين في الزوارق الملكية بالمياه الفرنسية، والحصول على إمدادات عسكرية لاستكمال تحرير البلاد، وبعد جلاء إنجلترا عن طنجة واضطرارها إلى احتلال جبل طارق (1117 هـ)، أصبحت إسبانيا من ألد أعدائها، فساعد ذلك على توثيق روابطها مع المغرب ودعم تجارتها، لا سيما وأن فرنسا كانت قد أفرغت لها المجال.

وظل المحور الجوهري للعلائق المغربية الأوربية، هو ضمان التدافع بين الدول الأوربية لاستتمام تحرير الوطن.

وفي هذا العهد (1171 هـ ـ 1204 هـ) عرف المغرب شيئا غير قليل من الاستقرار وما يستتبعه من ازدهار، فقد تمكنت البلاد من تركيز وحدتها وتحرير عدد من المراكز الأجنبية في ربوعها، وقامت جيوشها وأساطيلها حاجزا منيعا في وجه الغزو الأجنبي، على أن أوربا كانت خلال الفترة التي تقرب من ثلاثة أرباع قرن في فورة من النزاعات والحروب بين دولها، زادها اشتدادا انبثاق عهد الاستعمار الجديد، حيث اتجهت أنظار الغربيين إلى آسيا وخيراتها، فبدأ الصراع العنيف والتسابق نحو احتلال جزر الشرق الأقصى، وتعزيز الصناعة الأوربية بموادها الأولية، وكانت الامبراطورية العثمانية آنذاك في طريق الأفول، فتقلصت بذلك المعارك الدامية بين الإسلام والنصرانية وخلفتها قرصنة الجمهوريات القائمة على سواحل البحر المتوسط في الأقطار الإسلامية والنصرانية، مما حدا مؤتمرات الحلف المقدس إلى التضافر ضد الأساطيل القرصنية والتركية.

وفي سنة 1173 هـ حاول السلطان إعادة تنظيم الجيش وتعزيزه بعناصر جديدة، سجلت في ديوان الجيش بمكناس، وقد عزز الثغور بحاميات قوامها 16.500 جندي وزع عليها عام 1200 هـ ثلاثة ملايين مثقال، كراتب مسبق لخمس عشرة سنة، وأقام الأبراج في المراسي مثل العرائش وأنفا، وكذلك سلا والرباط حيث بنى برج الصراط (1169 هـ) ثم برج صقالة (1190 هـ) على يد المهندس أحمد الإنجليزي، واستقدم بعثة من الخبراء الأتراك لتدريب رماة الجيش، كما وجه 600 جندي من أيت عطة و400 من عبيد تافيلالت إلى طنجة لدراسة الفنون البحرية، ولم يكن يأنس للفنيين المسيحيين نظرا لاعتزامه إجلاء الأجانب بقوة عن المراسي المحتلة.

وقد كون أسطولا جدد به العهد السالف، ولكنه اصطدم بمصاعب في تجهيزه، وإن كان قد استطاع جلب بعض المواد من إنجلترا والسويد وتركيا، فعزز حماية المياه الإقليمية، علاوة على المراكب القرصانية بخمسين سفينة منها ثلاثون فركطة تحتوي على 60 قائدا وخمسة آلاف بحار وألفين من الرماة (الطبجية) و15.000 من العبيد و7.000 من الرجالة الأحرار ومثلها من الغرب و8.000 من الحوز.

أما الصويرة فقد أشرف بنفسه على تخطيطها ليجعل منها مركزا تجاريا ومربضا للقراصين الجهادية والحيلولة دون حركة التهريب في الجنوب على أثر احتلال الجديدة.

وأتقن السلطان عمرانه وشحن الجزيرتين الدائرتين به بالمدافع، وشيد برجا على صخرة داخل البحر (29)، وكان الأسطول القرصني يمخر عباب المحيط، ويغير على الثغور الأوربية، ويقتنص المراكب الأجنبية، وقد غنم المغاربة أحد مراكب فرنسا وساقوه إلى مرسى العرائش، فقنبل أسطولها كلا من العرائش وسلا (1178 - 1179 هـ)، وقد توغل خمسة عشر مركبا من أسطول القائد الفرنسي دوشافو في وادي لكوس لمطاردة السفن الملكية. وشعر الأمير باستراتيجية مرافئ الاطلنطيق، فعزز تحصينها وبنى الأبراج ونقل إليها المدافع ولمهاريس وعبأ جيشا وحاصر مانزاغان (30) عام 1182 هـ، فانبثقت من أسوار المدينة نيران المجانيق البرتغالية عقبتها قذائف السلطان وقنابله (31)، وواصلت الحامية الصمود مستنجدة بأشبونة التي أمرتها بالاستسلام، ولم يجل البرتغاليون عن المدينة حتى أغرقوا أربعة زوارق وأحرقوا الاثاث والأواني والماشية ومئة مدفع ونشروا الألغام التي نفطت عند دخول الجيش.

وقد غزا الأمير مليلية عام 1185 هـ وطوقها ببطارياته من مدافع ومهاريس رمتها بوابل من مقذوفاتها المحرقة.

كما عمد السلطان إلى تقوية علاقاته الودية مع دول أوربا (32)، مثل الدنمارك التي التزمت بدفع اتاوة (33) للمغرب قدرها خمسة وعشرون مدفعا و6.500 ريال، والسويد التي تعهدت بتقديم 20.000 ريال سنويا، وقد تمت تصفية الشركة التجارية الدنماركية.

وكان المولى يزيد محبوبا في أول أمره لفتوته واستقامته وبطولته، مما دفع والده سيدي محمد بن عبد الله إلى لحظه بعين الرعاية وترشيحه للخلافة، وأسند قيادة المدفعية (الطبجية) والبحرية إليه، فصار يتجول في الثغور للسهر على مناعة أبراجها.

ولم يكد المولى يزيد يعتلي أريكة العرش وتنجلي أمامه بوادر الوحدة الوطنية، حتى أقام ست عشرة قلعة في نقط استراتيجية، جهز كل واحدة بعشرين مدفعا، ثم فكر في استئناف الجهاد ضد الإسبان، وهب السلطان لمحاصرة سبتة، ولكن انتقاض أهل الحوز حداه إلى رفع الحصار مؤقتا عن المدينة الشهيدة، واستكمل السلطان مولاي سليمان في دعة وهدوء وحدة الوطن، ووجه جيشا إلى المغرب الشرقي لاسترجاع وجدة من يد الأتراك.

استغرق المولى سليمان على أريكة العرش نيفا وثلاثين سنة لم يثر خلالها أي مشكل خارجي مع أوربا، وقد عزز علاقاته الودية مع الأتراك، وعقد الأمير مع الإسبان مهادنة، ولكن رغم هذه الروح الطيبة تحالفت الدول الأوربية ضد السلطان بدعوى محاربة القرصنة المغربية، وقضت على القرصان في تونس وطرابلس بينما انهزمت بالجزائر (1231 هـ)، وتعهد المولى سليمان باستئصال القرصنة، وقد ضغط عليه نابليون للانضمام إلى ما كان يسمى إذ ذاك بكتلة الحصار البري، وهي الحركة التي هدف بها الامبراطور الفرنسي عام 1806م إلى إقفال جميع الموانئ في وجه إنجلترا، وقد هدد نابليون ملك المغرب في رسائل شديدة اللهجة باكتساح إفريقيا بمئتي ألف جندي، ولكن المولى سليمان قابل ذلك بالرفض والبرود، غير أن المؤامرات الأوربية استفحلت وتمخضت في نهاية الأمر عن إجبار السلطان على التجرد من أسطوله الذي كان يحتوي إذ ذاك على 47 قطعة مجهزة بمدافع وبستة آلاف

29) يقال بأن المهندس الذي وضع تصميم تجديد بناء الصويرة هو الفرنسي كورنوط الذي أتقن شبكة التوزيع ورسم الاحياء ثم بنى القلعة المهندس أحمد الإنجليزي الذي سجل لقبه «أحمد لعلج» على باب البحر.

30) كانت الجديدة تسمى بما نزاغان، ثم البريجة ثم المهدومة قبل أن يجدد بناءها السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

31) لاحظ محمد المراكشي في كتابه «الحلل البهيجة في فتح البريجة» أن القنابل المغربية كانت تزن قنطارا وكانت مصنوعة من سبعة معادن.

32) نشر المؤرخ كايي Caillé كتابا ضمنه مجموعة المعاهدات والوثائق التي أبرمها سيدي محمد بن عبد الله مع دول أوربا.

33) اضطرت كثير من الدول أو الحواضر إلى خطب ود المغرب والتعاقد معه أو أداء إتاوة سنوية له مثل هامبورغ وبريم بألمانيا علاوة على الدنمارك والسويد.

من البحارة المهرة (34)، كما اضطر السلطان إلى السماح بتصدير الحبوب إلى أوربا بعد أن حارب على ذلك قبائل الريف (1227 هـ).

ولم يكن المولى عبد الرحمن بن هشام يقل عن عمه المولى سليمان نزاهة وفضلا ودراية، فقام بجولة استطلاعية انتقل فيها من الشمال إلى الجنوب، للم الشعث وتنظيم ما تبدد من قوى الأمة غب الثورات المتلاحقة، وللتأكد من مناعة الثغور الساحلية، وكان أساس الروابط الدبلوماسية مع أوربا ضمان حرية التجارة أو حل المشاكل القرصنية، وقد شعر السلطان بضعف جانبه في الحقل الملاحي، فأصدر الأمر بالكف عن الجهاد في البحر لا سيما بعد استعانة الفرنسيين بالإنجليز تمهيدا لاحتلال الجزائر على تقنين الحركة الأسطولية، غير أن تضامن المغرب مع الايالة المجاورة حداه إلى خوض معركة قاسية رغم قلة الوسائل (35).

وبدأت خطة فرنسا تتجلى تدريجيا، وكانت تهدف إلى وضع أسس الاستيلاء على مجموع إفريقيا الشمالية، فقد قلصت الأسطول الوطني وأجبرت المغرب بعد معركة إيسلي على التنازل عما كان يتقاضاه من تعويضات من دول أوربية، مثل السويد والدنمارك وهامبورغ وبريم، واثارت ضد المغرب حربا شعواء لمساندته للزعيم الجزائري عبد القادر بن محي الدين واستمر العراك العنيف ست عشرة سنة، واستقرت فرنسا في عاصمة الجزائر آخر محرم 1246 هـ (5يوليوز 1830)، واستنفر السلطان جيشا بقيادة ولده المولى محمد، ثم تقدم (بوجو) فاصطدم بالجيش قرب وادي إيسلي صباح منتصف شعبان عام 1260 هـ (13 غشت 1844)، فالتحم الفريقان وكان السلطان قد غير سحنته في المعمعة، فحسب الجند أنه هلك وماج الناس وعمد بعضهم إلى خباء السلطان، فانتهبوه وتناحروا على الاسلاب، وفر الكثير فاستشعر السلطان بالهول بعد أن تشتت الجيش الذي مني بهزيمة منكرة بعد بضع ساعات بسبب رداءة التنظيم وقلة الضباط والجنود المحترفين وأنانية الانتهازيين ويظهر أن إنجلترا ضغطت على فرنسا فلم تستغل انتصارها لاقتطاع جزء من المغرب ولكن السلطان اضطر إلى إمضاء معاهدة طنجة في نفس السنة (1260 هـ) ومرت ثلاث عشرة سنة استغرقها السلطان في تهدئة البلاد ودعم الثغور وكان آخر ما كلل به هذا التجهيز العسكري أن استقدم من إنجلترة مركبا مثقلا بالعتاد الحربي.

عين السلطان سيدي عبد الرحمن بن هشام ولده المولى محمدا وليا للعهد، كما استخلفه في حياته وفوض إليه قيادة الجيش، وكان الإسبان قد بدأوا يبذرون نواة لتوسيع شبكة نفوذهم في الشمال، فاحتلوا الجزر الجعفرية وأقاموا الأبنية في الحدود بين سبتة والأنجرة بدل الأكواخ الخشبية، فهدمها الجمهور الذي واصل غاراته على سبتة، وكان المولى عبد الرحمن قد توفي في غضون ذلك، فقرر السلطان بعد استشارة حاشيته إشهار الحرب على إسبانيا. وقد أبرق السلطان إلى الثغور للتأهب للجهاد وأمدها بالمال والعتاد، ووجه طلائع إلى أرباض تطوان قبالة سبتة لا يتجاوز عددهم ستمائة، وانضاف إليهم من أنجرة والقبائل المجاورة وأطراف البلاد نحو خمسة آلاف واجهت خمسين ألف جندي إسباني (36)، تحت قيادة الجنرال أودونيل وبريم، واستمر العراك نصف شهر بين زحف هؤلاء في صفوف متراصة وكر أولئك وفرهم على عادة العرب، ثم عزز السلطان هذه القوة بأخيه المولى العباس على رأس خمسمائة فارس، وبعد خمسة وعشرين يوما كلها مناوشات قام الإسبان بهجوم عنيف صمدت له الكتائب المغربية، ولكن الجيش الإسباني الذي كان معززا بالأسطول زحف عن طريق الساحل إلى الفنيدق، فتقهقر المولى العباس في غير ترتيب ولا انضباط إلى مجاز الحجر فاضطر أهل تطوان إلى فتح أبواب المدينة في وجه الجنرال الإسباني

---

34) كودار ص 156.

35) في عام 1268 هـ قنبل الفرنسيون سلا بدعوى نهب مركبين فرنسيين وكانت القطع ستا مجهزة بأزيد من ستين مدفعا فرت كلها في ظلام الليل (الاستقصا ج 4 ص 202).

36) عشرون ألفا حسب صاحب الاستقصا (ج 4 ص 214) ثم عززت بنحو خمسين ألفا أخرى (ص 218).

الـذي دخلهـا يـوم الاثنين 13 رجب 1276 هـ (5 يبراير 1860)، وأبرمت المعاهدة في أواخر شعبان عا 1276 هـ صفوف متراصة وكر أولئك وفرهم على عادة العرب، ثم عزز السلطان هذه القوة بأخيه المولى العباس على رأس خمسمائة فارس، وبعد خمسة وعشرين يوما كلها مناوشات قام الإسبان بهجوم عنيف صمدت له الكتائب المغربية، ولكن الجيش الإسباني الذي كان معززا بالأسطول زحف عن طريق الساحل إلى الفنيدق، فتقهقر المولى العباس في غير ترتيب ولا انضباط إلى مجاز الحجر فاضطر أهل تطوان إلى فتح أبواب المدينة في وجه الجنرال الإسباني الـذي دخلهـا يـوم الاثنين 13 رجب 1276 هـ (5 يبراير 1860)، وأبرمت المعاهدة في أواخر شعبان عام 1276 هـ شريطة أن يدفع المغرب عشرين مليون ريال، وتتسع منطقة نفوذ الإسبان بسبتة وظل الإسبان محتلين لتطوان مدة سنة أدى السلطان خلالها نصف الغرامة، وأقيم مندوبون إسبان في المراسي لاقتضاء الباقي من موارد الديوانة، فتم الجلاء عن تطوان (في ثاني ذى القعدة سنة 1278 - مايه 1862م) بعد احتلال استمر أزيد من سبعة وعشرين شهرا. وقد كانت هذه الهزيمة فاتحة التدخل الإسباني في الشمال وعاملا حدا السلطان إلى التفكير بجد في ترتيب النظام العسكري على أسس جديدة، عززها مولاي الحسن بعد ذلك بنظم طريقة تبعا للمقتضيات المستحدثة، فقد كان جيش المشاة الذي استمات في حرب تطوان غير نظامي، فأصبح لكل قبيلة طابور يبلغ عدد رجاله ثلاثة آلاف أو أقل حسب أهمية القبيلة، إذ كانت كل عائلة تسهم بفرد من أعضائها، وربما تضخم الطابور في القبائل الكبرى فأصبح عبارة عن آلاف أو فيلق، أما معدل الطابور العادي فهو خمسمائة جندي بإمرة قائد الرحى الذي كان له مساعد أشبه بالليوتنان كولونيل، وكل رحى تنقسم إلى سرايا من مئة رجل يشرف عليها قائد المئة الذي شبهه البعض بالقبطان، والمئة تتوزع بدورها إلى جماعات يتركب كل لفيف منها من اثنى عشر جنديا على رأسهم مقدم أو نقيب عسكري (سوزوفيسيي)، ولم يمنع ذلك من الاستعانة بالمتطوعين عند الحاجة، أما في الحواضر فقد اتسم الطابور بميزة خاصة إذ كان رجاله يناهزون الألف، والخيالة الذين بلغوا أحيانا عشرة آلاف كانوا موزعين أيضا إلى طوابير، هي عبارة عن كوكبات تتركب من ستمائة فارس، وكتائب الخيالة هذه لا تتدخل في العمليات الحربية إلا عند الاقتضاء في حين أن الرجالة كانوا دوما على ساق لمواجهة الطوارئ ولم تكن كتيبة الفرسان تعدو في فترات الهدوء خيالة الدرك أو الحرس الموزعين على مختلف المراكز العسكرية (400 فارس في كل قلعة من الاثنتين وتسعين قلعة المؤسسة في عهدي المولى إسماعيل والمولى يزيد) وقد عززت المدفعية (الطبجية) باعتدة قوية من مهاريس ومدافع ومجانيق وقذائف مختلفة.

وقد ظل الفكر العام مع ذلك حذرا من تطور هذه العلائق مع أوربا، لأن اعتداء إسبانيا على التراب المغربي وقبلها فرنسا في قضية الجزائر أذكت حماس الجماهير ضد الوجود الأجنبي بالمغرب. وقد ارتأى السلطان قبل معركة إيسلي ضرورة محاربة فرنسا بسلاحها، واستخدم أحدث الطرق في المناورات العسكرية والعتاد الحربي فأسس فيلقين من ثلاثة آلاف جندي نظامي بقيادة ضباط حاربوا مع عبد القادر في حرب الجزائر، وقد اتصل بعلماء بلجيكيين وأسس مراصد فلكية بمراكش وفاس، وكانت حاشية الملك منكبة على دراسة العلوم الرياضية، وحتى بعد أن اعتلى الأمير أريكة العرش ظل منكبا على دراسة العلوم لا سيما ما يتصل منها بالفنون العسكرية، حتى قال كل من فرانسوا شارك رو وكذلك كاييي بأن هذا الملك اخترع مدفعا، ولو لم تستعر الحروب مع فرنسا وإسبانيا لا نبثق عن عهد محمد الرابع ازدهار كان من شأنه أن يغير اتجاه المغرب الحضاري ومكانته الدولية، ولما توفى محمد الرابع خلفه ولي عهده الحسن الأول، فبايعه الناس في مراكش (رجب 1290 هـ)، وعمد الحسن الأول صونا لحوزة البلاد ووحدتها إلى تجهيز القبائل بالعتاد العسكري وتكديس الأسلحة، وكان السلطان يطوف بالثغور لتفقد أبراجها وأسوارها، ويسهم شخصيا في الرماية المدفعية

مراقبة منه وتشجيعا، وكان السلطان يستغل فترة الشتاء للاستجمام بفاس، وجمع أشتات الجيش وتجديد جهازه، وقام عام 1293 هـ بجولة تفقدية عامة، فاستصدر من معمل الحمراء 1.620 بندقية و410.000 رصاصة وعشرة قناطير من البارود ومئة قنطار من ملح البارود ومدفعين اثنين علاوة على الأجهزة العسكرية العادية. واستكمالا لحركات التهدئة هب السلطان (عام 1298 هـ) نحو مراكش من حيث توجه في العام التالي إلى سوس، ونقلت المؤن على ظهر السفن من الجديدة والدار البيضاء لارفاق الجيش، وكان قصده هذه المرة أن يقف بنفسه على جنوب المغرب حسما لمطامع الإسبان الذين كانوا يرغبون في احتلال إيفني بمقتضى معاهدة تطوان، زعما منهم بأنها هي المركز التجاري الذي اغتصبوه قديما وسموه بسانطا كروزا، وقد رتب السلطان بهذه المنطقة الحاميات والعمال، واحال مرفأ (اسكا) إلى مرسى تجاري، وأقام بتزنيت قيادة جيش الجنوب واستمر ذلك إلى عام 1303 هـ، وانتهى مطاف السلطان في تسع عشرة حركة إلى تافيلالت عام 1310 هـ، وواجهت المملكة المغربية في هذا العهد مشكلة عويصة هي مشكلة الحمايات التي كان بعض المغاربة يتوقون إليها للتخلص من نفوذ الولاة، وحاول السلطان التخفيف من حدة هذه الحمايات، غير أن تضافر الدول الأوربية اضطره إلى الخضوع بمقتضى اتفاقية مدريد (1880) وملحق طنجة (1881) إلى إرادة أوربا التي خولت لألمانيا والنمسا وبلجيكا والدنمارك وإسبانيا والولايات المتحدة وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا وهولندا والبرتغال والسويد والنرويج الامتيازات التي لم تكن تتمتع بها سوى فرنسا وإنجلترا.

وهكذا بدأت القضية المغربية تتسم بطابع دولي من جراء الصراع الذي تولد عن أطماع الدول الأوربية، وقد قاوم الحسن الأول كل التدخلات ودافع بين الدول وتوفى (في 3 ذي الحجة عام 1311 هـ 1894م) وهو في غمرة هذه المعركة. وبموت الحسن الأول انفتحت ثغرة خطيرة في الكيان المغربي فتحكم الحاجب «أبا حماد» بن موسى في اختيار الأمير الجديد المولى عبد العزيز الذي لم يكن عمره يزيد على ثلاث عشرة سنة (37)، وبدأت سلسلة الاتفاقات السرية تبرز للعيان بتواطؤ الدول الأوربية التي تقاسمت النفوذ في مصر وليبيا والمغرب، وبذلك اعترف الإنجليز (8 أبريل 1904) (22 محرم 1322 هـ) لفرنسا بنوع من الحماية على المغرب، في مقابل اندراج مصر في منطقة النفوذ البريطاني، وناب إسبانيا حظها من هذا الاقتطاع شمالي المغرب (3 أكتوبر 1904)، وبدأت فرنسا تعزز تسربها السياسي بقروض مالية 68.500.000 فرنك) أعقبتها بمراقبة الجمارك وتنظيم مصالح البريد والبرق، وإشراف ضباط فرنسيين على تدريب طوابير مغربية، وقد تعللت فرنسا بخرق عاملي وجدة وتافيلالت للأوفاق، فاحتل الجيش الفرنسي (14 صفر 1325 هـ - 29 مارس 1907) وجدة ودائرتها، ثم استولى الجنرال ليوطي (1907 - 1908) على مجموع بني يزناسن، أما في الدار البيضاء فإن طرادة فرنسية نزلت بالميناء (25 جمادى الثانية 1325 هـ 5 غشت 1907) وقنبلت المدينة التي هب لاحتلالها فيلق يحتوي على ألفين من جنود الجزائر، بقيادة الجنرال (درود)، ثم انبرى خلفه الجنرال (داماد) لاحتلال فضالة وبوزنيقة، واستقرت قوات الاحتلال بالشاوية تحت امرة الجنرال (مواني)، الذي خلف الجنرال (داماد)، وتابع المولى عبد الحفيظ سيره فبايعته فاس (7 جمادى الأولى 1326 - 7 يونيه 1908) واضطرت الدول الموقعة على عقد الجزيرة إزاء التفاف الشعب حول الملك الجديد إلى الاعتراف به بشرط موافقته على التزامات سلفه، فتم ذلك في 5 يناير 1909. وكان العامل الأساسي هو أن ألمانيا شعرت بأن عقد الجزيرة أمسى حبرا على ورق، وأن العمل الدولي بالمغرب مجرد تغرب مجرد تضليل، وكانت هي أيضا تود الحصول على حظها من الغنيمة بتعويضات في إفريقيا الاستوائية، فأبرمت اتفاقية بين الطرفين (4 نونبر 1911) فانهار كل حاجز أمام بسط الحماية الفرنسية التي أمضيت معاهدتها في 11 ربيع الثاني 1330 هـ - 30 مارس 1912.

37) ويظهر أن الحسن الأول هو الذي رشح المولى عبد العزيز لولاية العهد.

وأسفرت الدسائس الموصولة المنسقة بين بعض دول أوربا عن تشديد الضغط على المغرب بواسطة القروض الإجبارية وحركات التهدئة المتعللة بحماية الرعايا الغربيين والتخوم الشرقية عن فرض الحماية، وما كاد نبأ توقيع المعاهدة بفاس يطرق الأسماع حتى انتفض السكان والقبائل المجاورة، وطوقت المدينة وامتلأت الأسوار بآلاف المجاهدين بزعامة الحجام، وثار الجيش السلطاني على ضباطه الفرنسيين وكانت ملحمة دامية قتل فيها عدد من الفرنسيين (17 أبريل 1912)، وشارك في الحملة الجماعية ضد الوجود الفرنسي العلماء والتجار والنساء والأطفال. واتسعت شبكة المقاومة المسلحة، في الأطلس والصحراء والشمال والجنوب فاستمرت في زيان وبني مكيلد إلى عام 1923 وفي وادي العبيد (38) من 1929 إلى 1931 وفي آيت يحى وآيت إسحاق والبحيرة إلى 1923 وفي ملول وأعالي الأطلس إلى 1933.

واستولى المجاهدون على عشرات المراكز الحربية. وفي يوم 25 مارس 1922 تصدت المدفعية الريفية لجيش العدو حول الحسيمة فخسر (براتجي) ثمانية آلاف بين قتلى وأسرى ودمر المغاربة مراكز كما أغرقوا بوارج حربية بمفعول سفينتهم الوحيدة واهتاج الإسبان وانصاعوا للاتفاق، فأحست فرنسا بتزايد الخطر الداهم الذي أصبح يهددها لا في المغرب وحده بل في إفريقيا فحشدت في ربيع 1926 اثنين وخمسين جنرالا ومائة وعشرين ألف رجل و22 سربا من الطائرات وعتادا ضخما فأسفرت الحملة المنسقة عن إحكام قبضة فرنسا واسبانيا، وقد تبلورت هذه الموجة العارمة بتنسيق كتلة العمل الوطني أو الحزب الوطني الذي كان يؤجج الحماس في الشعب كما ينور الفكر العام في أوربا والشرق، ودعت الكتلة منذ 1933 إلى تأسيس «عيد العرش» يوم 18نونبر وهو يوم جلوس جلالة الملك محمد بن يوسف على العرش واحتفلت الأمة بهذا المهرجان الوطني أمام انذهال الفرنسيين الذين لم يجرؤوا على إعلان معارضته.

المطالبة بالاستقلال : وانعقد بالرباط في 11 يناير 1944 مؤتمر ضم قادة الحزب الوطني، فوقع المؤتمر على ميثاق وطني أبرز رفضه لنظام الحماية الذي قاومه الشعب بالسلاح أزيد من ربع قرن. ورفع «ميثاق الاستقلال» لجلالة الملك فعقد في 13 يناير مجلسا وزاريا موسعا ضم بعض الرؤساء والأعيان والعلماء فصادق الكل على المطلب الوطني وبدأ الصراع العنيف بين العرش والحماية بخطاب طنجة عام 1947 ولكنه تبلور في الرحلة الملكية إلى فرنسا في 5 أكتوبر عام 1950.

كان جلالة الملك صارما في مواقفه، وكان مطلبه يهدف في غير التواء إلى ضمان سيادة البلاد وتحقيق أماني الشعب. وطالب جلالة المرحوم محمد الخامس عام 1953 باستقلال المغرب، فلم يسع فرنسا سوى اعتقال الملك ونجليه الأميرين مولاي الحسن (جلالة الملك الحالي نصره الله) ومولاي عبد الله، فسيق الجميع على متن طائرة فرنسية إلى جزيرة كورسيكا مع باقي أفراد الأسرة الملكية.

هناك انطلقت الشرارة الأولى من شعب فقد قائده وزعماءه فانبرى في اندفاعة ثورية يشق طريقه في واد من الدماء نحو التحرر، وأسفرت هذه الفورة الشعبية عن انبثاق حركة فدائية طوحت بكثير من رؤوس الفتنة وبيادق الاستعمار وبثت الرعب في صفوف المستعمرين وفرضت بالحديد والنار إرادة الأمة بالرغم عن الاعتقالات والاعدامات وتكديس المواطنين في المعسكرات، وأعقبت هذه الاندفاعة المرتجلة العنيفة معركة منظمة أجج أوارها قادة جيش التحرير في الداخل والخارج. وكان الشعب موقنا بنجاح مسعاه مومنا بقرب عودة الملك المنفي إلى عرشه لأن إرادة الشعب لا تقهر، وتعاقبت الضربات والقذائف على ابن عرفة وأذنابه. ونقل محمد الخامس إلى (سان كلود) بفرنسا وانصاعت باريز إلى مطامح الملك والشعب، فاعترفت بالواقع وعاد الملك الظافر يوم 16 يونيه 1955 إلى الرباط ليحمل لشعبه وثيقة الاستقلال في خضم من الأفراح كللت ثورة الملك والشعب.

38) أسر الوطنيون في بني ملال أربعة أوربيين فدتهم فرنسا بسبعة ملايين فرنك (كوليز ص 155).

الحياة الأدبية في العصر المريني الأول

«1»

للأستاذ محمد المنوني

مقدمة :

يحتل أدب العصر المريني الأول درجة مرموقة بين الآداب العربية، ويعتبر فاتح عام 1267/667 تاريخا لبداية هذا العصر، إلى أن ينتهي عند عام 1231/731.

وقد توفرت هذه الفترة على نشاط أدبي نشأ ـ أول الأمر ـ مستقلا عن العلاقة بالحكم، وفي الوقت نفسه استفاد هذا النشاط من المقدرات الأدبية التي نزحت إلى المغرب بعد سقوط القواعد الأندلسية الكبرى، حيث استقر كثير من النازحين في سبتة وفاس بالخصوص.

وإلى جانب هذا اللون من الأدب المستقل : نذكر عامل الدفاع عن شبه الجزيرة، وهو الذي حفز الأدباء ـ من مختلف القطاعات ـ ليساهموا في المعركة بالشعر والكتابة والخطابة : للدعوة إلى إنقاذ الفردوس المفقود.

وسيأتي ـ بعد هذا ـ دور الدولة في تشجيع الحياة الأدبية، إنطلاقا من يعقوب بن عبد الحق ماهد الدولة، ثم كان ابنه يوسف هو الذي نظم علاقاته ـ أكثر ـ مع الشعراء، وصار بلاطه يتوفر على مجموعة تخيرها منهم ليجري لهم المرتبات والإحسانات، ويقدم المصدر (1) المعني بالأمر أربعة أسماء : تنتظم من مالك ابن المرحل، وعبد العزيز الملزوزي، وأبي العباس الفشتالي، وأبي العباس الحميثي.

هذا إلى أن أميرين مرينيين كانت لهما ميول أدبية، فكان أبو مالك عبد الواحد بن السلطان أبي يوسف : محبا للآداب والتاريخ، ذاكرا للكثير من ذلك، يجالس أهل العلم والأدب ويناظرهم، ويحب الشعر ويروي كثيرا منه، ويأخذ نفسه بنظمه (2).

ثم كان أبو علي بن أبي سعيد الأول : له بعض البصر بالبلاغة واللسان العربي، وينظم القريض (3).

ومن الرؤساء الممدحين : نشير إلى الحاجب عبد الله

---

1) «روض القرطاس» ط. ف 1305 : ص 276.
«جذوة الاقتباس» ط. دار المنصور بالرباط 1974 : ص 548.

2) محمد المنوني : «ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين» مطابع الأطلس بالرباط : ص 194، 208.

3) المصدر ص 195، 208.

ابن أبي مدين، ويقول عنه ابن الأحمر (4) : «ومازال يهب الخيل عرابا. ويملأ للسؤال - بالذهب - جربا، وامتدحته الشعراء بوصف الكرم».

والعزفيون أمراء سبتة - هم الآخرون - كان لهم دور كبير في تنشيط الآداب في بلدتهم، مع تأثيرات لذلك في سائر المغرب، ومن هذه المدينة إنبعثت الدعوة للاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وقد فتحت هذه المناسبة ميادين جديدة في الأدب المغربي، امتدادا من الأيام الأولى للإمارة العزفية، ثم من أيام أبي يوسف، وكان أول من احتفل بالمولد الشريف من بني مرين، حيث أقام مراسمه بفاس، واستمع إلى قصائد وخطب موضوعية للشعراء والخطباء (5).

☆ ☆ ☆

وهكذا يعرف المغرب المريني أدب المولديات.

كما سيعرف - لأول مرة - أدب الرواد الذي يصوغون به ارتساماتهم، ليدونوها في رحلاتهم.

وفي الوقت نفسه يزدهر أدب النكبات، ويهتم - في هذه الفترة - بالدعوة لإنقاذ الأندلس.

كذلك تبرز للميدان أشعار نبويات وحجازيات، وأخرى زهديات : كرد فعل ضد واقع شبه الجزيرة.

ومن الطبيعي أن ينضاف لهذه الموضوعات : الاتجاهات التقليدية للأدب العربي، وتتمثل في المديح والافتخار والرثاء والاعتذار والاستعطاف والهجاء والذم والعتب والتأنيب والوصف والغزل.

وبهذا فإن أدب هذا العصر حافظ على مجموع الأغراض الأدبية القديمة، وأضاف لها أبوابا جديدة أو شبه جديدة في الأدب المغربي.

ومن الجدير بالذكر أن بعض هذه الأبواب الأدبية حقق تجاوبا مع الأحداث المعاصرة، كما سنراه في أدب النكبات الأندلسية، وفي أدب المولديات والحجازيات.

☆ ☆ ☆

والآن : نقدم ثمانية من مميزات الأدب المريني :نثره وشعره.

ونذكر - أولا - أنه تخلص من أكثر التأثيرات البعيدة عن الحياة المغربية.

ثانيا : تخلص من شعارات المهدوية والعصمة وما إلى ذلك من التقاليد الموحدية.

ثالثا : شيء من الليونة في الشكل والمضمون بالنسبة للعصر قبله.

رابعا : ظهور الزخرفة والصنعة الكلامية، وإن كانت لا تزال قليلة.

خامسا : قلة الأشعار في الهزليات والمجون.

سادسا : استخدام الشعر في نظم الكتب التعليمية (6) والوقائع التاريخية (7)، وأغرب ابن المرحل في هذا الصدد، حتى نظم وثيقة صداق، بمناسبة قران أمير عزفي في سبتة (8).

سابعا : ظهور الازدواج اللغوي ولو أنه قليل، ولم يستخدمه سوى أبي فارس الملزوزي فيقول عنه ابن الخطيب (9) بعد ذكر اتصاله بالحكام المرينيين : «ووقف أشعاره عليهم... وخلط المعرب باللسان الزناتي في مخاطباتهم».

---

4) «مستودع العلامة» لأبي الوليد ابن الأحمر المطبعة المهدية بتطوان 1964/1384 : ص 42.

وعبد الله الذي تعلق على اسمه هو والد الكاتب الشهير : أبي الفضل، ويتصل بنشاطه الأدبي نسخة عتيقة - ناقصة البداية - من «ديوان ابن التعاويذي» : الشاعر البغدادي المعروف، وجاء في آخر الديوان توقيت الفراغ من نسخه بيوم الجمعة 23 رمضان 724 هـ، حيث كان تعليقه برسم الكاتب البارع أبي الفضل، بن صاحب القلم الأعلى أبي محمد عبد الله بن الشيخ أبي مدين العثماني، كتبه - بخطه - محمد بن أحمد بن عبد الله بن مسلم البجلي : خ،س 3878.

5) التفاصيل في «ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين» ص 265 - 286.

6) ساهم مالك ابن المرحل في هذا الاتجاه بنظم كتب متنوعة، عددها في «جذوة الاقتباس» ص 328.

7) «أرجوزة نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك» لعبد العزيز الملزوزي، انظر عنها محمد المنوني : «المصادر العربية لتاريخ المغرب» 66/1.

8) احتفظ بنص هذا الصداق في «جذوة الاقتباس» ص 330 - 333.

9) «الإحاطة» نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة 1397/1977 : 21/4.

حتى نظم وثيقة صداق، بمناسبة قران أمير عزفي في سبتة (8).

سابعا : ظهور الازدواج اللغوي ولو أنه قليل، ولم يستخدمه سوى أبي فارس الملزوزي، فيقول عنه ابن الخطيب (9) بعد ذكر اتصاله بالحكام المرينيين : «ووقف أشعاره عليهم... وخلط المعرب باللسان الزناتي في مخاطباتهم».

ثامنا : ظاهرة الاتجاه الشعبي في الاشتغال بالشعر الملحون، وكان من فحوله - في هذه الفترة - الزجال ابن شجاع التازي (10).

ونستشف من بعض هذه المميزات : ما صار إليه الأدب المريني الأول من انحدار يسير بالنسبة للعصر قبله، ومع هذا فقد كانت هذه الظاهرة دون ما وصلت إليه الحالة في الشرق العربي، وهذا ما يلاحظه محمد رضوان الداية (11). ويسجل أن المشرق كان أعجز عن اللحاق بأدباء المغرب.

☆ ☆ ☆

وقد تنوع النثر الفني إلى أغراضه التقليدية، وظهر في الترسل والنثر التأليفي والخطابة.

وبالنسبة للكتابة الديوانية فإنها كانت غير منتظمة خلال العهود الأولى للدولة، وإنما انتظمت طريقتها من أيام أبي سعيد الأول، بمعرفة عبد المهيمن السبتي إمام هذه الصناعة (12).

وعن الخطابة : فإنها ساهمت مساهمة مذكورة في حملات الدفاع عن الأندلس، وبالخصوص عند موقعة الجزيرة الخضراء، عام 1279/678، حيث أسدى بعض خطباء سبتة خدمات مشكورة في تحريض المومنين، وإلهاب حماسهم (13).

وإذا كنا نجهل - الآن - أسماء هذه الطبقة من الخطباء، فنستطيع معرفة أسماء بعض الكتاب الديوانيين في شيء من التفصيل، ونحيل - في هذا الصدد - على تأليف ابن الأحمر الذي يحمل إسم مستودع العلامة (14).

وسيبقى - بعد هذا - معرفة الكتاب الديوانيين بالإمارة العزفية بسبتة، وهؤلاء توجد تفاريق من أسمائهم خلال كتب التراجم المعجمية.

☆ ☆ ☆

والآن : نذكر أن هذا العصر خلف مؤلفات موضوعية متنوعة، إلى مجموعات نثرية أو شعرية، وشروح أدبية، وكتابات في النقد الأدبي، مما يدل - بواسطة مجموع هذه الآثار - على أن الشعور الأدبي كان منتشرا - بالمغرب المريني الأول - على نطاق واسع.

وسيأتي في طليعة هذه المخلفات : المجموعات الأدبية، ومنها :

- ديوان أبي فارس الملزوزي (15).
- وديوان مالك ابن المرحل الذي جمع فيه عيون شعره وسماها «بالجوالات»، وهي تؤدي معنى المختارات.

8) احتفظ بنص هذا الصداق في «جذوة الاقتباس» ص 330 - 333. ونهج طريقة ابن المرحل أديب الرباط وعالمه : محمد بن محمد التهامي بن محمد بن عمرو، فنظم وثيقة زواج قاضي المدينة ذاتها : صالح بن قاضيها أحمد الحكموي : في أرجوزة وردت كاملة في مقدمة «سوق المهر إلى قافية ابن عمرو»، تأليف القاضي محمد بن عبد السلام السايح : المطبعة الاقتصادية بالرباط : ص نا - ند.
وفي اتجاه آخر نشير إلى أبي حفص عمر بن الوردي، وقد نظم - في بحر الرجز - وثيقة شراء لقطعة أرض بغوطة دمشق، حيث جاء نصها عند ابن حجة الحموي في «ثمرات الأوراق» : المطبعة الوهبية بالقاهرة عام 1300 هـ : ص 128.

9) «الإحاطة» نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة 1977/1397 : 21/4.

10) «مستودع العلامة» ص 49، وانظر «المقدمة» لابن خلدون المطبعة البهية المصرية ص 554 - 555.

11) «مقدمة» نثير فرائد الجمان لابن الأحمر ص 57.

12) «العبر» المطبعة الميرية بالقاهرة 1284 هـ : 248/7.

13) القصد إلى بعض الخطباء في موقعة الجزيرة الخضراء، وكانت انتهت بانتصار المسلمين يوم 12 ربيع الأول 678 هـ، حسب روض القرطاس ص 239 - 240، وانظر ص 228 - 229 مع ص 234.

14) هو المشار له عند التعليق رقم 4.

15) عن واقع ديوان الملزوزي يرجع إلى الأستاذ الجليل : عبد الله كنون : «ذكريات مشاهير رجال المغرب» ج 9 ص 35 - 36.

ـ ديوان ثان لنفس الشاعر، ضمنه الصدور والمطالع من أشعاره (16).

ـ قصائد نبويات وأخرى زهديات للشاعر ذاته (17).

منتخب ترسيل أبي القاسم خلف القبتوري ومقطعات من شعره (18).

ـ «بغية المستظرف وغنية المتطرف من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبي المطرف»، لمحمد ابن هانئ السبتي، حيث جمع فيها الآثار النثرية وما يتخللها من الشعر من إنشاء أبي المطرف : أحمد بن عميرة المخزومي، ودونها في سفرين أتقن ترتيبهما (19).

ومن الشروح الأدبية نذكر :

ـ شرح المقامات الحريرية : لأبي الفضل السجلماسي (20).

ـ وشرح نفس المقامات لأبي عمران الزناتي المراكشي، تلميذ الشارح قبله (21).

وعن النقد الأدبي نشير إلى نموذجين في هذا الصدد، ونذكر ـ أولا ـ تعقبات بين ابن عبد الملك المراكشي وابن رشيد السبتي، وقد انتقد أولهما قصيدتين لمالك ابن المرحل، حيث دافع عنه ابن رشيد ضدا على الانتقادات المراكشية (22).

كما أن الرحالة العبدري كتب تعقبا على الرحلة المنظومة لابن الفكون القسطيني، وأثبته ـ بجملته ـ أوائل رحلته (23).

ومن المؤلفات النقدية التي كانت متدارسة بالمغرب المريني الأول : كتاب «زهر الآداب وثمر الألباب» للحصري، وقد أثار هذا المؤلف اهتمام أديب مغربي من مدينة تازا : أبي الحسن ابن بري، فقام باختصاره وترتيبه في سفر متوسط، وسماه : «اقتطاف الزهر واجتناء الثمر»، وهو يشرح منهاج هذا المختصر في طالعته ويقول :

وبعد : فهذا كتاب سميته «إقتطاف الزهر واجتناء الثمر» اختصرته من كتاب «زهر الآداب وثمر الألباب»... على وجه اخترته لنفسي... ضمت فيه الشكل إلى شكله، وأضفت الشيء إلى مثله، وقد أسقطت كثيرا من الكلام المنثور، والشعر المستغلق غير المأثور، وربما أضفت زيادات يسيرة من غيره.

ومن حسن الحظ أن يستمر هذا المختصر المغربي على قيد الوجود، في بعض نسخ مخطوطة يتخللها بياض (24).

---

16) هذا الديوان وسابقه ورد ذكرهما في ترجمة ابن المرحل، وهما ـ اليوم ـ غير معروفين، بعد أن كان في خزانة القرويين مخطوط يحمل اسم «ديوان ابن المرحل» ثم ضاع منها، حسب «الخزانة العلمية بالمغرب» تأليف الأستاذ الكبير المرحوم محمد العابد الفاسي ص 32 : مطبعة الرسالة بالرباط دون تاريخ.

17) انظر محمد المنوني : «مجموعات مغربية في المدائح النبوية» مجلة «الثقافة المغربية» بالعدد 4 صفر 1391/1 أبريل 1971 : ص 90 ـ 93.

18) منشور انظر «المصادر العربية لتاريخ المغرب» 81/1 : تعليق.

19) لا تزال غير معروفة بالضبط، وعن المعروف من رسائل أبي المطرف بن عميرة يرجع إلى «المصادر العربية لتاريخ المغرب» 63/1.

20) وردت الإشارة له عند أبي عمران موسى الزناتي الأزموري برسالة ألفها في «موضوع انتقال المهل من محل إلى محل» : مخطوطة ضمن مجموع يحمل رقم 1588 د.

21) جاء ذكره عند ترجمة مؤلفه عند ابن إبراهيم في «الإعلام» المطبعة الملكية 299/7 ـ 300.

22) «ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين» ص 224 و251.

23) ص 35 ـ 37.

24) يعرف ـ الآن ـ من «اقتطاف الزهر» أربع مخطوطات : إثنتان بالمغرب : خ، س 374، 2544، وإثنتان بدار الكتب المصرية 14094 ز و14417 ز.

الحضارة المتسوّسة

للشاعر الأستاذ المدني الحمراوي

بني الغرب ! لا تفرحوا بالثراءْ ... ولا تحمدوا ناطحات السماءْ
تهيَّأ نجمُكمو لِلأفول ... وصاح بكم صائحٌ من وَرَاء
غزوتم فضاء ولكنكم ... تضجُّون من شقوة وبلاء
وضاق بكم رحبُ هذا الوجود ... وحل بكم كلُّ هم وداءْ
بذَرتم خرابا بما تصنعون ... فلا تعجبوا إن دهاكم شقاء
فكم سقتم الناس سوق القطيع ... وكم سفكت يدكم من دماء
وكم ثروة لم تكن ملككم ... سلبتم نفائسها بالدهاء
عثرتم على السر في غفلة ... فسخرتموه لهذا الوباء
لقتل الشعوب، وغرس الحقود ... ونكث العهود، ونبذ الإخاء
وقلب الحقائق عن نهجها ... وحرب السلام، وترك الوفاء
وسن الفجور لجيل بريء ... دفعتم به في طريق الفناء
وما زال منطقكم يفتري ... إلى أن أزل عقول النساء
فصرن إلى دركات الهوان ... وقد كن في درجات العلاء
فلا تنكروا ما جنت ريحكم ... بدا كل سر، وزال الخفاء
فيا أمما شاخ فيها الهوى ... وباد الصلاح، وراج المراء
وبات الثراء إلها لها ... تصلي له، وتطيل الثناء

وتمسح هيكله بالطيوب وتمشي إلى ساحه بانحناء
وتقتل كل ضمير لها لتظفر منه بنيل الرضاء
وتعبث بالسلم مزهوة بنشر الخراب، وبث العداء
وتستر آثامها خدعة وتبكي، ولكن بدمع الرياء

☆ ☆ ☆

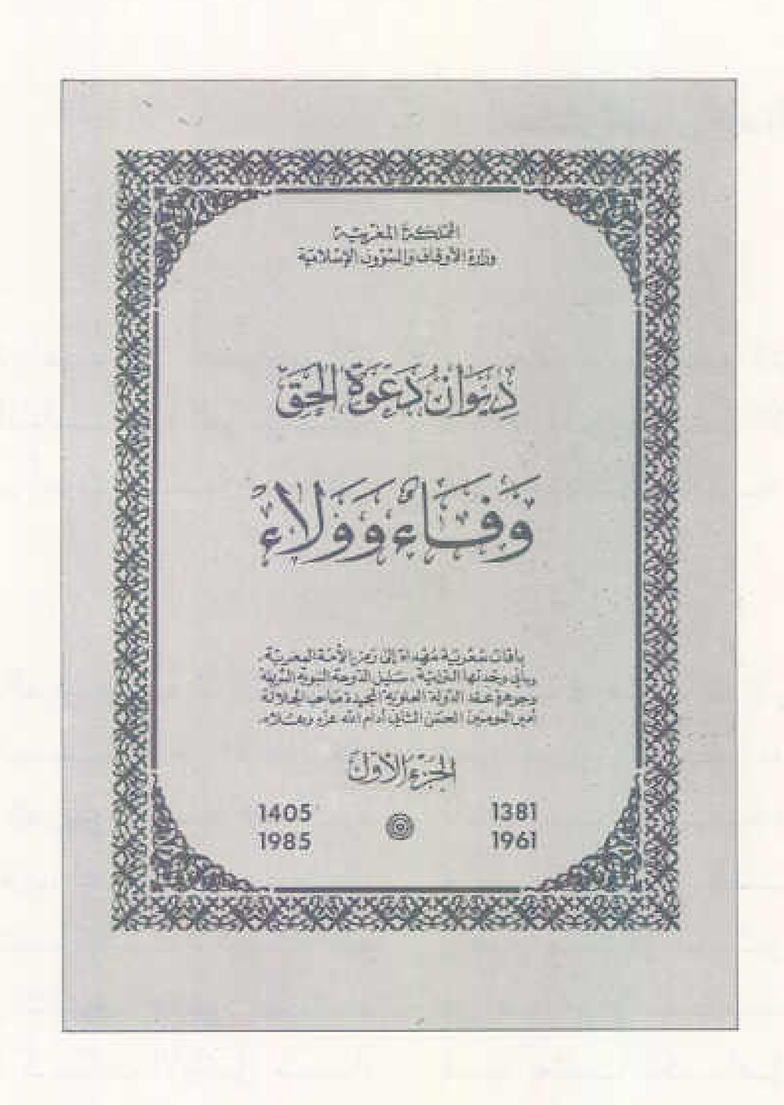
تعيش الملايين في نكبة بهذا الجنوب جياعا ظماء
وتنعم بالعيش في ظلكم كلاب لكم بلذيذ الغذاء
وفي كل شبر لكم مقصف ومستنقع للخنا والبغاء
إباحية لم تَدَعْ غيرة لديكم، ولا ذرة من حياء
وسقتم إلى الناس آثامها بكل افتنان، وكل ادعاء
فأغرقتم الأرض في حمأة وداء دوي عديم الشفاء
كشفتم علوما ولكنها بتحريفكم أصبحت كالغثاء
وأخرى تلوث جو الحياة وتنذر بيئتها بالعفاء
وكم أزمة أحكمت عقدها فليس لأدوائها من دواء

☆ ☆ ☆

ومعضلة الشرق من نسجكم متى ينهض الشرق كيف يشاء ؟
زرعتم بأوطانه عصبة هي الشر، بل هي داء عياء
تدنس أرض السلام التي حرسنا بها حرمة الأنبياء
وتنهش بالحقد إخواننا وتقتل أطفالهم، والنساء
فلم ينج من فتكهم قاطن ولم ينج منهم ضحايا الجلاء
أتطرد من أرضها أمة وتسكنها عصبة أدعياء ؟
كذلك شئتم لأوطاننا وشئتم لشعب بـ «رأس الرجاء»
تكنفه الشر من عصبة تخيرها جمعكم باصطفاء
تنادي بعرقية لم تزل لديكم شعارا رفيع اللواء

☆ ☆ ☆

فتلـــك حضـــارتكم أصبحت   مضـــامينهـــا كحقير الهبـــاء
جرائمهـــا أوقـــدت فتنـــة   بلبنـــان، والقـــدس ذات السنـــاء
وصبت بـ «أفغـانتـا» حقـدهـا   و «رأس الرجـاء» و «إيرتريـــاء»
ألا تتركـــون الشعـــوب كمـــا   تشـــاء ممتعـــة بـــالصفـــاء ؟
ألم تيـأسـوا بعـد من كيـدكم   ألم يكفكم كـل هـذا العنـاء ؟
سيرفعنـــا في غـــد حقنـــا   ويخفضكم حيفكم والجفـــاء



من وحي ندوة الطرق الصوفية

دورة الطريقة التجانية

للشاعر محمد بن محمد العلمي

ألف شكر لصاحب الصولجان،	في احتفاء بأحمد التيجاني !
(حسن) للمكارم الغر سبا	ق، شغوف بنهضة الأوطان
يتوخى أصالة ليس تبلى	في الرعايا بحكمة الفرقان

☆ ☆

نحن بالعرش دولة لا تضاهى،	ذات صيت، قوية الأركان !
وأتت نخبة من الأنجم الغـ	ـر، لفاس الفيحاء، دار الأمان
مهد (إدريس) فيه خير ملاذ	للمزايا البهية العنفوان
فهي للمغرب الموحد رمز؛	والسنى اليعربي في العنوان !
وحّدتنا عقيدة كلها نو	ر مبين يزكو من القرآن
نتوخى التقوى، فتمضي خطانا	في هدى، واستقامة، وتفاني
مثلما كانت الأوائل منا،	قد بعثنا تكافؤ الإخوان
وأطعنا حسا ومعنى إلاها	واحدا، ما له شريك، ثان !
ونشرنا أنوار دين قويم،	في أقاصي الأمصار والبلدان

فهـدينـا لمـا اهتـدينـا، وكنـا قـادة في التهـذيب والإحسـان
وذكرنـا الرحمن ذكرا كثيرا، وشكرنـا النعمى بكـل لسـان
أي شيء كـالاستقـامـة تمييـ ـزا لأهـل القبـول والرضـوان ؟!

☆ ☆

إن سر التصـوف، الحب في اللـ ـه، وصـون الأسـاس للبنيـان !
وصـلاح الأحـوال أفضـل مـا في حلقـات التـوحيـد، يـا خـلاني !
في الكتـاب الحكيم، والسنـة الغـ ـراء بعث الفـؤاد والـوجـدان
إن أجـدادنـا الأكـارم قـد سـا دوا بفضـل الصـلاح في كـل آن
والمـزايـا منهم إلينـا تراث، وامتـداد للمنهـج الربـاني
كيف لا نحفـظ العهـود فرادى وجمـوعـا في حكمـة واتـزان ؟!
والسراب الخـداع يـذكي نـزاعـا وصراعـا في فرقـة الشيطـان
وفلـول الإلحـاد تشقي وتشقى في تيـار الغرور والكفران
من يرم في سـوى الحنيفـة دينـا، فهـو أكـدى، وبـاء بـالخسران !
واعتصـام الإنسـان بـاللـه فيـه دون شـك، سـلامـة الإنسـان
وسلـوك الرسـول أهـدى سلـوك، وكيـان الإيمـان أقـوى كيـان
قـد قبسنـا منـه التعـاون دومـا في الصـلاح المنشـود دون تـواني
إن مسعى التقـويم أشرف مسعى في المسـار المنـور العقـلاني
ولنـا في ملـوكنـا العلـويـيـ ـن مثـال على مـدى الأزمـان
هم منـاراتنـا اللـوامـع، منهم، وإليهم نـزجي جميـل التهـاني !
قـد أحـاطـوا بهيبـة ووقـار، واحترام، مشـايـخ الميـدان :
فسليمـان، والملـوك تبـاعـا، قـد أعـزوا طريقـة (التيجـاني)
وفنـون التكريم كـانت ومـازا لت لـديهم أحـدوثـة الركبـان.
فمن (الخـامس) المقدس، عهـد (الحـ ـسن) المـؤمن العظيم البـاني
هكـذا أفلـح السـلاطين منـا بضيـاء الإيمـان في التيجـان :
فـالمـلاذ الحصين حفـظ صـلاة، وابتعـاد عن أجمـع الأدران،
وخشـوع، وتـوبـة، ولـزوم، لاعتـدال في الـسر والإعـلان،
ولجـوء للـه قـولا وفعـلا، من صنـوف العـدوان والبهتـان

إن من راقب الإلـــــه حبـــــاه ... كـل فضـل، وفــاز بـــالعرفـــان

تلــك إفريقيـــا بنعمـــة دين اللـ ... ـــه، تـدعـو (لأحمـد التيجـاني)

فهــو عن جـــده يبلــغ للنـــا ... س اهتـــداء من أشرف الأديـــان

حبـــذا من يكـون في كــل حين ... لخـــلاص، من أخلص الأعـــوان !

☆ ☆

تلـك (فـاس) العـزيـزة اليـوم تـزهـو ... وتبـــاهي بنخبـــة الشجعـــان :

رحبت بـــالاقطـــاب واقتبلتهم ... في عنـاق الأحبـاب بـــالأحضـــان

فـالنجـاح الأكيـد للنـدوة الحسـ ... ـنى.. فمرحى لذاك الاطمئنان !



ناظر الوقف..

للأستاذ
محمد بنعبد الله

9

حقيقة وقيمة الوظيفة الدينية :

لا يجوز للموظف الديني، أخذ الأجرة على أداء العمل الذي هو عبادة في حد ذاته،. وإنما يأخذ أجرا على احتسابه في الأوقات المعلومة التي يؤدي فيها أعماله... فيفرغ من مشاغله المعيشية لذلك، حتى لا تتعطل الشعائر، فهي كأعمال خلافة المسلمين حينما قال عمر بن الخطاب، لأبي بكر الصديق، وقد خرج ليعمل في معاشه ثاني يوم استخلافه : «يا أبا بكر : لا، بل تترك عملك، وتعمل لصالح المسلمين، وتأكل من بيت مالهم، فتأخذ نفقة متوسطهم، لا أعلاهم، ولا أوكسهم».

ففرضوا له بعض شاة كل يوم، ومائتين وخمسين دينارا في السنة، ثم جعلوها شاة كاملة، وثلاثمائة دينار في السنة (1)...

وتعتبر مؤسسة الوقف أهم مورد مالي رصد لحياة المسجد ليستمر بكل ما يتعلق بالشؤون الإسلامية، ودور تحفيظ القرآن الكريم، والعمل على أن يؤدي الوعاظ والخطباء والمدرسون دورهم الديني في تنمية معاني الخير والحق والجمال، وفي بيان روعة الإسلام، ومعالجته لمشكلات الحياة وقضايا الناس، وفي الأمور المستجدة من غير تعصب أو مغالاة، أو تزمت أو إفراط... فهذه المؤسسة كانت ـ وما تزال ـ أهم مورد لشؤون الدين، وللتعليم الإسلامي على الاطلاق، وأكثرها دخلا وإدرارا، وإليها يرجع الفضل في بقائه واستمراره أحقابا وقرونا،وفي انتظام الحياة العلمية والدراسية في جامعات الإسلام وكلياته...

لذا، فإننا نبحث، في هذه الحلقة، عن رأي الفقه الإسلامي فيما يتقاضاه الموظفون الدينيون، من أئمة ووعاظ ومؤذنين ومقرئين ومنظفين، من أجور أو مساعدات، باعتبارهم يقومون بأعمال تتطلب جهودا وأتعابا، في توقيت مضبوط معين، وسلوكا منضبطا معينا، أيضا، يرضى عنه الله ورسوله والناس أجمعون، وتستلزم مسؤوليات هم ملزمون بتطبيقها...

فهل ما يتقاضاه الموظف الديني، من مؤسسة الوقف، يعتبر رزقا، كما ذهب إلى ذلك ابن خلدون ؟ أو أجرا ؟ أو إعانة ؟ أو مساعدة مقابل الأتعاب والالتزام، كما ذهب إليه كثير من الفقهاء...

فخطيب المسجد الجامع الذي يتطلب منه حضور بمجموعه وذهنه كل يوم جمعة ليخطب على جمهور المومنين، ويختار لهم مواضيع في خطبة جامعة تشير إلى ماجرَيَات الأحداث، ومناسبات دينية ووطنية وقومية واجتماعية، يسهر على تحبيرها وتسطيرها ونخها كل أسبوع، ليرضي بذلك الأذواق والميول والأشواق في حدود

1) «أبو بكر الصديق» لعلي الطنطاوي ص : 172 / دمشق...

دائرة الكتاب والسنة والمقدسات... كم يستحق هذا الخطيب من أجر مادي كي تطيب نفسه، وترتاح أسرته، ويشعر باطمئنان المسؤولين على أعماله الدينية والأدبية... إذ مجال عمله، ـ كما هو معلوم ـ هو ذهنية جمهور المواطنين، ومخاطبة عقولهم... فهو يصنع الرجال، ويهندس عقولهم فيربي قدراتهم الفكرية. وينمي ملكاتهم الذهنية بما أمر الله... ماذا يقول لهم ؟ وماذا يختار لهم من مواضيع ؟..

وذاك المنظف العامل الكادح إلى ربه، المجد الساهر الذي يعمل على رعاية المسجد، وتنظيفه في حزم وعزم وأناة، طرفي النهار، وزلفى من الليل، ويكون أول من يفتح باب المسجد، وآخر من يخرج منه، بعد وعثاء العمل، إلى بيته، وقد أرهقه العمل صعودا، ونال منه الوصب والنصب والجهد !! وأخوه، ذلك الذي يلازم الجامع، وينظر في حفظه، وغلق أبوابه ليلا ونهارا، ويتطوف عليه بعد انصراف الناس في صلاة العشاء الآخرة، كل ليلة لتفتيشه وكنسه، وخياطة حصره، وغير ذلك مما يحتاج إليه الجامع مع إنارة مصابيحه وإطفائها.. وإخراج من يريد أن يبيت فيه لما يخشى عليه من مبيت من يريد به فسادا ومنكرا وسرقة، إذ لا يؤمن عليه من سرقة ما فيه من ثريات الصفر، ومصابيح الزاج العراقي والحصر، وكل ذلك له خطر وبال.. ويبذل جهده في النظر في مصالح الجامع وملازمته له في غالب الأوقات... وكل ذلك مما يشغله عن التسبب في طلب معيشته التي لا بد منها لانقطاعه بكليته إلى الجامع، بالليل والنهار، لأجل ما ذكر، وهو مع ذلك المؤذن بالجامع الذي يلازم الأذان أولا في جميع الصلوات، وبه يقتدي جميع المؤذنين في سائر مساجد المدينة، ولا يؤذنون إلا بعده لضبطه للأوقات، ومحافظته عليها (2).. ما ثوابه المادي ؟ هل يستفيد من تلك القوانين الضامنة للعمل والتي تقضي بضمان حق العامل، فيستفيد منها باعتباره يقدم جهدا وعملا وخدمات، وطاقات وقدرات ؟! أم نخلق له قوانين خاصة مقدودة على ضعفه واضطراره، ومستغلة كثرة الطالبين والراجين لمثل عمله ؟ أو نترك الاتصال بأمثاله لمحض الصدقة، ولقانون العرض والطلب ؟..

ثم هل نطلب من الموظف الديني بعد هذا وذاك، أن يفرض الحرمان على نفسه أو على بيته، فيركب الحمار ليذهب إلى عمله، ويسكن الكوخ الحقير، فيأوي إليه مع أسرته، ويعيش شظف العيش والحرمان بينما تلميذه يركب السيارة الفارهة، ويسكن القصر الفخم الأنيق، ويعيش في بلهنية السعادة الراضية، والأمل المطمئن ؟..

وهل يجب أن يعتدل الميزان في يد القائم بالوظيفة الدينية، فيأخذ الدنيا، مالم تكن ثمنا لدينه، ولا يجعل الدين تجارة يساوم عليها، ولا يلهث وراء الأعراض الزائلة ؟!.. أو يجعل الله غايته، وهو ينال أعلى الأجور بلا مساومة، ويرتقي أعلى المناصب، دون ذل، أو تفريط، بل يكون ماله وعلمه وجاهه موجها في سبيل غايته العليا، ومسخرا لها، إذ جوهر صلاح المسلمين يتمثل في صلاح علمائهم وأمرائهم...

أو يكون كما قال الشاعر الناقد إبراهيم عبد القادر المازني رحمه الله :

عزوفا عن الدنيا... ومن لم يجد بها
مرادا لآمال، تعلل بالزهد ! ؟..

ونتساءل، أخيرا، ما هي في الحقيقة، قيمة الوظيفة الدينية في الإسلام ؟..

وما هو دور الإمام والخطيب وغيرهما من الموظفين الدينيين، ضمن الوظائف التي يشغلها بعض الموظفين في جهاز الدولة ؟..

ـ من المعلوم أن الإمامة تعد من الخطط الدينية الشرعية، إذ الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسبة كلها مندرجة، كما يقول العلامة أبو زيد عبدالرحمن ابن خلدون، تحت الإمامة الكبرى التي هي الخلافة، فكأنها الإمام الكبير، والأصل الجامع، وهذه كلها متفرعة عنها، داخلة فيها لعموم نظر الخلافة وتصرفها

2) المعيار، ص : 7/171.

في سائر أحوال الملة الدينية والدنيوية، وتنفيذ أحكام المشرع فيها على العموم...

إذا السلطان أحق بالإمامة في الصلاة، إلا أن يأذن لغيره في ذلك...

قال ابن العربي في الأحكام : «**ولاية الصلاة أصل في نفسها، فإن النبي ﷺ كان إذا بعث أميرا جعل الصلاة إليه، ولكن لما فسدت الولاة، ولم يكن فيهم من ترضى حالته للإمامة بقيت الولاية في يده، بحكم الغلبة، وقدم للصلاة من ترضى حالته سياسة منهم للناس، وإبقاء على أنفسهم**»، فقد كان بنو أمية حين كانوا يصلون بأنفسهم يخرج أهل الفضل من الصلاة خلفهم، ويخرجون من الأبواب، فيأخذهم سياط الحرس، فيصبرون عليه (3)...

فإمامة الصلاة هي أرفع هذه الخطط كلها، وأرفع من الملك بخصوصه المندرج معها تحت الخلافة، ولقد يشهد لذلك استدلال الصحابة في شأن أبي بكر رضي الله عنه باستخلافه في الصلاة (4)، على استخلافه في السياسة في قولهم : «ارتضاه رسول الله ﷺ لديننا، أفلا نرضاه لدنيانا، فلولا أن الصلاة أرفع من السياسة لما صح القياس (5)...

☆ ☆ ☆

ولما نهض المسلمون للفتح كانوا إذا أرسلوا قائدا إلى فتح بلد، ولوه عليه قبل خروجه إلى فتحه... أو شرطوا عليه إذا فتحه، فهو أمير عليه... كان ذلك شأنهم من أيام النبي عليه السلام، فإنه أرسل في السنة الثامنة من الهجرة أبا زيد الأنصاري، وعمرو بن العاص، ومعهما كتاب منه يدعو الناس إلى الإسلام، وقال لهما : «إن أجاب القوم إلى شهادة الحق، وأطاعوا الله ورسوله، فعمرو الأمير، وأبو زيد على الصلاة، وأخذ الإسلام على الناس، وتعليمهم القرآن والسنن» وكذلك كان (6).

كما كان العمال في عهد الخلفاء الراشدين قواد الجند الذين افتتحوا تلك الأعمال الإسلامية، فذللوا أعرافها، وألانوا أعطافها، وواجباتهم الرئيسية مراقبة سير الأحكام في البلاد التي افتتحوها، وإقامة الصلاة، واقتضاء الخراج (7)...

وكانت إمارة التفويض أو الاستكفاء، وهي تلك التي كان يعقدها الخليفة لمن يختاره من رجاله الأكفاء، فيفوض إليه إمارة الإقليم على جميع أهله، ويجعله عام النظر في كل أموره، ويشتمل نظره فيه على سبعة أمور :

1 - حماية الدين، والدفاع عن الحريم...

2 - الإمامة في الصلوات.

3 - تسيير الحج.

4 - إقامة الحدود.

5 - النظر في الأحكام، وتقليد القضاة والحكام.

6 - قبض الصدقات، وجباية الخراج، وتقليد العمال فيهما، وتفريق ما استحق منهما (8)...

بل إن أصل الدعاء للخلفاء على المنابر في الصلاة أن الخلفاء، أنفسهم، كانوا يتولون إمامة الصلاة، فكانوا يختمون فروض الصلاة بالدعاء للنبي والرضى عن الصحابة... فلما فتحوا البلاد، وبعثوا إليها العمال، صار الولاة أنفسهم أيضا يتولون إمامة الصلاة في ولايتهم، فكانوا إذا صلوا، ختموا الصلاة بالدعاء للخلفاء...

وأول من فعل ذلك منهم، ودعا للخليفة على المنبر، عبد الله بن عباس لما تولى البصرة على عهد الإمام علي، فإنه وقف على منبر البصرة، وقال : «اللهم انصر عليا على

---

3) التراتيب الإدارية ص : 1/63.

4) في «الدر المنظم» لأحمد بن محمد بن أحمد اللخمي العزفي، قال ابن حبيب الهاشمي : صلى أبو بكر بالناس في مرض رسول الله ﷺ، سبعة عشر صلاة، وقال : هكذا روى الدولابي...

5) مقدمة ابن خلدون ص : 2/565.

6) «فتوح البلدان»، للبلاذري ص : 76.

7) «تاريخ التمدن الإسلامي» ص : 1/153. كان رستم، قائد جيوش الفرس في موقعة القادسية، إذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة / يقول : «أكل عمر كبدي، يعلم الكلاب، الآداب». (مقدمة ص : 2/458).

8) المصدر السابق ص : 1/154.

الحق» (9)... واتصل العمل على ذلك فيما بعد، فكان الخطيب يشيد بذكر الخليفة تنويها باسمه، ودعاء له، مما جعل الله مصلحة العالم فيه، ولأن تلك الساعة مظنة للإجابة، ولما ثبت عن السلف في قولهم : «من كانت له دعوة صالحة، فليضعها في السلطان». وكان الخليفة يفرد بذلك.

☆ ☆ ☆

رواتب العمال :

وقد قدر عمر بن الخطاب رواتب العمال بعد تدوين الدواوين، وتعيين أرزاق الجند، ففرض لأمراء الجيوش والقرى في العطاء على قدر ما يصلحهم من الطعام، وما يقومون به من الأمور (10)..

وأول ما فعل ذلك، لما وجه عمار بن ياسر إلى الكوفة، وولاه صلاتها وجيوشها، فجعل له ستمائة درهم في الشهر... وعين الرواتب لولاته وكتابه ومؤذنيه، ومن كان يقوم بالأمر معه...

وبعث عثمان بن حنيف على مساحة الأرض، وأجرى عليه ربع شاة، وخمسة دراهم كل يوم، وجعل عطاءه خمسة آلاف درهم في السنة.

وعبد الله بن مسعود على قضاء الكوفة، وأجرى عليه مائة درهم في الشهر، وربع شاة في اليوم...

وبعث شريحا على قضاء البصرة، وأجرى عليه مائة درهم (11) وعشرة أجربة في الشهر من الحنطة، وظلت رواتب القضاة على نحو ذلك في سائر أيام الراشدين، ثم تصاعدت في أيام بني أمية، مثل تصاعد رواتب الجند وسائر العمال، فصار راتب قاضي مصر عام 88 هـ ألف دينار في السنة (12)... فلما كانت أيام العباسيين أصبح راتب قاضي مصر ثلاثين دينارا في الشهر، وأول من اقتضى هذا الراتب ابن لهيعة الذي ولاه المنصور (13)...

فترى مما تقدم أن عمر بن الخطاب فضل عمار بن ياسر عليهم أجمعين، لأنه كان على الصلاة والجند، وهي الإمارة يومئذ، ولما ولى عمر معاوية بن أبي سفيان على الشام جعل له ألف درهم كل سنة (14)...

ثم تصاعد الراتب تصاعدا عظيما في أيام المامون، فبلغ عطاء عيسى ابن المكندر قاضي مصر يومئذ 4000 درهم، أو نحو 270 دينار، وهو راتب كبير، وربما جعل كذلك لغرض خاص...

وعاد راتب قاضي مصر، بعد ذلك ببضع وعشرين عاما إلى ألف دينار في السنة، وأول من اقتضى هذا الراتب بكار بن قتيبة الذي تولى قضاء مصر على عهد أحمد بن طولون عام 345 هـ.

وكان راتب القاضي في زمن المعتضد نحو خمسمائة دينار في الشهر، بما فيه أجور عشرة من الفقهاء وخليفة القاضي...

قال الحسن : كان عمر وعثمان يرزقان الأئمة والمؤذنين والمعلمين والقضاة (15).

☆ ☆ ☆

إن حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع، في حفظ الدين، وسياسة الدنيا... وحصول المصالح إنما تكون أكمل في العمران، إذا كانت بالأحكام الشرعية، لأن الشارع علم بهذه المصالح التي يحصل بها النظام والائتلاف والمساواة والمؤاخاة - والشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم - ولقد كان ذلك الاشتراك في هذه

---

9) مقدمة 1958 ص : 2/651.
10) «الخراج» لأبي يوسف ص : 55.
11) «سراج الملوك» للطرطوشي ص : 108.
12) السيوطي ص : 2/115. والجريب هنا مكيال، ومقداره يختلف باختلاف البلدان.
13) التمدن الإسلامي ص : 1/248.
14) المقريزي، خطط : ص : 1/95.
15) ابن الجوزي ص : 91.

المعاني داعيا إلى زيادة الاتحاد، وأعمال الدولة يومئذ في صدر الإسلام، محصورة في النبي ﷺ، وتشمل السياسة والإدارة والدين ففرضت الصلاة والزكاة وغيرهما في الفروض التي تعد من قبيل الدين.

ولما شيد الدين للعرب السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرا وباطنا، وتتابع فيها الخلفاء، عظم حينئذ ملكهم، وقوي سلطانهم (16).

فصلاة الجماعة كانت تبعث على الاتحاد والنظام والطاعة للنظام العام في الناحية الاجتماعية...

وأما الزكاة، فكانت من أول الأمر مظهرا من مظاهر التساند الاجتماعي بين طبقات الأمة، وطد عرى الاتحاد بين أفراد المجتمع الإسلامي... فكان أساس الدولة الإسلامية هذه الآية، ﴿**وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين**﴾ (17).

☆ ☆ ☆

أجور الموظفين الدينيين :

وقد تحدث العلماء والفقهاء في موضوع أجور الموظفين الدينيين، وتضاربت أنظارهم وآراؤهم في الموضوع، ومن الذين تحدثوا فيه وأشبعوه بحثا بحثا، العلامة ابن خلدون في سياق حديثه عن الأرزاق التي يتقاضاهاالقائمون بأمور الدين في الإمامة والخطابة والتدريس والفتيا والقضاء والأذان، ونحو ذلك، حيث ذكر بأن الذي يهتم بإقامة مراسهم صاحب الدولة بما له من النظر في المصالح، فيقسم لهم حظا من الرزق على نسبة الحاجة إليهم، فلا يساويهم بأهل الشوكة، ولا بأهل الصنائع من حيث الدين والمراسم الشرعية، لكنه يقسم بحسب عموم الحاجة وضرورة أهل العمران، فلا يصح في قسمهم إلا القليل...

16) مقدمة : ص : 2/458.

17) سورة البقرة : رقم الآية : 48.

وهم لشرف بضائعهم أعزة على الخلق، وعند نفوسهم، فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منه حظا يستدرون الرزق... بل ولا تفرغ أوقاتهم لذلك لما هم فيه من الشغل بهذه الصنائع الشريفة المشتملة على أعمال الفكر والبدن، بل لا يسعهم ابتذال أنفسهم لأهل الدنيا لشرف صنائعهم، فهم بمعزل عن ذلك، فلذلك، لا تعظم ثروتهم في الغالب، وقد ساق ابن خلدون قصة ذكر فيها أنه باحث بعض الفضلاء في هذا الموضوع، فأنكر ذلك عليه، فوقع بيده أوراق مخرقة من حساب الدواوين بدار المامون تشتمل على كثير من الدخل والخرج، وكان فيما طالعه فيه أرزاق الأئمة والقضاة والمؤذنين، فوقفه عليه، وعلم صاحبه منه صحة ما قاله ابن خلدون، ورجع إليه، قال ابن خلدون : وقضينا العجب من أسرار الله في خلقه، وحكمته في عوالمه (18)...

هكذا ذكر ابن خلدون بأن القائمين بأمور الدين لا تعظم ثروتهم في الغالب، لأن أهل هذه الصنائع الدينية لا تضطر إليهم عامة الخلق، وإنما يحتاج إلى ما عندهم الخواص ممن أقبل على دينه، وإن احتيج إلى الفتيا والقضاء في الخصومات، فليس على وجه الاضطرار والعموم، فيقع الاستغناء عن هؤلاء في الأكثر... **ثم إن الكسب، قيمة الأعمال، وانها متفاوتة بحسب الحاجة إليها، فإذا كانت الأعمال ضرورية في العمران، عامة البلوى به، كانت قيمتها أعظم، وكانت الحاجة إليها أشد.**

مناقشة رأي ابن خلدون :

كلام ابن خلدون فيه نظر، إذ أن هناك حقيقة واضحة، هي أن معظم الخلفاء والحكام في العالم الإسلامي كانوا يعضدون نفوذهم بسلطتين هما : سلطة الأئمة والعلماء، والجند، ومن أجل هذا كانوا يغدقون على هؤلاء وأولئك بسخاء ليطول لهم السلطان، وإن ابن خلدون يريد

18) المقدمة : ص : 813 ـ 3/814.

أن يقرر حكما عاما، لأن مرتبات المدرسين والقضاة والأئمة كانت ضعيفة في عهد المامون تبعا لما رآه ابن خلدون، وقد علق الدكتور أحمد شلبي في كتابه «تاريخ التربية الإسلامية»، بأنه لا يوافق ابن خلدون أولا على تقرير حكم عام لوجود مثال عليه، بل لابد لتقرير حكم عام أن توجد أمثلة كثيرة لعهود مختلفة... ثانيا، ما هي هذه الوثيقة أو الأوراق التي وقعت في يد ابن خلدون، لم يعطنا عنها تفاصيل ذات بال، في حين عندنا حقائق ثابتة عن مرتبات القضاة وغيرهم ممن يشغلون مناصب دينية في عهد المامون، وعن أجور الذين أسهموا في النهضة العلمية، والحركة الدينية، إبان خلافته، وتلك تتعارض مع ما ذكره ابن خلدون...

ومن الحق أن الدولة العباسية قد أيدت أهل العلم عما أظهرته لهم من الرفعة والإجلال والإكرام، والاعتماد عليهم، والمشاورة لهم، وما وصلتهم به من العطايا الوافرة، وشواهد ذلك كثيرة في عظماء خلفائهم...

فهذا أبو جعفر المنصور أكرم مالك بن أنس لما حل بالمدينة، واستشاره، ورغبه في تأليف الموطأ... وكذلك استدنى أبا يوسف، وجالس معاذا الفراء النحوي والكسائي وغيرهم.

ويروي الكندي أن أجر الفضل بن غانم الذي ولي قضاء مصر عام 198 هـ في عهد المامون كان مائة وثمانية وستين دينارا في الشهر (19)... وإن مرتب عيسى بن المكندر، والذي ولي نفس المنصب عام 212 هـ كان سبعة دنانير كل يوم وذلك أيام ابن طاهر، أشار به عبد الله بن عبد الحكم، وأعلمه أنه فقير، وكان رجلا صالحا، وهو أول قاض أجرى عليه المرتب بمصر (20).

وان نظام الملك أنشأ عدة مدارس في العالم الإسلامي، سميت باسمه، ورتب فيها المدرسين والعلماء بأجور وافية سخية منتظمة، ورسم لهم أن يكافحوا المذهب الشيعي الذي كان منتشرا في عهد البويهيين، وأن يدرسوا مذهب أهل السنة والجماعة، ثم كان من تدخل الحكومة أن تبعد عن هذه المدارس كل مدرس يعطف على الشيعة، أو يعتنق مذهبهم (21)...

وقد يحصل العكس، فيصادف علماء الدين، ورجال السنة والجماعة حكاما مسلمين لهم اهتمامات وتوجهات علمية وطبية، وفلكية وفلسفية غير دينية فيعا كسونهم في أرزاقهم، ويبخسونهم أشياءهم، وينالون أجورا مجزية، وعطايا كريمة لمن يحاربهم، ويشتغل بعلوم الحكمة والفلسفة...

فهذا نصير الدين الطوسي الوزير الذي قدم خدمات جليلة للتراث العلمي في عصره، وجعلت من معاصريه، والمتأخرين، أيضا، يظهرون، بلا تحفظ، إعجابا عظيما به، وبشخصيته التي غلفتها الأسطورة، والمبالغة أحيانا، يقول عنه الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية»، في تصنيف علماء وقته، وما فرض لهم من الأجور : «...عين الخواجة نصير الدين الطوسي لكل من الفلاسفة ثلاثة دراهم يوميا، ولكل من الأطباء درهمين، ولكل من الفقهاء درهما واحدا، ولكل من المحدثين نصف درهم، لذلك أقبل الناس على معاهد الفلسفة والطب أكثر من إقبالهم على معاهد الفقه والحديث...

ويؤكد هذا موقف علماء عصره، وفي مقدمتهم ابن قيم الجوزية، خصمه اللدود إذ يقول : (22) «واستشفى هو، أي الطوسي، فقتل الخليفة المستعصم، والقضاة والفقهاء والمحدثين، واستبقى الفلاسفة والمنجمين والطبائعيين والسحرة..!!».

وربما السبب أن الطوسي كان فيلسوفا عالما، وليس برجل دين، ولأجل هذا، وضع الفوارق بين أصحاب الاتجاه العلمي الفلسفي، وبين علماء الدين، فاعتبره ابن قيم عملا شائنا... (23).

19) «الولاة والقضاة» للكندي ص : 101.
20) «تاريخ قضاة الأندلس» للنباهي ص : 25.
21) «معجم الأدباء» لياقوت الحموي ص : 5/415.
22) «إغاثة اللهفان» ط : مصر ص : 2/267. ـ 1939.
23) انظر : «نصير الدين الطوسي» للأستاذ : عبد الأمير الأعسم.

العلماء اعتمدوا على أنفسهم :

لقد كان أهل العلم المنتصبين للمحافظة على الدين وإقامة الصلاة في القرون الأولى لا يتقاضون رواتب وأجورا من الحكومات، فيما عدا ما نسمع عنه من الهبات والصلات والجوائز بين الفينة والفينة، أو فيما كان يفرضه الخلفاء الراشدون ومن بعدهم لبعض القائمين بشؤون الدين.. وهذه، على كل حال، ليست رواتب، بل إن هؤلاء العلماء اعتمدوا، كما قدمنا سابقا، على أنفسهم، وعلى الجماعة الإسلامية في شؤون معاشهم، ولا شك أن الجماعة تكفلت بمعاش هؤلاء القائمين بشؤون العلم والدين...

وقد كان مما يزيد في كفة العلماء بأنفسهم أنهم إلى جانب تقديرهم من لدن الخلفاء، فقد احترموا احتراما سابقا من السلف الصالح الذي جعل لهم في بيت المال وريع الأوقاف نصيبا موفورا، حتى لا يضطروا إلى طرق أبواب قد توصد في وجوههم غدا متى أصبح لهم موقف مغاير للذين يستولون على أمر البلاد... فالأوقاف كانت أهم مورد مادي لشؤون الدين وللتعليم الإسلامي على الاطلاق...

فالمعلم يعلم العلم ابتغاء الثواب، وأكثر ما كان ذلك في العلوم الدينية، كالذي حدث إبراهيم الحربي المحدث الفقيه، قال : «ما أخذت على علم قط أجرا إلا مرة واحدة.. فإني وقفت على بقال، فوزنت له قيراطا إلا فلسا، فسألني عن مسألة، فأجبته، فقال للغلام : أعطه بقيراط، ولا تنقصه شيئا، فزادني فلسا (24)...

جدل فقهي :

وقد أثارت مسألة أخذ الأجر على التعليم جدلا فقهيا كثيرا بين المشتغلين بالعلم من المسلمين، فأباحه البعض، وتحرج منه البعض الآخر، وبالغ قوم في التحرج حتى كرهوا هبات الملوك وهدايا الخلفاء، وذلك لاعتبارهم التعليم فريضة دينية، وعبادة كسائر العبادات... ومن القائلين بحرمة الأجر عليه الإمام أبو حامد الغزالي، ومن قوله في وظائف المعلم المرشد : «أن يقتدي بصاحب الشرع، فلا يطلب على إفادة العلم أجرا وجزاء، قال تعالى : ﴿**قل : لا أسألكم عليه أجرا**﴾ فالعلم مخدوم، وليس بخادم (25). ولكنه يعدل رأيه بعض الشيء في كتابه : «فاتحة العلوم» فيبيح للمتعلم أو المدرس أن يأخذ جراية المدارس على أن لا يتجاوز في ذلك الضرورة، وأن يجعل العلم غايته الأولى، لا الجراية، فإذا عكس الوضع، فهو حرام، ليفرغ قلبه عن المعيشة ويتجرد للعلم (26).

على أن ما يأخذه العلماء من أموال، مقابل قيامهم بالوظائف الدينية المعروفة إمامة وخطبة، وتدريسا، ووعظا، وإفتاء فهو لتفرغهم كما قلنا سابقا، عن العمل الذي يكسبون به، لذا كان أخذهم لهذا المال جائزا... حتى لو كان من غير الأوقاف التي وقفها أصحابها من المسلمين لصرفها في هذا الشأن...

إلا أن الذي يريده الإسلام هو أن هذه الأجعال والمرتبات التي يأخذها الموظف الديني، مقابل وظائفهم المعروفة، لا يجوز بأي حال من الأحوال أن تكون أداة للسكوت عن منكر، والتقاعس عن بيان ما يرونه خطأ وضلالا، فيواطئون على حوزة الإسلام علنا، ويأخذون عرض هذا الأدنى، ويقولون سيغفر لنا.. فالرزق بيد الله وحده، والعلماء أعلم الناس في ذلك...

الاجرة على تعليم العلم :

وقد فرق بعض الفقهاء بين قراءة القرآن وتعليمه، فأجاز أخذ الاجرة على تعليمه، كتعليم العلم، لأن الاشتغال بالتعليم يصد عن التفرغ للكسب من الوجوه الأخرى، فإذا لم نجره، يتعسر علينا أن نجد من يتصدى لتعليم الأولاد، وليس زمننا كزمن السلف الصالح يتفرغ فيه الناس لنشر العلم، وإفادته تعبدا لله، وتقربا إليه...

24) معجم الأدباء ص : 1/40.

25) ميزان العمل ـ الغزالي، 6 : الشيخ الكردي ص : 171.

26) «فاتحة العلوم»، ص : 15.

قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده : «من علم العلم والدين بالاجرة، فهو كسائر الصناع والاجراء، لاثواب له على أصل العمل، بل على إتقانه، والإخلاص فيه، والنصح لمن يعلمهم (27)...

وذكر الشيخ رشيد رضا، أنه سمع في وقت آخر الشيخ محمد عبده يقول : «ينبغي للمعلم الذي يعطي راتبا من الأوقاف الخيرية أن يأخذ إذا كان محتاجا، لأجل سد الحاجة، لا بقصد الأجرة على التعليم، وبذلك يكون عابدا لله تعالى بالتعليم نفسه، وعلامته أن يستعف إذا هو استغنى، فلا يأخذ من الوقف شيئا (28).

قال ابن العربي : كره السلف الأجرة وأخذها على كل ما هو من قبيل العبادات، كغسل الأموات، ودفنهم، وكذلك الأذان، وصلاة التراويح، وتعليم القرآن، وتعليم الشرع... وإن حكمنا بصحة الإستيجار على ذلك، لكن حق هذه الأعمال أن يتجربها للآخرة، وأخذ شيء عليها استبدال بالدنيا عن الآخرة» (29).

وسئل الأستاذ أبو إسحاق الشاطبي عن الاقتصار على المعيشة من الأوقاف للإمام، دون تكسب باليد... هل يخل بالمروءة.. أم لا ؟. فأجاب : إن المعيشة من الأحباس لمن كان من أهلها، وقام بوظائفها المشروطة فيها جائز، فلا تَبِعَةَ فيه (30)...

إننا لم نسمع، ولم نقرأ أن الحكومات والدول قررت راتبا لمعلم (31)، أو شيخ إلا ابتداء من منتصف القرن الخامس الهجري عند ما قامت المدارس في المشرق، وبقيام نظام المدارس تحت الإشراف الحكومي في هذا القرن، تحول التعليم من حياة الاحتراف والهواية إلى حياة الوظيفة، فأصبح موظفا عند الدولة يؤدي عملا من أعمالها، ويأخذ عنه أجرا شهريا... وكانت هذه الخطوة ضرورة اجتماعية لتنظيم حياة الأساتذة والطلاب معا، ولكنها أفقدت التعليم جانبا كبيرا من حريته السابقة التي كانت له من قبل، وخضع لميول الحكام وأهوائهم، ورغبات أصحاب الأوقاف وشروطهم (32)...

وقد سبق لنظام الملك أن أعلن في القرن الرابع أن التعليم بمدارسه حق للجميع، بل عين مرتبا للطلاب المعوزين (33)... يقول ابن خلكان : أن نظام الملك هو أول من أنشأ المدارس فاقتدى به الناس (34)... ولكن ابن السبكي (35) والمقريزي (36)، يلاحظان أنه ليس أول من أنشأ المدارس، فهناك المدرسة البيهقية بنيسابور، والمدرسة السعيدية بها كذلك بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود، ومدرسة ثالثة بنيسابور لأبي إسحاق الاسفرايني، ويقول ابن السبكي (37) : إن نظام الملك، كان أول من قدر المعاليم للطلبة، مع أن العزيز بالله

---

27) تفسير المنار ص : 2/192. وقد وجه رئيس التحرير لجريدة «المسلمون» الأستاذ صلاح قبضايا رسالة مفتوحة إلى الشيخ عبد الباسط عبد الصمد يقول فيها : «بلغني أنكم تلقيتم دعوة من بلد إسلامي لقضاء شهر رمضان المعظم، وقراءة القرآن الكريم في مساجده وإذاعته، وقد استفسرتم عن الأجر، وبدل السفر، ونوع العملة، وعندما علمتم أن نصف البدلات يصرف بالعملة المحلية، وهي غير قابلة للتحويل، طلبتم تسديد الأجر والبدل بالدولار الأمريكي محولا إلى الخارج، وقد فشلت المفاوضات في إقناعكم بغير ذلك، وأنكم أعلنتم أن أجركم عن القراءة في المأتم الواحد في القاهرة قد تضاعف بسبب انخفاض الجنيه المصري، وارتفاع الدولار، وأن عروضا أخرى أكثر إغراء، قد وصلت من دول خليجية (انظر رقم العدد : 1985/3/16/6).

28) المصدر السابق ص : 2/192.

29) المعيار للونشريشي ص : 1/279.

30) المصدر السابق ص : 7/102.

31) لم تكن كلمة، المعلم «لترضي كبرياء الجامعيين المسلمين الذين وجدوا فيها ضربا من المهانة لارتباطها منذ القرن الأول الهجري بتعليم الصبيان حتى صارت لقبا لكل من يشتغل بتأديبهم، ومن طريف نوادرهم في ذلك ما قاله فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير عند تفسير قوله تعالى : ﴿وعلم آدم الأسماء﴾ : لا يقتضي وصف الله تعالى بأنه معلم، لأنه حصل في هذه اللفظة تعارف على وجه لا يجوز إطلاقه عليه، وهو من يحترف بالتعليم والتلقين، وكما لا يقال للمدرس معلم مطلقا، حتى لو أوصى للمعلمين، لا يدخل فيه المدرس، فكذا لا يقال لله إنه «معلم» إلا مع التقييد، ولولا هذا التعارف لحسن إطلاقه عليه، بل كان يجب أن لا يستعمل إلا فيه تعالى، لأن المعلم هو الذي يحصل في غيره، ولا قدرة على ذلك لأحد، إلا الله تعالى (التفسير الكبير، الفخر الرازي ص : 2/239).

32) تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، للأستاذ محمد عبد الرحيم غنيمة ص : 188.

33) طبقات ابن السبكي ص : 3/137.

34) الوفيات ص : 1/202.

35) الطبقات ص : 3/137.

36) الخطط : ص : 3/363.

37) الطبقات ص : 3/137.

الفاطمي سبق نظام الملك بقرن تقريبا في تقدير المعاليم للطلاب (38) وفي نظامية بغداد كان 6.000 طالب يتعلمون بالمجان (39)، وقد أنشأ يحيى بن خالد الكتاتيب للأيتام بالمجان (40)... وأست كذلك محاضر مجانية في سوريا أيام نور الدين بن واصل (41)... وفي بغداد أيام شمس الملك بن نظام الملك (42)، وصلاح الدين (43)، وكان العلماء في القرويين يتقاضون مرتبا طيبا، وتقدم لهم الكتب والإضاءة (44)...

بل ان بعض المعلمين كانوا يعلمون حسبة، لا يأخذون على تعليمهم أجرا، وروى ابن قتيبة، أن الضحاك ابن مزاحم، وعبد الله بن الحارث، كانا يعلمان، ولا يأخذان أجرا (45)... وبعضهم كان يأخذ أجرا... ومن هؤلاء من كان يأخذ خبزا من الصبيان، وقد هجا بعضهم الحجاج (46)، فقال :

أينسى كليب زمان الهزال
وتعليمه، سورة الكوثر
رغيف له فلكة، ما ترى،
وآخر كالقمر الأزهر (47)

وبالمناسبة التاريخية، فقد أصبحت عبارة : «معلم صبيان» مثلا يضرب للضعة والامتهان قديما، وفي الزمن الدابر، فقد روى ياقوت : (48) «أن الصاحب بن عباد بلغه أن أبا حيان التوحيدي عاب رسائله، ورغب عن نسخها، فتوعده الصاحب وهدده، فقال أبو حيان : «يتوعدني...»، كأني طعنت في القرآن، أو رميت الكعبة بخرق الحيض، أو عقرت ناقة صالح، أو سلحت في بئر زمزم، أو قلت : مات النظام مأبونا، أو مات أبو هاشم في بيت خمار، أو كان الصاحب معلم صبيان» فانظر إلى حد كان ينظر إلى معلم الصبيان حتى يقرن بمن يطعن في القرآن، أو عقر ناقة صالح (49)...

ولما قال المتوكل العباسي لأبي العيناء، أن ابن سعدان، زعم أنك رافضي، فأجابه أبو العيناء : «ومن ابن سعدان ؟ والله ما يفرق ذلك بين الإمام والمأموم، والتابع والمتبوع، إنما ذاك حامل درة، ومعلم صبية، وآخذ على كتاب الله أجرة، فقال : لا تفعل، لأنه مؤدب المؤيد، فقلت : يا أمير المومنين : «إنه لم يؤدبه حسبة، وإنما أدبه بأجرة، فإذا أعطيته حقه، فقد قضيت ذمامه (50)...

العالم في امتحان دائما :

ورغم ذاك التنظيم الإداري، فقد كانت الأمة الإسلامية تقوم متطوعة محتسبة للنهوض بشؤون الدين والتعليم والإرشاد، إذ لو تركت العلم لرجال الدولة، لما ظل العلم في بلاد الإسلام، دائما، في ذلك المستوى الرفيع... فقد كان العلماء والقائمون على شؤون الدين أن يواصلوا الدرس، ليحافظوا على مكانتهم العلمية أمام الناس الذين يستمعون إلى دروسهم... وإن اعتماد العالم على الجماعة تطلب ممن أراد الالتحاق بصفوف العلماء، والاستمرار في جملة الفقهاء أن يكون عالما حقا وصدقا، فما كانت هناك دولة تمنح الشهادات والإجازات... بل ما كانت هذه الإجازات التي يقدمها الشيوخ لطلابهم بمقبولة عند السواد الأعظم من الناس، إلا إذا ثبت بالفعل أن الرجل عالم حقا، وذلك عن طريق دروسه التي تلقى في المسجد، ويسمعها من أراد، فكان العالم في امتحان دائم، وكان عليه أن يثبت يوما بعد يوم أنه لا يزال في مستواه الرفيع، وإلا فالجماعة تعرض عنه، وتنزع ثقتها من العالم إذا ضعف علمه، أو خرج

---

38) الخطط : ص : 2/341.
39) «الإسلام والنصرانية» محمد عبده ص : 98.
40) «الوزراء والكتاب» الجهشياري ص : 212.
41) «مفرج الكروب» مخطوط.
42) «تاريخ آل سلجوق» ص : 136.
43) ابن جبير ص : 52 و272.
44) «وصف إفريقيا» للوزان ص : 230.
45) كتاب المعارف ص : 185.
46) كان الحجاج بن يوسف الثقفي وأبوه يوسف معلمين بالطائف.
47) يريد أن خبز المعلم مختلف باختلاف ما يأخذ من الأطفال.
48) «معجم الأدباء» ص : 5/397.
49) د. أحمد شلبي «تاريخ التربية الإسلامية» ص : 204.
50) «معجم الأدباء» لياقوت الحموي ص : 1/154.

عن الطريق، أو تخلى عن سمت أهل العلم، ولاشك أن أجلاء العلماء، على طول تاريخنا الماضي عاشوا كرماء مبجلين في مستوى طيب، وعلى دخول وافية بحاجاتهم... والحمد لله رب العالمين...

فالطائفة الإسلامية استخدمت مساجدها معاهد للتعليم، لأن العلم كان دائما من اختصاص الجماعة، فلم تكن دول الخلافة أو دول السلاطين مسؤولة عن التعليم حتى في عصر الراشدين، وإنما كان التعليم من اختصاص الأفراد والجماعة، فكانت الجماعة تتكفل بأرزاق ومعاش المعلمين عن طريق الوقف (51)، وسواء أكانوا معلمين صغاراً يعلمون الصبيان القراءة والكتابة ومبادئ الدين ويحفظونهم القرآن، أو شيوخا يلقون محاضرات على طلابهم في المسجد في علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والأدب...

ثم بعد ذلك لما تغيرت الأوضاع، وتبدلت الأحوال، وتطورت الحياة الاقتصادية والاجتماعية بات العلماء يتقاضون على تعليمهم أجرة حددها علماء التربية القدماء ويذكر القابسي الفقيه المالكي (ت 403 هـ) (52) «ان الأجر ضروري، لأنه لو اعتمد الناس على التطوع لضاع. كثير من الطلبة والتلاميذ، ولما تعلم القرآن كثير من الناس، فتكون هي الضرورة القائدة إلى السقوط في فقد القرآن من الصدور، والداعية التي تثبت أطفال المسلمين على الجهالة...».

فكان الأساتذة يتقاضون علاوات، وكل ما يحتاجون إليه طوال السنة، ويتمتعون بحق السكنى مجانا، كما ورد ذلك عن الحرشاوي أحد علماء الجزائر الذين درسوا بفاس في القرن التاسع عشر، فقد روى عنه «دلفار» زيادة على ما ذكر أن الأساتذة كانوا ملزمين بالمكث في فاس (53)...

وبنى أبو يوسف المريني المدارس والمعاهد، ورتب لها الأوقاف، وأجرى المرتبات على العلماء والطلبة في كل شهر (54)...

وأجرى المولى عبد الله الناس على معتادهم في المنازل، على ما قرره وتركه والده السلطان المولى إسماعيل، وكذلك المرتبات، وحافظ على ما أسسه والده رحمه الله من المناقب والمآثر والمكارم والمفاخر، وكان بذلك أهل الجانب المعظم كالعلماء، وحملة القرآن ومن والاهم من أهل المسكنة والديانة في أقوى منعة، وأعلى مكانة، وأعز رفعة (55)...

لقد كان العلماء والأساتذة والقائمون على شؤون الدين يعدون العلم عارية مقدسة، ووديعة من الله لا يبيعونه كسلعة في السوق، يتعاونون به على إثم آثم، وعدوان معتد، وكانوا لا يرضون أن يستعين به نظام ملحد، أو حكومة غير إسلامية (56).

وقد حكى المؤرخون الثقات، وفيهم العلامة سماحة الشيخ السيد أبو الحسن على الحسنى الندوى (57) أن الشيخ عبد الرحيم الرامبوري (ت : 1234 هـ) كان يعلم في بلدة

---

51) كان المدرسون من بلاد الأندلس لا يأخذون أجرا على التدريس كما ذكره المقري في نفح الطيب، بمعنى أنهم كانوا لا يتقاضون أجرا إلا من ريع الأوقاف المعينة لهم.

52) «في رسالته المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين» والتي تعتبر وثيقة فريدة من نوعها، وتوضح المناهج والأساليب التعليمية في إفريقيا، وقد أخرجها الدكتور الأهواني عام 1955 في كتاب ممتع عن : «التربية في الإسلام» (هدية العارفين ص : 5/685).

53) سئل المواق عن مسجد له وقف على مصالحه، وليس للمؤذن الذي يخدمه دار لإقامته... فهل يجوز أن تكرى دار للمؤذن من الوقف المذكور، ويعد المؤذن من مصالحه ؟ فأجاب : من المصالح الراجعة إلى المسجد مؤذن يؤذن به، ويقوم بمؤونه، فلا بأس أن تكرى له دار من فائد الأوقاف التي هي موقوفة على مصالح المسجد (المعيار : ص : 7/126).

54) دفاعا عن الثقافة المغربية ص : 194، للأستاذ حسن السائح.

55) «نشر المثاني» للقادري ص : 36.

56) انظر : «تحرير المقال، في آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال» لابن حجر الهيثمي (ت : 974 هـ) (هدية العارفين ص : 5/146، و«تذكرة السامع والمتكلم، في آداب العالم والمتعلم» لابن جماعة، (ت 733 هـ) (هدية العارفين ص : 6/148) كشف الظنون ص : 1/386)، وكتاب التذكرة من تحقيق د.حسن إبراهيم عبد العال، الأستاذ بكلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض... وصدر الكتاب الدكتور محمد الأحمد الرشيد مدير عام مكتب التربية العربي لدول الخليج... وقد تناول بدر الدين ابن جماعة في مقدمة كتابه صنفا واحدا من التعلم، هو ذاك التعليم المنظم الذي قامت به مؤسسات التعليم المعروفة في عصره كالمساجد والمدارس، والربط، والخوانق.

57) مجلة «البعث الإسلامي» التي تصدرها ندوة العلماء، لكنهو. الهند في : ع : 4/مج : 25.

«رامبـور» براتب زهيـد يتقـاضـاه كـل شهر من الإمـارة الإسلامية، لا يـزيـد على عشر روبيـات (أقل من جنيـه مصري) فقدم إليه حاكم الولايـات المستر «هاكنس» وظيفـة عـاليـة في كلية «بريلي» راتبها مـائتـان وخمسـون روبيـة (تسعة عشر جنيها مصريا) وذلـك يسـاوي خمسين جنيهـا اليوم، ووعد بالزيادة في الراتب بعد قليل، فـاعتـذر الشيخ عن قبوله، وقـال : «إنني أتقـاضى في عشر روبيـات، وانهـا ستنقطع إذا تحولت إلى هـذه الوظيفـة، فتعجب الإنجليـزي، وقال : ما رأيت كاليوم، أنـا أقدم راتبـا يزيـد على راتبـك الحالي بأضعاف أضعاف، وتترك الأضعاف المضاعفـة، وتقنع بالنزر اليسير !! فتعلل الشيخ بأن في بيته شجرة سدر، وهو مغرم بثمرها، وأنه سيحرمها إذا أقـام في «بريلي» ولم يفطن الإنجليزي بعد، إلى مقصود الشيخ، فقال : «أنا زعيم بأن هذا الثمر يصل إليـك من «رامبـور» إلى «بريلي»،فتشبث ثـالثـة بأن حوله طلبـة وتلاميـذ يقرأون عليـه في بلـده، فلو انتقل إلى هذه الوظيفـة انقطعت دروسهم... ولم ييـأس الإنجليزي المنـاقش من إقنـاعـه، فقال : أنـا أجري لهم جرايـات في «بريلي»، ويواصلون دروسهم هنـاك... وهنـا أطلق الشيخ آخر سهامـه التي أصمى رميتـه، فقـال : ومـاذا يكون جوابي غدا، إذا سـألني ربي... كيف أخـذت الأجرة على العلم ؟ وهنا بهت الإنجليزي، وسقط في يـده، وعرف نفسيـة العـالم المسلم... وقضى الشيخ حياته على أقل من جنيه يأخذه كل شهر...

ومن طريف ما يروى من قصص حج الملك الأشرف قايتباي من المماليك الأتراك الشراكسة (1410 ـ 1496)، أن إمام المسجد الحرام الشيخ محب الدين الطبري المكي، لم يكن ضمن مستقبليه خارج مكة، وقد وشى بـه بعض حساده عند قايتباي، فأمر به، فحضر، فعاتبه في ذلك، فقال : «إني استقبلتـك في أشرف بقعـة، وهي المسجـد الحرام»، فسر لجوابه، ثم بلغه أنه لا يتقاضى شيئا لوظيفـة الإمـامـة، فقال له : إني فرضت لك مائة دينار شهريا لقاء امامتك، فقـال : إن امامتـه حسبـة للـه، لا أقبل عليها جزاء، ثم مـا لبث أن انسل من المجلس دون أن يأذن لـه «قـايتبـاي» وقـال، وهو يخرج : «سلام عليكم» فعلق بعض الوشـاة على ذلـك، وقـال للسلطـان : إنـه أراد الآيـة : ﴿**سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين**﴾، فلم يسمع السلطـان للوشـايـة وقـال : «إنني تصورته أسدا، قوي الشكيمة في أول مقابلـة لي»، ولمـا عـاد السلطان إلى مصر، أرسل أمرا بتعيين الشيخ رئيسـا للقضـاة، ومشيخة الحرام، والإفتاء والتدريس والحسبة، فوصل الرسول مكة، وأراد تسليم الأوامر إلى الشيخ نفسـه، فلما انتهى إلى بيته، قيل له : إنه ذهب يحمل عجين بيتـه ليخبزه في فرن في أقصى الشـارع !!! فعجب الرسـول من ذلـك، واستخف بعملـــه، ثم انتظره إلى جـوار البيت حتى حضر وسلمـــه الأوامر، فـأهداه الشيـخ رغيفين من خبـزه !! فصعب ذلـك على الرسـول، وقـال : إن مثـل هـذه التعيينـات لا تقـل مكـافـأتهـا عن الألف، فـأعـاد الشيخ إليـه أوراق التعيينـات وقال : تفضل، فانه لا حاجة لي بها (58).

ومـا من شـك، أن أجلاء المـوظفين الـدينيين، من مؤذنين، وأئمة وخطبـاء، عـاشوا، طوال تـاريخنـا المـاضي، كرمـاء مبجلين، في مستوى طيب، وعلى دخول وافيـه تفي بحاجاتهم... فلقد كان هنـاك جماعـة من رجـال العلم شغلوا بـالمنـاصب الـدينيـة معظم وقتهم، وحـاولوا أن يرتزقـوا عن طريـق حرف بسيطـة كـانـوا يقـومـون بهـا مـع التـدريس، ولكنهم فشلوا في الحصول على مستوى منـاسب من العيش، فلم يكن بد من إنشاء المؤسسات الوقفية والمدارس العلميـة لتضمن لهم جرايات تقوم بحاجتهم (59).

☆ ☆ ☆

وقد خلف من بعد هؤلاء خلف بـاتوا يتقـاضـون أجورا ومرتبات مقابل قيامهم بالشؤون الدينية من إمامة وخطـابـة وتـــدريس وأذان، وتنظيف من طرف الجهــات المعنيـــة المكلفـة بشـؤون الـدين، ورعـايـة أمـوره في شخص نـاظر

58) «تاريخ مكة» أحمد السباعي ص : 338/1، نقلا عن «تاج تواريخ البشر» للعلامة الحضراوي / مخطوط.

59) «تاريخ التربية الإسلامية» للأستاذ أحمد شلبي، ص : 57.

الوقف الذي يتكلف بتلك المهام والذي يدخل في اختصاصه الاتصال بالقومة على تلك الوظائف...

ولقد كان ذلك مكروها لدى بعض الصحابة... فقد قال رجل من المؤذنين لابن عمر : «إني لأحبك في الله» فقال له : «لكني أبغضك في الله !!» فقال : «ولم يا أبا عبد الرحمن ؟» قال : «لأنك تبغي في أذانك، وتأخذ عليه أجرة...».

وقد شهد رجل عند سوار بن عبد الله القاضي، فقال : «ما صناعتك ؟» فقال : «أنا مؤدب... فقال : «إني لا أجيز شهادتك !! فقال : «ولم لا ؟» قال : لأنك تأخذ على القرآن أجرا (60) فقال له الرجل : وأنت تأخذ على القضاء أجرا... فقال : إني أكرهت على القضاء، فقال : «أكرهت على القضاء، فهل أكرهت على أخذ الدراهم، فقال لي : هات شهادتك، فأجازها، كما في المعيار...

وكان أبو بكر الآجري (61) رحمه الله يقول : «خرجت من بغداد، ولم يحل لي المقام بها، فقد ابتدعوا في كل شيء حتى في قراءة القرآن، وفي الآذان، يعني الإجارة والتلحين.

وقال سحنون : لأن أطلب الدنيا بالدف والمزمار، أحب إلي من أن أطلبها بالدين والعلم (62)... وكان يقول، وهو قاضي إفريقية : «ما أحب أن يكون عيش الرجل إلا على قدر ذات يده، ولا يتكلف ما في وسعه، وأكل أموال الناس بالمسكنة والصدقة خير من أكله بالعلم والقرآن (63).. وتوفي سحنون، ولم يأخذ لنفسه، مدة قضائه من السلطان شيئا (64)... كما أن القاضي أبا القاسم حماس بن مروان بن سماك الهمذاني الفقيه الزاهد، لم يأخذ على القضاء أجرا (65)... وكان القاضي نصر بن طريق اليحصبي، من زهده وورعه، إذا شغل عن القضاء يوما واحدا، لم يأخذ لذلك اليوم أجرا (66)... وقد تعفف القاضي محمد بن الحسن النباهي عن قبول تحف أقاربه، فضلا عن أجانبه (67)... ولم يأخذ النباهي قاضي مالقة على القضاء رزقا من بيت المال مدة حياته، وكان عن التعالي بالمرتب، في غناء، لكثرة ماله (68)... وكان القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي يصحب الرؤساء، ويقبل جوائزهم، فكثر القائلون فيه من أجل ذلك (69)... وكان القاضي أبو جعفر أحمد بن المزدغي (ت : 669 هـ) لم يأخذ

---

60) لمحمد بن محمد الجزائري مفتي الجزائر الحنفي الشهير بابن العنابي (ت 1267 هـ ـ 1851م) كتاب : «امعان البيان، في مسألة الاجارة على القرآن» راجع ترجمة المؤلف في معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ص : 5/ج : 12 وقد ورد سؤال من بعض أعيان الديار الاسطامبولية... مضمونه : «ما قولكم في أجرة قراءة القرآن هل تجوز أم لا... يوجد في خ.ع تحت رقم 1880 حرف، د في مجموع من ورقة 29/ب إلى 1/68. ولم يذكره بروكلمان، ولابن سعيد فرج بن لب كتاب : «ينبوع عين الثرة في تفريع. مسألة الإمامة بالأجرة «نفح الطيب ص : 5/524.

61) أبو بكر محمد بن الحسين الآجري المحدث الأثري، ذو التصانيف الحسان ككتاب الشريعة في السنة جاور مكة مدة (ت : 360 هـ) وقد صنف هذا العالم كتابا في أخلاق العلماء وإقبالهم على الدنيا، وكيف أن ذلك كان يحرم العالم من حريته الفكرية، ويقوده إلى تعطيل حريته.

62) مختصر الرهوني لدى قول خليل في الأذان : «وكره عليها»، وكان القاضي أبو البركات المعروف بابن الحاج البلفيقي آخذا بنفقته بقول سحنون بن سعيد، وكان يميل إلى القول بتفضيل الغني على الفقير، ويبرهن على صحة ذلك، ويقول : «وبخصوص في البلاد الأندلسية، لضيق حالها، واتساع نطاق مدنها، ولا سيما في حق القضاة، فقد شرط كثير من العلماء في القاضي أن يكون غنيا، ليس بمديان، ولا محتاج، وقد أراد الحكم المستنصر بالله رياضة إبراهيم بن أسلم فقطع عنه جرايته، فكتب إليه عند ذلك :

تزيد على الاقلال نفسي نزاهة ☆ وتأنس بالبلوى، وتقوى مع الفقر
فمن كان يخشى صرف دهر فانني ☆ أمنت بفضل الله من نوب الدهر

فلما قرأ الحكم بيتيه، أمر برد الجراية، وحملها إليه، فأعرض عنها، وتمنع من قبولها، وقال : «إني، والحمد لله، تحت جراية من إذا عصيته، لم يقطع عني جرايته !! فليفعل الأمير ما أحبه فكان الحكم بعد ذلك يقول : «لقد أكسبنا ابن أسلم بمقالته مخزاة عظم منها موقعها، ولم تسهل علينا المقارضة بها (النباهي تاريخ قضاة الأندلس ص : 164 ـ 165).

63) «تاريخ قضاة الأندلس» للنباهي ص : 30.

64) المصدر السابق، ونفس الصفحة.

65) المصدر السابق، ص : 32.

66) المصدر السابق، ص : 44.

67) المصدر السابق، ص : 114.

68) المصدر السابق، ص : 92.

69) المصدر السابق، ص : 95.

على القضاء أجرا، ونحا فيما يختص به من الجراية منحى سحنون بن سعيد في وقته، وطلب أن يكون رزق وزعته من بيت المال، لا من قبل أرباب الخصومات (70).

كره السلف الأجرة على كل ما هو من قبيل العبادات :

عن عيسى عليه السلام : «إن الله يحب العبد يتخذ المهنة يستغني بها عن الناس، ويتبغض العبد يتخذ الدين مهنة» (71).

وقال مالك : يؤاجر نفسه في سوق الدواب أحب إلي من أن يعمل عملا لله سبحانه إجارة...

وفي نوازل ابن الحاج : «إذا اتفق الجيران على حرس حوانيتهم أو كرومهم أو جناتهم، فأبى بعضهم، فإنه يرجع عليه بما ينوبه ويجبر، قال : «وهذا بخلاف الأجرة على الصلاة للإمام، من أباها، لا يجبر، ولا يحكم عليه بها، لأنها في أصلها مكروهة».

ولهذا استحب الإمام النووي : «أن يكون المؤذن حسن الصوت، ثقة، مأمونا... خبيرا بالوقت، متبرعا (72).

وقد سئل القاضي إبراهيم اليزناسني عن حكم الإمام إن أخذ أجرة على الصلاة من حلال... أو شبهة ؟ هل في الصلاة خلفه خلاف ؟.. أم لا ؟... وإن أخذها من الحرام... ما حكم الصلاة خلفه أيضا..

وقارئ الكتاب إن أخذ أجرة من الحرام ؟ هل يسمع الكتاب الذي يقرأ ؟ أم لا ؟...

فأجاب : أما أخذ الأجرة من الحلال، فمختلف فيها، والمشهور أنها لا تجوز إن كانت على الصلاة فقط... وإنما تجوز إذا كانت تبعا لأذانه وقراءته للصبيان ونحو ذلك... وأما الحرام... فذلك فسق ظاهر (73)...

دراسة فقهية في موضوع الاجور الدينية :

تحدث ابن رشد في موضوع اختلاف الفقهاء في إجارة المؤذن، «فإن قوما لم يروا في ذلك بأسا، وقوما كرهوا ذلك، والذين كرهوا ذلك وحرموه، احتجوا بما روى عن عثمان بن العاص قال : «قال رسول الله ﷺ : «اتخذوا مؤذنا لا يأخذ على أذانه أجرا».

والذين أباحوه قاسوه على الأفعال غير الواجبة، وهذا هو سبب الاختلاف، أعني هل هو واجب ؟ أم ليس بواجب ؟ (74).

نعم، لقد ورد أمر عثمان بن أبي العاص باتخاذ مؤذن لا يأخذ على أذانه أجرا، كما تقدم، قال الترمذي عقب روايته له : «حديث حسن، والعمل على هذا عن أكثر أهل العلم، كرهوا أن يأخذ على الأذان أجرا، واستحبوا للمؤذن أن يحتسب في أذانه...».

فمن صفة المؤذن المأمور باتخاذه، أن لا يأخذ على أذانه أجرا، وهل ذلك خاص بهذا الشخص، لأن النبي عليه السلام يريد التيسير عليه، وعلى قومه حتى لا يحتاجوا إلى مال لأجل إقامة عبادتهم ؟ أو هو عام في كل مؤذن ؟ فيدل على أن من أخذ على أذانه أجرا ليس مأمورا باتخاذه، وإذا لم يكن مأمورا باتخاذه، فإذا وقع ونزل واتخذ مؤذنا، هل يجوز له أخذ الأجرة على أذانه ؟

ذهب الشافعي إلى جواز أخذه الأجرة مع الكراهة، وذهبت الحنفية إلى أنها تحرم عليه الأجرة لهذا الحديث الآنف الذكر... قال الإمام الصنعاني : «ولا يخفى أنه لا يدل على التحريم، وقيل يجوز أخذها على التأذين في محل مخصوص، إذ ليست على الأذان حينئذ، بل على ملازمة المكان، كأجرة الرصد...

---

(70) نفس المصدر، ص : 130.

(71) المواق على شرح خليل ص : 1/454.

(72) الاذكار، للنووي ص : 36.

(73) المعيار للونشريشي ص : 131 - 1/132. وانظر موضوع أخذ الأجرة من المعيار للونشريشي الصفحات التالية : 226 - 236 - 238 246 - 247 - 248 - 252 - 254 - 8/259 - وص : 12 - 11/16 - وص : 131 - 149 - 158 - 162 - 12/58 انظر : «فتح الغشاوة، عن أخذ الأجرة على التلاوة» لابن حمزة الدمشقي. (هدية العارفين ص : 6/420) وانظر أيضا «تبصرة الحق على العيان، في حرمة الاستيجار على قراءة القرآن» لعبد الحميد بن الحاج عمر الخربوتي الرومي المدرس الحنفي (ت : 1320 هـ) (هدية العارفين ص : 5/507).

(74) «بداية المجتهد، ونهاية المقتصد» ص : 2/223.

وقد استنبط الإمام الأوزاعي من نصوص الشريعة : «أن لا صلاة لمن يأخذ الأجرة على الصلاة» وقال «خليل» : من المالكية بجواز أخذ الأجرة على الأذان، أو على الأذان مع الصلاة مع الكراهة عليها...

أما استئجار الحاكم من بيت المال على الأذان أو غيره، فقال ابن شاس من المالكية : «للإمام أن يستأجر على الأذان من بيت المال، واختلفوا في إجارة غيره...

وقد ذكر شراح المختصر : (75) «أنه إذا لم يجد أهل المصر من يؤذن لهم إلا بأجرة، فإنهم يستأجرون من يؤذن لهم» وأن البرزلي قال : «وقد أجرى السلف أرزاقهم من بيت المال من المؤذنين والقضاة وغيرهم، ولم يأت آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها...».

وقال بعض أئمتنا في جواب نقله الرهوني عن ابن زاغو (76) «لولا الجرايات على إقامة رسوم الدين في هذه» الأوقاف، لم يكن من الدين شيء، ولولا مرتبات القضاة والأئمة والمؤذنين والمدرسين وأشباههم لم تجد لهذه الشعائر خبرا ولا أثرا... وحسبك بالمساجد التي لا جراية لمؤذن أو إمام فيها كيف تعطلت فيها الجماعات، وانطمست الصلوات فيها في كثير من الأوقات، وتوفرت الرغبة عنها...

وفي طبقات ابن سعد أن عمر، رزق عياض بن غنم حين ولاه جند حمص كل يوم دينارا، وشاة ومدا...

وفي البخاري في «باب رزق الحكام والعاملين عليها... وكان شريح يأخذ على القضاء أجرا... وقالت عائشة : يأكل الوصي على قدر عمالته، وأكل أبو بكر وعمر...».

وروى ابن سعد في الطبقات : «بلغني أن عليا رزق شريحا خمسمائة، وأن عمر بن الخطاب استعمل زيد بن ثابت على القضاء، وفرض له رزقا... ولما تخلف أبو بكر أصبح غاديا إلى السوق، فلقيه عمر وأبو عبيدة، فقالا : «انطلق حتى نفرض لك شيئا، وأن أبا بكر لما استخلف جعلوا له ألفين فقال : «زيدونا... فزادوه خمسمائة...

وروى أيضا أن عمر بن الخطاب رزق شريحا وسلمان ابن ربيع الباهلي على القضاء.

ومن مناقب صلاح الدين الأيوبي أنه كان قد رتب لكل هذه المساجد أئمة مرتبين، فمنهم من له الخمسة دنانير مصرية في الشهر، وهي تعادل عشرة دنانير من عملة بلاد العرب وقتئذ، ومنهم من له فوق ذلك أو دونه (77).

قال القاضي أبو بكر محمد بن العربي (78) عن قوله تعالى في الآية : ﴿والعاملين عليها﴾ وهذا يدل على مسألة بديعة، وهي : أن ما كان من فروض الكفايات، فالقائم به يجوز له أخذ الأجرة عليه، ومن ذلك الإمامة... فإن الصلاة، وإن كانت متوجهة على جميع الخلق، فإن تقدم بعضهم من فروض الكفاية، فلا جرم يجوز أخذ الأجرة عليها.

ونقل عبد الملك بن حبيب السلمي، أحد ناشري مذهب الإمام مالك بالأندلس، منع أخذ الأجرة عليهما، ولعل مستنده في ذلك الحديث الذي أخرجه النسائي في سننه عن عثمان بن العاص، قال : قلت يا رسول الله : اجعلني إمام قومي، فقال : «أنت إمامهم، واقتد بأضعفهم، واتخذ مؤذنا لا يأخذ على أذانه أجرا... لكن السيوطي في شرحه على السنن، ذكر أن الأمر في قوله عليه السلام : «واتخذ مؤذنا... محمول على الندب عند كثير... وقد أجازوا أخذ الأجرة...

وفي المدونة الكبرى، وقال مالك : «لابأس بإجارة المؤذنين» وفي مختصر خليل في سياق العطف على الجائزات : «وأجرة عليه، أو مع صلاة» قال شارحه الزرقاني في معناه : «وجائز للمؤذن أخذ أجرة عليه وحده أو مع صلاة صفقة واحدة لأنها تبع له في المعنى...

75) «مواهب الجليل» للرعيني ص : 1/455.

76) أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الشهير بابن زاغو المغراوي التلمساني الإمام المحقق المتفنن الزاهد العابد، له شرح على التلمسانية في «الفرائض»، وتفسير على «الفاتحة» كثير الفوائد، وفتاوي في أنواع العلوم، نقل في المعيار والمازونية جملة منها... (ت 845 هـ).

77) رحلة ابن جبير ص : 215.

78) «أحكام القرآن» ص : 1/393.

ومن أجوبة الأستاذ الفاضل السيد محمد الطنجي في الموضوع : (79).

«إذا نظرنا إلى أن الموظفين الدينيين يقومون بمصالح إسلامية حكمنا بجواز أخذهم لأجورهم من بيت المال قطعا، ولو من الزكاة الشرعية» وقد أدخل أبو عبيدة من كان في مصلحة عامة في العاملين، وأشار إليه البخاري حيث قال : «باب رزق الحاكم والعاملين عليها...» وأراد بالرزق ما يرزقه الإمام من بيت المال لمن يقوم بمصالح المسلمين كالقضاء، والفتيا والتدريس، فله الأخذ من الزكاة فيما يقوم به مدة القيام بالمصلحة، وإن كان غنيا كما نقله صاحب كتاب : «سبل السلام في باب قسمة الصدقات...

وفي الصحيح أن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في سفر، فمروا بحي من أحياء العرب، فاستضافوهم، فلم يضيفوهم، فقالوا : هل فيكم راق ؟ فإن سيد الحي لديغ أو مصاب، فقال رجل من القوم : نعم فأتاه، فرقاه بفاتحة الكتاب، فبرئ الرجل، فأعطي قطيعا من الغنم... الحديث... قال أهل العلم : فيه دليل على جواز أخذ الأجرة على الرقية والطب وتعليم القرآن، وهو قول الشافعي ومالك وأحمد وابن ثور وجماعة من السلف (80).

قال الحطاب (81) «إذا لم يجد أهل المصر من يؤذن إلا بأجرة، فإنهم يستأجرون من يؤذن لهم...» قال الشيخ يوسف بن عمر : «وتكون أجرته على أهل الموضع كلهم، وكذلك من كان خارجا منه، وله رباع أو عقار في ذلك الموضع... وهذا بخلاف إجارة التعليم، فإنها لا تجب إلا على من له صبي...».

وقال ابن ناجي شارح المدونة : «استمرت الفتوى من كل أشياخي القرويين وغيرهم بجواز أخذ من يصلي أو يؤذن من الأحباس الموقوفة على ذلك، من غير اختلاف بينهم لما ذكر من إنها إعانة أو لضرورة الأخذ، ولو لا ذلك لتعطلت المساجد...

وفي مقدمة ابن رشد :

وآخذ على الصلاة أجرا
في كل ذا، كره يسير يدرى
إلا إذا يعطيه بيت المال
فذاك قل : من أطيب الحلال

وفي القوانين الفقهية لابن جزي : «وأما الواجب كالصلاة والصيام، فلا تجوز الأجرة عليه، وتجوز الإجارة على الإمامة مع الأذان، والقيام بالمسجد لا على الصلاة بانفرادها» ومنعها ابن حبيب مفترقا ومجتمعا، وأجازها ابن عبد الحكم مفترقا ومجتمعا...

وفي لب اللباب : لأبي عبد ابن راشد : نجد أنه : «لا يصح الاستئجار في العبادات كالصوم والصلاة، فإن أوضح يحج فله أجر النفقة ويجوز أن يعطى المؤذن والإمام من بيت المال، ومن الأحباس، ويجوز للمؤذن أن يأخذ الأجرة من أجائر الناس، وفي جواز ذلك للإمام ثلاثة أقوال :

1) المنع لابن حبيب.
2) الجواز لابن عبد الحكم.
3) والتفرقة... فإن أضاف لذلك أذانا، أو إقامة، جاز، وبه العمل...

وفي أخذ الإمام والمؤذن الأجرة على أذانه وإمامته، يقول سيدي محمد بن أحمد الفاسي ميارة في شرحه على المرشد المعين : «إن كان من بيت المال أو من الأوقاف فجائز إجماعا، سواء قلنا إن ما يؤخذ من الأحباس إعانة أو إجارة لضرورة الآخذ، ولولا ذلك لتعطلت المساجد، وإن كان من عند الناس، ففي أخذها على الأذان قولان، بالمنع والجواز، وعلى الإمامة ثلاثة أقوال : 1) المنع 2) والجواز إن كان تابعا للأذان، 3) والكراهة إن كان على الإمامة بانفرادها...

---

79) «الأحباس وموظفو المساجد» : مجلة «الإرشاد الديني» ع : 2/س : 1.
80) أزهار الرياض، ص : 1/219.
81) شرح المختصر ص : 1/457.

والمشهور من ذلك ما اقتصر عليه خليل، فقال عطفا على فاعل جازت **«وأجرة عليه أو مع صلاة»** وكره عليها ابن شاس، جازت الإجازة على الأذان، لأنه لا يلزمه الإتيان به، وهو تحمل بكلفة، فإذا جمع مع ذلك الصلاة، فإنما الأجر على الأذان خاصة...

وقال ابن عاشر موجها قول ابن عبد الحكم بجواز الإجارة على الصلاة وحدها، إن الإجارة عليها إنما هي في الحقيقة على الإمامة، والإمامة غير متعينة، وغير المتعين لا تكره الإجارة عليه، لقول خليل في كتاب الإجارة : **«ولا متعين كركعتي الفجر بخلاف الكفاية»** ولذا قال ابن يونس : إنه القياس...

الصلاة خلف من يأخذ الأجرة :

وأما الصلاة خلف من يأخذ الأجرة عليها فجائزة من غير كراهة كما في الحطاب عن سماع أشهب.

قال ابن الحاج في المدخل : وقد كان سيدي أبو محمد رحمه الله يقول : إذا أخذك وقت الصلاة بمسجد من المساجد، فإن كنت في بلاد المغرب، فصل حيث كنت، وليس عليك إعادة، وإن كنت في الديار المصرية، وما أشبهها فيقع التفصيل بين أن تعلم حال الإمام أم لا، فتعمل على ما تعلم من حاله، فإن كان فيه أهلية، مضت صلاتك، وإلا فتعيدها...

وكان رحمه الله يعلل ذلك فيقول : «إن بلاد المغرب لا يتولى الإمامة في المسجد الأعظم إلا من أجمع أهل تلك البلد على فضيلته وتقدمته في العلم والخير والصلاح، وسائر المساجد لا يتولى الإمامة فيها إلا من أجمع أهل تلك الناحية على فضيلته عليهم...

وأما الديار المصرية وما أشبهها، فإن الإمامة فيها بالدراهم غالبا، وهي إذا كانت كذلك لا يتولاها إلا صاحب جاه أو شوكة، ومن اتصف بذلك، فالغالب عليه رقة الدين، فإذا صلى خلفه، وهو لا يعرف حاله أعاد صلاته لقوله عليه الصلاة والسلام «أئمتكم شفعاؤكم، فانظروا بمن تستشفعون».

وقد وجد بخط الإمام ابن مرزوق ونحوه في نوازل البرزلي (☆).. إن الشيخ الولي الصالح الزاهد أبا عبد الله محمدا الدكالي رحمه الله كان بمدينة تونس في حدود التسعيين وسبعمائة، فكان لا ينتسب للخلق، ولا يخالطهم، لا عامتهم ولا خاصتهم، ولا يحضر الجمعة ولا الجماعات، ولا يصلي مع الناس في الجامع في جماعة، فرموه بالزندقة، وشنع عليه الإمام الأوحد أبو عبد الله بن عرفة الذي كان إمام جامع الزيتون أقبح التشنيع، وصار يبحث على امتناعه من الصلاة مع الناس لماذا ؟ فقيل له : «إنما امتنع لأخذ الأئمة على الصلاة الأجرة، فزاد بذلك إغلاظا في القول والتشنيع، وتبعته العامة والخاصة في ذلك، فرحل الإمام أبو عبد الله الدكالي إلى المشرق فارا بنفسه، فأنكر عليه ذلك ابن عرفة وكتب إلى أهل مصر في شأنه :

يا أهل مصر، ومن في الدين شاركهم، تنبهوا لسؤال معضل نزلا،
لزوم فسقكم، أو فسق من زعمت أقواله، إنه بالحق قد عدلا
في تركه الجمع والجمعات خلفكم وشرط إيجاب حكم الكل قد حصلا
إن كان شأنكم التقوى فغيركم قد باء بالفسق حقا عنه ما عدلا
وإن يكن عكسه فالأمر منعكس، قولوا بحق، فبان الحق معتدلا

فاجتمع رأيهم، ورئيسهم إذ ذاك الحافظ ابن حجر على أن كتبوا له بأبيات منها :

ما كان من شيم الأبرار أن يسموا بالفسق شيخا على الخيرات قد جبلا

☆) «نوازل البرزلي» خ : الحسنية : 8441 ـ أوائل السفر الأول، ونقل ذلك الحطاب في : شرح المختصر الخليلي ط : دار السعادة بمصر 1328 هـ، ص : 457 ـ 1/458.

لا، لا ولكن إذا ما أبصروا خللا
كوه من حسن تأويلا تهم حللا

ومنها وهو المقصود :

هذا، وأن الذي أبداه متضح
أخذ الأئمة أجرا منعه نقلا
وهب بأنك راء حله نظرا
فما اجتهاك أولى بالصواب... ولا (82)

وهذا الجواب من نظم سراج الدين البلقيني حسبما ذكره ابن القاضي في التكملة...

قال البرزلي في أول كتابه : «وعندي أن كلا منهما حكم بما يقتضيه حاله... فإن الدكالي كان بعيدا من الدنيا، وزاهدا فيها، فالمتلبس بها عنده في غاية البعد عن الآخرة... وكان شيخنا يرى أن الدنيا مطية الآخرة، وانها نعم العون على ذلك كما في مسلم، فاكتسب منها جملة كثيرة، وأخرج جلها للآخرة، نفعه الله بذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

☆ ☆ ☆

وبعد، فهل الأحباس الموقوفة على الموظف الديني تعتبر رزقا ؟ أو أجرا ؟ أو إعانة باعتبار أنها بذل مال وعطاء. بإزاء المنافع من الغير... مع أن الأرزاق، أدخل، كما يقول القرافي، في باب الإحسان، وأبعد عن باب المعاوضة... وباب الإجارة أبعد من باب المسامحة، وأدخل في باب المكايسة... أو يعد ما يقدم للموظف الديني كسبا أو معاشا..؟

يقول الفقه : «اختلفوا في الأحباس الموقوفة على من يؤذن أو يصلي ؟ فقيل إنها إجارة، وهذا هو الذي فهمه بعضهم من أقوال الموثقين... وقيل إنها إعانة، ولا يدخلها الخلاف في الإجارة على الأذان والإمامة (83)...

وفي نوازل الأحباس من المعيار : أن القاضي أبا عمر ابن منظور سئل عن نازلة إمام قرية شارطه أهلها بإجارة معلومة في العام، ومن الأجرة عدد «سموه عن التراويح، ثم أن الإمام أطلع على أن الحبس المعين عندهم في التراويح أكثر من العدد الذي سموه له... هل تجب له الزيادة إن طلبها ؟..

فأجاب بما نصه : أن الأحباس المحبسة على وظيف ديني هل مجراها مجرى الكراء ؟ أو مجرى الرزق ؟ فيها خلاف... فإن قلنا بأنها مجرى الكراء فليس للإمام إلا ما اتفق به مع القيم، لإنه قلنا بأنها مجرى الكراء فليس للإمام إلا ما اتفق به مع القيم، لأنه على ذلك دخل، ولا يلزم القائم بأمر الأحباس أن يعلمه بشيء، وإن قلنا بأنها مجرى الرزق، فإنه يرجع بما نقصه من الأحباس لوظيفه الذي أقامه، إلا أن يكون أعلموه بمقدار الأحباس، ورضي بما نقصوه منها، فلا قيام له، وكون الأحباس تجري مجرى الرزق هو المرتضى عند المحققين من المتأخرين، وبه كان يفتي إمام الفتوى الأستاذ أبو سعيد فرج بن قاسم أحمد بن لب الغرناطي (84)، وبكونها مجرى الكراء كان يفتي مفتي الوقت سيدي أحمد الرقسطي... والقاضي حيث التحاكم في النازلة يجتهد رأيه... والخلاف في الأحباس الموقوفة هل هي إجارة ؟ أو رزق ؟ أو إعانة، نقله الحطاب في فصل الأذان في مختصر الشيخ خليل (85)...

ومن نوازل الشيخ ابن هلال، رحمه الله، ما نصه، سؤال وجوابه : «الذي جرى به العمل في أخذ الإمام والمعلم، ومن في معناهما ما حبس من النخل، على ذلك، وإن كان مجهول القدر، والجواز عملا على أن ذلك من باب الأرزاق والإعانة، لا من باب الإجارة والمعاوضة، فإذا بنينا على جواز ذلك كان له الدخول على ما تغله الأشجار

---

82) «الدر الثمين، والمورد المعين» لمحمد بن أحمد ميارة ص : 200 ـ 201. «محمد الدكالي» أقام بتونس في طريق الحج، كان يحفظ الموطأ للإمام مالك («فهرست الرصاع» ص : 73، نشر المكتبة العتيقة بتونس عام 1967) وهو صاحب المناقشة مع ابن عرفة في تونس، ثم مع البرزلي بالإسكندرية (نوازل البرزلي خ. الحسنية : 8441 ـ أوائل السفر الأول، ونقل ذلك الحطاب ص : 457 ـ 1/458) ومات بها عام 799 هـ (أنباء الغمر : بأبناء العمر» لابن حجر ص : 1/543 ط : القاهرة عام 1969).

83) «مواهب الجليل» للحطاب ص : 1/457.

84) لابن لب الغرناطي : «ينبوع الثرة، في تفريع مسألة الإمامة بالأجرة» (هداية العارفين ص : 5/816.

85) ص : 1/455.

المحبسة بالغا ما بلغ، وبهذا أفتى بعض أشياخنا في المسألة...

وفي نوازل الشيخ ابن هلال، أيضا، سؤال عن معلم بأحباس المسجد... هل يجوز ذلك مع ما فيه من الغرر أم لا ؟ فكان الجواب : الأمر إن شاء الله واسع، لأن ذلك إعانة على رأي...»

ونسب في محل آخر الجواز في هذه المسألة إلى ابن رشد في أجوبته...

وإلى هذا الرأي ذهب صاحب العمل المطلق حيث قال :

وأخـذ كالإمـام مـا حبس من
نخل على ذلـك جـائز وإن

جهل قـدر مـا تغلـه النخيل
إذ جعلوا ذلـك الأخـذ من قبيل

بـاب الإعـانـة، والأرزاق... لا
بـاب الإجـارة، بهـذا عمـلا

قال الجلماسي : «وقفت في المعيار على فتاوي موافقة لما جرى به العمل في هذه المسألة من الجواز، منها قوله في نوازل الصلاة. وسئل ابن سراج عن إمام قرية أم بها مدة من عامين بطعام معلوم وفائدة أحباس المسجد، ومن جملة أحباسه أصول الزيتون، لم يكن فيها في العام الأول غلة، وجاءت العام الثاني بغلته كاملة على العادة، وخرج هذا الإمام في أكتوبر بعد تمام العامين، ودخل غيره.. لمن تكون الغلة ؟ فأجاب : إذا كانت الغلة في العام الذي خرج فيه الإمام، فله منها بحساب ما أمّ فيه من شهور العام...».

وسئل بعضهم أيضا، عن دمنة محتبسة، وفيها أصول زيتون، والإمام ينتفع بفائدها، فلما كان هذا العام، زال الإمام، ورجع في موضعه آخر، وذلك في أول شهر أكتوبر... فلمن يكون فائد الزيتون في هذا العام ؟ فأجاب : «الغلة مشتركة بين الإمامين بنسبة ما أمّ كل واحد منهما... وهذا القول نقله مثله في المعيار، عن الحفار، ومثله، أيضا، عن السرقسطي في غلة كروم، قائلا : على أنها إعانة على إقامة وظيف المسجد...

ونقل عن السرقسطي، أيضا، في نوازل الصلاة جوابا بالمنع، قال فيه : «إن ما يأخذه الإمام إجارة على عمله، فيمتنع كونها ثمرة لم تخلق، أو خلقت، ولم يبد صلاحها».

فالسرقسطي يختلف في قوله، فهو تارة يقول بأن ما يأخذه الإمام إجارة... وتارة إعانة... والمسألة فيها خلاف بين الفقهاء.

ويعترضنا في هذا العرض الفقهي جواب طويل لسيدي إبراهيم اليزناسي، عن مسألة وقف، على مدرسة ضاق عن مرتب الخدام والطلبة، والإمام... فقال : «لاشك في تلمح الإجارة، والعوضية في كل من تعود منه منفعة على المدرسة أو على مستغلاتها كالحواب والكناس، ومصلح المستغلات، وتتخالج الظنون في الطلبة والفقيه والمؤذن والإمام... فمن حيث إن واحدا منهم لا تعود منه منفعة على نفس المدرسة ولا على مستغلاتها كانوا أهل إرفاق وصلة، ولا عوضية في ذلك... وحيث إنهم حبسوا أنفسهم على مقتضى لفظ الواقف اشبهوا الأجراء لبيعهم منافع أعيانهم المواقيت التي حدها المحبس...

ويأخذ بعض الفقهاء أن الوقف المرتب على أهل الوظائف الدينية إجارة كوظيفة المؤذن والإمام، والمدرس والقاضي، والمفتي سواء على رأس كل شهر أو يوم، أو أسبوع أو سنة... فإذا عزل القائم بالوظيف قبل تمام المدة، فإنه يكون له منه بقدر عمله، أي بنسبة ما عمل من المدة لما بقي منها... فإذا كان المرتب إعانة، أو ارتفاقا، فلا يكون له الحكم السابق، لأن حكم الإجارة أنها إذا انفسخت كان للأجير من الأجرة بقدر عمله.

وإلى هذه الأحكام يشير صاحب العمل الفاسي بقوله :

وحبس مرتب لمن عـزل
على الإجـارة، بقـدر مـا عمـل

وقد ذكر القرافي (86) أنه يجوز في المدارس الأرزاق والوقف والإجارة ولا يجوز في إمامة الصلاة الإجارة على المشهور من مذهب مالك رحمه الله، ويجوز الأرزاق والوقف، وكثير من الفقهاء يغلط في هذه المسألة فيقول : إنما يجوز تناول الرزق على الامامة بناء على القول بجواز الإجارة على الامامة في الصلاة، ويتورع عن تناول الرزق بناء على الخلاف في جواز الإجارة، وليس الأمر كما ظنه، بل الأرزاق مجمع على جوازها لأنها إحسان ومعروف وإعانة، لا إجارة... وإنما وقع الخلاف في الإجارة لأنه عقد مكايسة ومغابنة، فهو من باب المعاوضات التي لا يجوز أن يحصل العوضان فيها لشخص واحد، فإن المعاوضة إنما شرعت لينتفع كل واحد من المتعاوضين بما بذل له، وأجرة الصلاة له، فلو أخذ العوض عنها لاجتمع له العوضان... والأرزاق ليست بمعاوضة البتة لجوازه في أضيق المواضع المانعة من المعاوضة، وهو القضاء والحكم بين الناس، فلا ورع حينئذ في تناول الرزق... والأرزاق على الإمامة من هذا الوجه، وإنما يقع الورع من جهة قيامه بالوظيفة خاصة، فإن الأرزاق لا يجوز تناولها إلا لمن قام بذلك الوجه الذي صرح به الإمام في إطلاقه لتلك الأرزاق...

☆ ☆ ☆

وبعد، فكيف يمكننا أن نضع اليوم ما يتقاضاه الموظف الديني، من الناحية القانونية ؟ فهل هذه الأرزاق، أو الإعانات، أو المساعدات التي أتينا عليها دراسة وفقها، تدخل ضمن طبيعة الأجر، وتعد من ملحقاته، وتختص بالدراسات الفقهية والقانونية، وتضمن الحق لأصحابه، وتنصب عليها أحكامه، أو تشبه المنح، والبدلات، والعلاوات، والمشاركة في الربح، والعمولة، والوهبة، التي يختص بدراستها قانون العمل، والتي تعد هي أيضا، من ملحقات الأجر... والتي تعتبر في قانون العمل جزءا من الأجر، فتنطبق عليها نفس الأحكام التي تنطبق عليه، بل إن تلك الملحقات، في بعض صورها تصير كل الأجر الذي يحصل عليه العامل، ولا تصح تسميتها عندئذ بالملحقات، لأنها تصير الأصل فهل هي إجارة كما يفهم في أقوال الموثقين ؟ أو إعانة ؟ أو رزق ؟ أو كسب ؟ أو معاش ؟... وإذا كانت إجارة، وهي الأصل، فما هي أحكام الإجارة في القانون الحالي الوضعي ؟

إن كلمة «أجر» (87)، وردت في القرآن نحو ثمانية ومائة آية وكلها تفيد معنى الثواب والجزاء، وما يدفع مقابل الأتعاب...

وقد تطورت هذه الكلمة على مر العصور، وفترات التاريخ في الميدان الاقتصادي حيث كان أغلب اهتمام الاقتصاديين يتركز عادة في نظرية الأسعار... فليس من شك في أن القول بأن الأسعار تعتمد إلى حد كبير على العلاقة بين «الطلب» و«العرض» فكرة طبيعية مألوفة... أما الأجور والمرتبات، فكانت من بين أشياء أخرى... الثمن الذي يدفعه أصحاب العمل، مقابل العمل الذي يحصلون عليه...

فالأجر هو «كل ما يلتزم به صاحب العمل للعامل بموجب عقد العمل، كمقابل لقيامه بالعمل المتفق

---

86) كتاب الفروق للقرافي، الفرق الخامس عشر والمائة ص : 3/6.

87) الأجر والأجرة يقال فيما كان عن عقد، وما يجري مجرى العقد (المفردات، ص : 9) والإجارة ما أعطيته من أجر في عمل، (اللسان 10/4) وهي شرعا : عقد على منفعة مقصودة معلومة قابلة للبذل والإباحة بعوض معلوم (إرشاد الساري ص : 4/126) وهي واسعة تشمل نواحي متعددة من فروع الاستيجار... والأجير : من يشتغل لغيره في مقابل أجر يدفع له، والأجرة الكراءة، وهو ما يعطي الأجير في مقابلة العمل (تاج العروس مادة أجر : 7/3) منهم من يشتغل في الحرف مثل النجارة والحدادة والبناء وأمثال ذلك، ومنهم من يشتغل في الزراعة ومنهم من يستأجر لأداء أعمال لأجل مثل خدمة القوافل، أو حراسة زرع، وما شابه ذلك، فإذا انتهى الأجل، انتهى العمل...
وما يدفع إلى الأجير في مقابل عمله يتوقف على الشروط التي اتفق صاحب الأرض مع الأجير عليها، فقد يكون الأجر نقدا، وقد يكون حصة، أي نصيبا يتفق عليه مع الملاك يوخذ من الحاصل، وقد يكون مقايضة بأن يدفع للأجير ما يحتاج إليه في حياته من ملبس أو غذاء أو حيوان، وأمثال ذلك في مقابل جهده وتعبه.

عليه» (88)، وهذا الطابع الحيوي للأجر مرده إلى أن الأجر هو المورد الوحيد في أغلب الأحوال لطبقة فقيرة مضغوطة مكظومة مكروبة كثيرة العدد تزداد كل يوم هي طبقة العمال مع ملاحظة اتساع المعنى القانوني للعامل، فهو يشمل كل من يُقدّمُ جهدا نظيرَ أجرٍ مما يقتضي أن يكون هذا الأجر كافيا لإشباع الحاجات الأساسية للعامل وأسرته... ومبدأ ضرورة كفاية الأجر لحاجات العامل أصبح مبدأ مسلما به في كل الدول... ولذا تضمّن إعلان حقوق الإنسان بعد الحرب العالمية الثانية النص عليه (89)، كما تقدم النظرة الاجتماعية أن الالتزامات التي تنشأ على عاتق صاحب العمل في عقد العمل، بصفة، عامة، تتناولها نصوص القانون المدني، أو نصوص مدونة الالتزامات والعقود... كما أن هناك نصوصا أخرى كثيرة في التشريعات الخاصة تضع قواعد تنظيم بصورة أدق، الالتزامات التي يفرضها القانون المدني أو تضيف على صاحب العمل التزامات جديدة لمصلحة العمال...

وبالإضافة إلى قواعد القانون المدني توجد في التشريعات الخاصة المنظّمة لعلاقات العمل، قواعد أخرى كثيرة تطبق في النطاق الخاص الذي يكون لكل من هذه التشريعات، ويتناول بعض هذه القواعد تنظيم تقدير الأجر، وحماية حقوق العامل فيه وقواعد الوفاء به، وكذلك تتناول تنظيم التزام صاحب العمل باتخاذ احتياطات سلامة وأمن العمال، وتعويضهم عن إصابات حوادث العمل تنظيما تفصيليا... كما تتضمن التشريعات الخاصة قواعد تقضي بتعميم التزام صاحب العمل بتقديم الخدمات الطبية للعمال، بصرف النظر عن إقامتهم لديه، وكذا تقديم بعض الخدمات الأخرى للعمال في أحوال معينة، كما تنظم التزام صاحب العمل بتعويض العامل عما يصيبه من أمراض ناتجة عن ممارسة حرفته بالإضافة إلى التزامه بالتعويض عن إصابة العمل، كما تقضي التشريعات الخاصة بإلزام صاحب العمل بمنح العمال راحة أسبوعية، وإجازات سنوية مدفوعة الأجر، وإجازات مرضية في بعض الأحوال... وكذا، إلزام صاحب العمل بالاشتراك لمصلحة عماله في صندوق المعاونة الاجتماعية، والمساهمة في أعباء الضمان الاجتماعي...

وإلى جانب التدخل التشريعي سعت المنظمات العمالية إلى حماية حق العامل في الأجر بوسائلها الخاصة، فنظمت الاتفاقات الجماعية للعمل كثيرا من الشروط المتعلقة بتحديد الأجر وحمايته (90).

ولقد كان إخضاع الأجر لقانون العقد، وحرية الإرادة المبدأ السائد خلال القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين... ولكن الواقع أن حرية الإرادة كانت من جانب واحد فقط هو جانب صاحب العمل، أما بالنسبة للعامل، فقد كان التعاقد على العمل إذعانا منه لشروط صاحب العمل في تحديد الأجر، وإلى وضع نظامه القانوني... ونتجت عن ذلك كل المظالم التي حاقت بالعمال، والتي حفزت الشارع في كل الدول إلى حماية حق العامل في الأجر بطائفة هامة من قواعد قانون العمل بالنظرة المالية إلى علاقات العمل نظرة اجتماعية تضحي بفكرة حرية الإرادة والقواعد التعاقدية إن لزم ذلك لتحقيق مصالح الجماعة، وفي ذلك هذه النظرة الاجتماعية يصبح الاعتبار الرئيسي للعوامل الاجتماعية دون انحصاره في نطاق الأفكار القانونية التعاقدية، ومن مقتضى ذلك أن يراعى أن للأجر طابعا حيويا بالنسبة للعامل شبيه به المبالغ المخصصة للنفقة والتي يحوطها القانون بحماية خاصة ولابد من تحديد الأجر في عقد العمل، ونفيه في العقد يزيل

(88) ليس هناك ما يمنع من أن يكون الأجر ما لا غير النقود، وتنص على هذا الحل أي على إمكان اختلاف صور الأجر المادة 730 من العقود والالتزامات، فهي تقضي : بأن الأجر يجب أن يكون محددا أو قابلا للتحديد، ويمكن أن يقدر الأجر نصيبا في الأرباح أو المنتجات أو نسبة معينة في الإنتاج.

(89) لقد قرر إعلان حقوق الإنسان أن لكل عامل الحق في أن يحصل نظير عمله على مقابل عادل وكاف لحاجاته.

(90) مذكرات في «قانون العمل» للدكتور جميل الشرقاوي، غير مطبوعة...

عنه تكييف عقد العمل، ويصبح عقدا غير مسمى، موضوعه العمل بلا مقابل (91)...

فعدم الاتفاق على الأجر في عقد العمل لا يعني انتفاء هذا الأجر، إذ يفترض الاتفاق على الأجر، رغم عدم ذكره عند التعاقد (92)، كما يحدد الأجر طبقا لما تقضي به مدونة الالتزامات والعقود (93).

ولا بأس من أن نشير في الأخير إلى ملحقات الأجر، والتي تعتبر في قانون العمل جزءا من الأجر، ولذا تنطبق عليها نفس الأحكام التي تنطبق عليه... على أن هذه الملحقات في بعض صورها تصير كل الأجر الذي يحصل عليه العامل، ولا تصح تسميتها عندئذ بالملحقات لأنها تصير الأصل (94).

والأجور في النظام الاقتصادي هي الثمن الذي يدفع مقابل العمل بداخل حدود يعينها الإنتاج، ويقررها ـ إلى حد كبير ـ نوع التأثيرات نفسها التي تؤثر في غيرها من الأسعار، ويلعب، كما قلنا «العرض» و«الطلب» وقوة المساومة، والقوى التي تكمن خلف هذه العوامل، تلعب هذه جميعها دورا هاما...

فالأجر هو ما يتقاضاه الإنسان مقابل عمله، فهو مردود أو عائد هذا العمل الذي يعتبر رأسمال كما عند «ماركس» في كتابه : «العمل رأس المال»، إلا أن «اليهودي» مسبوق بالنظرية الإسلامية التي عبر عنها أبو زيد عبد الرحمن ابن خلدون في مقدمته (95) عندما أكد أن الكسب أي «العمل هو رأس مال» وقارن بين الكسب، وبين الرزق الذي هو استغلال بدون عمل.

فابن خلدون له نظر اقتصادي في مسألة الرزق والكسب، فعنده أن المكاسب تكون معاشا إن كانت بمقدار الضرورة والحاجة، ورياشا ومتمولا إن زادت على ذلك... والحاصل أو المقتنى إن عادت منفعته على العبد، وحصلت له ثمرته من إنفاقه في مصالحه وحاجاته سمي ذلك رزقا... قال ﷺ : «إنما لك من مالك، ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت...». وإن لم ينتفع به في شيء من مصالحه ولا حاجاته، فلا يسمى بالنسبة إلى المالك رزقا، والمتملك منه حينئذ بسعي العبد وقدرته يسمى كسبا، وهذا مثل التراث، فإنه يسمى بالنسبة إلى الهالك كسبا ولايسمى رزقا، إذ لم يحصل به منتفع، وبالنسبة إلى الوارثين متى انتفعوا به، يسمى رزقا.

هذه حقيقة الرزق عند أهل السنة، وقد اشترط المعتزلة في تسميته رزقا أن يكون بحيث يصح تملكه، وما لا يتملك عندهم لا يسمى رزقا، وأخرجوا الغصوبات والظالم والمومن، والكافر، ويختص برحمته وهدايته من يشاء».

والفرق بين قاعدة الأرزاق وبين قاعدة الإجارات، كلاهما بذل مال بإزاء المنافع من الغير... غير أن باب الأرزاق أدخل في باب الإحسان، وأبعد عن باب المعاوضة، وباب الإجارة، أبعد من باب المسامحة، وأدخل في باب المكايسة (96).

---

91) تنص المادة 723 من مدونة الالتزامات والعقود في تعريفها لعقد العمل : بجعل الأجر التزاما ضروريا على عاتق صاحب العمل».

92) تقضي المادة 732 من مدونة الالتزامات والعقود، بأن الاتفاق على الأجر يفترض دائما في الأحوال الآتية : 1 ـ إذا تعلق الأمر بخدمات أو أعمال لا تجري العادة بأدائها مجانا ـ 2 ـ إذا كان من سيقوم بهذه الأعمال يتخذها حرفة له. 3 ـ إذا تعلق الأمر بأعمال تجارية أو أعمال يمارس بها التاجر حرفته.

93) تقضي المادة : 733، بأنه : «عند عدم الاتفاق على مقدار الأجر تحدد المحكمة الأجر حسب العادات، وإذا وجدت تعريفة للأجر يفترض أن الطرفين احالا عليها.

94) لهذه الملحقات تسميات متعددة، فهي تشمل : 1 ـ البدلات، أي نفقات السفر لفائدة العمل. 2 ـ المنح كالشهر الثالث عشر. 3 ـ العلاوات، أي تلك المبالغ التي تدفع فوق الأجر، لغلاء المعيشة، أو علاوات الأقدمية. 4 ـ المشاركة في الربح التي تنص عليها المادة : 383 من ق.ع.ز، و730، من م.ع.ز، 5 ـ العمولة، الأجر الذي يدفع في صورة نسبة مائوية... والذي تقرر في نصوص التشريع الصادر عام 1937 في فرنسا وفي ق العربي م. 683 من، المصري وفي ق.م المغربي 730. 6 ـ الوهبة : مبلغ زهيد من المال من غير صاحب العمل، أي يدفع من العملاء الذين يتصل العامل في قيامه بالعمل.

95) في «المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع، وما يعرض في ذلك كله من الأحوال كالكسب هو قيمه الأعمال البشرية ص : 3/895.

96) كتاب الفروق» لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجي المشهور بالقرافي. ص : 3/ج : 3. ولمحمد بن الحسن بن واقد الشيباني الحنفي البغدادي (ت 189 هـ) كتاب : «الاكتساب، في الرزق المستطاب» («هدية العارفين» للبغدادي ص : 6/8).

وقد صحت عن رسول الله ﷺ أحاديث استعملت كلمة «أجرة» مقابل العمل حيث قال عليه السلام : «أنا خصيم من لم يؤد أجرة الأجير، قبل أن يجف عرقه» وقال : «من أكل أجرة الأجير حبط عمله ستين عاما».

فالأعمال من قبيل المتمولات، وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى هذا فقال : «ومن أشد الظلمات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الأعمال، وتسخير الرعايا بغير حق... وذلك أن الأعمال من قبيل المتمولات... لأن الرزق والكسب، إنما هو قيم أعمال أهل العمران، فإذن مساعيهم وأعمالهم كلها متمولات، ومكاسب لهم، بل لا مكاسب لهم سواها، فإن الرعية المتعلمين في العمارة، إنما معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم ذلك، فإذا كلفوا العمل في غير شأنهم، واتخذوا سخريا في معاشهم بطل كسبهم، واغتصبوا قيمة عملهم ذلك، وهو متمولهم، فدخل عليهم الضرر، وذهب لهم حظ كبير من معاشهم، بل هو معاشهم بالجملة...» (97).

وقد أكد «آدم سميث» (98) الذي قام بتطوير النظريات الاقتصادية أهمية العمل معارضا في ذلك النظرية التجارية القديمة، ونظريات الاقتصاديين الزراعيين الذين يرون أن «الأرض» وحدها هي مصدر القيمة...

فلقد كان إهمال العمل قديما، ويمكننا تتبعه حتى نظرية أفلاطون وتمييزه بين اليد والعقل، أي النص على أن التفكير هو أرقى نشاط للإنسان، في حين يفتقر العمل اليدوي إلى الكرامة، ولا يقوم به سوى أفراد من طبقات دنيا ذوي قدرات ضعيفة، ويرجع هذا المفهوم الأفلاطوني إلى النظام الاجتماعي للعصور القديمة عند ما كان العمل مقصورا إلى حد كبير على العبيد، وعبر أرسطو عن اتجاه قديم مميز عندما أنكر على العبيد الخصائص العقلانية للإنسان، ومن ثم اعتبرهم من المخلوقات الوضيعة... واستمرت هذه الثنائية الأفلاطونية للعقل واليد عبر العصور الوسطى حتى على الرغم من أن الرهبان كانوا يؤدون العمل اليدوي بارتياح كوسيلة لتمجيد الله... ويقول : «ملفين كرانز برج» (99) : إننا لندين بالفضل في كثير من التقدم التكنولوجي لهؤلاء الإخوة المتوحدين الذين اعتقدوا في أن العمل عبادة» (100).

يخلص مما سبق أن الأجر يوزن بالعمل في مداه وكمه وقيمته، وبهذا وضع الإسلام مبدأ الحد الحيوي الأدنى الذي يضمن للعامل الحياة، لأن مجهوده يجب أن يوازي في قيمته الدنيا ما يكفل للعامل العيش مع أهله وذويه (101)..

ومعلوم في دنيا الاقتصاد، أن للأجور باعتبار الربح الفعلي للعامل أثرا كبيرا، في رخاء هذا الأخير، إلا أن للأجور معاني وأشكالا أخرى كثيرة شائعة الاستعمال، فالأجر قد يحتسب بالساعة أو اليوم، أو بحساب القطعة، وقد يدفع كل أسبوع أو كل نصف أسبوع، أو مشاهرة، كما أن الأجور تتأثر فضلا عن ذلك باعتبارات كثيرة أخرى غير الاعتبارات الموجودة في النظريات العامة الاقتصادية...

ويحصل السواد الأعظم من العاملين بأجور، على أن أجورهم على أساس الوقت المخصص للعمل، أما العمال اليدويون، فتدفع لهم أجورهم عادة بالساعة، وأحيانا باليوم، وأما العمال الذين يعملون في الوظائف الكتابية، أو وظائف الملاحظين في المؤسسات الخاصة، فيحصلون على أجورهم

97) ص : 3/895، ابن خلدون.

98) مفكر اسكتلندي عرف بأنه : أبو المذهب الاقتصادي الرأسمالي له كتاب اسمه : «ثروة الشعوب» نشرة في عام 1776، الذي أعلنت أمريكا استقلالها فيه... كان «آدم سميث» رجلا متفائلا يومن بإمكان تحسين أحوال المجتمع الإنساني إذا أمكن تحريره من القيود التي فرضتها عليه الحكومات الاستبدادية، وكان مذهبه فيما يتعلق بالأجر يبشر بأمل عظيم مما كان يرتجى من المذهب السائد وقتذاك، أو النظرية التي وضعها «مالتوس» فيما بعد.

99) في كتابه : «التكنولوجيا والثقافة» ص : 4 - ترجمة : مهندس من محمد عبد المجيد نصار مراجعة. د. مهندس أنور محمود عبد الواحد.

100) توجد عدة آثار قرآنية، وأحاديث نبوية تحض على العمل، وتكرم الأجير، أفردت لها كتب وأحاديث ودراسات تشهد للإسلام بالسبق والفَلَج في تكريم العمل.

101) من فرط اهتمام الوزارة وعنايتها بشأن أجور الموظفين الدينيين، والرعاية لمصالحهم، وتحسين وضعيتهم المادية، فقد قررت رفع أجورهم قريبا بإذن الله تلبية لرغبة أمير المومنين الساهر الأمين على حماية الدين، والذب عن حماته وحرّاسه..

إما أسبوعيا وإما شهريا، أو كل أسبوعين، أو كل نصف شهر أو ـ أحيانا ـ كل عام...

ويعتبر تقدير المرتب على أساس سنوي في الأمور المألوفة في الوظائف الحكومية، وإن كان الدافع يتم على فترات أقصر، كما هي الحال في الصناعة، والغرض من إطالة أمد فترات دفع المرتبات هو، فيما يبدو، تامين حصول العمال على دخل ثابت، وإن كان استمرار العمل، هو في الواقع، العامل الحاسم في هذا الشأن...

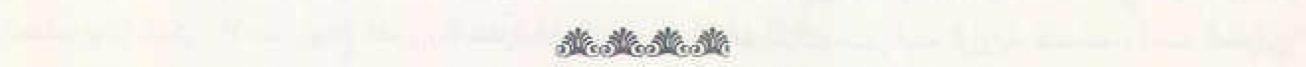
وكان قياس الوقت سببا في قيام منازعات بين العمال وأصحاب الأعمال في كثير من الأحيان، ذلك أن الوسيلة التي كانت سائدة في بادئ الأمر هو أن يقدر الأجر الذي يتقاضاه العامل على أساس الوقت الذي أنفق فعلا في إدارة الآلة أو غيرها من العمليات.

والأجير هو كل من يعمل عملا في هيئة ما، أو دولة ما، لأنه يأخذ أجرة عمله من خزينة الدولة التي هي للأمة في الحقيقة، ذلك أن الأجير هو الخادم أو العامل الذي يعمل بأجرة.

وإن كل متولي عملا كيفما كان نوعه في أجهزة الدولة هو أجير عند الأمة، يأخذ أجرة عمله من خزينة الدولة...

لقد دخل أبو مسلم عبد الله بن ثوب الخولاني التابعي الناسك العابد الشهير على معاوية بن أبي سفيان، فقال : «السلام عليك أيها الأجير، فقالوا : قل : السلام عليك أيها الأمير !! فقال السلام عليك أيها الأجير، فقالوا : قل : أيها الأمير... فقال معاوية رضي الله عنه : دعوا أبا مسلم، فإنه أعلم بما يقول.. فقال : إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها، فإن أنت هنأت جرباها (102)، وداويت مرضاها، وحبست أولادها على أخراها، وفاك سيدها أجرك، وإن أنت لم تهنأ جرباها، ولم تداو مرْضاها، ولم تحبس أولادها على أخراها عاقبك سيدها (103).

هذا المعنى هو الذي أخذه شاعر الفلاسفة، وفيلسوف الشعراء أبو العلاء المعري الذي راقته، ولاشك، هذه التحية من شخص إلى ملك هو سيدنا معاوية، فَرَاقه المغزى الدقيق في التحية التي لقبه فيها بأنه أجير، فنظمها قطعة شعرية، ذكرها في لزومياته، وصاغها قطعة رائعة في شعره المطبوع...



102) هنأت جرباها : عالجت جربها بالقطران.

103) «السياسة الشرعية، في إصلاح الراعي والرعية ص : 24.

من شعراء الزوايا بالمغرب:

أبو عبد الله محمد المرابط الدلائي

للأستاذ عبد الجواد السقاط

I تقديم :

عرف العصر السعدي ـ بصفة خاصة ـ ظاهرة الزوايا التي انتشرت في البلاد المغربية انتشارا واسعا، والتي لعبت أدوارا مختلفة على مستويات متعددة، من بينها المستوى الأدبي، حيث تطلعنا المصادر القديمة على مجموعة من الأدباء الذين احتضنتهم هذه الزوايا، وكانت لهم مساهمة فعالة سواء على صعيد الشعر أو صعيد النثر.

ويهمنا أن نتعرض في هذا البحث إلى أحد رجالات الزاوية الدلائية، وواحد من شعرائها الكبار الذين طعموا المد الإبداعي في بلادنا بإنتاج ثر غزير، هو أبو عبد الله محمد المرابط الدلائي، حفيد أبي بكر بن سعيد الصنهاجي مؤسس الزاوية الدلائية التي غطت شهرتها الآفاق، وشدت إليها رحال العلماء ورجال الفكر والأدب، في وقت كادت تعصف بهذا الفكر والأدب رياح الفتن والاضطرابات التي عرفها المغرب في الفترة الانتقالية ما بين أواخر العهد السعدي، وأوائل العهد العلوي الزاهر.

ويرجع تاريخ اهتمامي بشعر المرابط هذا، إلى ما يربو على سنوات عشر، عملت خلالها على البحث عن هذا الشعر في مظانه ومصادره، حتى تمكنت بعون الله وتوفيقه من جمع ما تفرق منه في تلك المصادر المختلفة، وصنع ديوان للشاعر ركزت فيه على تحقيق نصوصه وترتيبها وشرحها.

وإذا كانت هذا الديوان المصنوع لم تتح له بعد فرصة الطبع والنشر، فإني أرى، توخيا للإفادة والإطلاع، أن أعرف بهذا الشعر، وقبل ذلك بمصادره ومظانه، في انتظار أن تسعف الظروف بنشر هذا الديوان الذي يناهز مجموعه ألفا ومائتين وثمانين بيتا، والذي سيملأ حيزه في المكتبة المغربية خاصة، والمكتبة العربية عامة.

II التعريف بالشاعر :

وقد ولد شاعرنا في رحاب الزاوية الدلائية سنة 1021 هـ، وبها نشأ وتعلم، حيث تتلمذ على نخبة من أعلام الثقافة آنذاك، منهم أبناء الزاوية كأعمامه : أحمد الحارثي[1] ومحمد الشرقي[2] وعبد الكريم[3] والخديم[4] وإخوته : عبد الخالق[5] وعمر[6] والمناوي[7]، ومنهم الوافدون عليها أمثال : الشيخ أحمد بن عمران الفاسي[8]، وأبي حامد محمد العربي الفاسي[9].

1) انظر مصادر ترجمته في كتاب الشعر الدلائي ص 336.
2) نفس المرجع ص 357.
3) نفس المرجع ص 340.
4) نفس المرجع ص 354.
5) انظر مصادر ترجمته في كتاب الشعر الدلائي ص 338.
6) نفس المرجع ص 341.
7) نفس المرجع ص 360.
8) نفس المرجع ص 51، الهامش رقم 38.
9) نفس المرجع ص 367.

وقد استوى المرابط عالما جليلا، ومثقفا شهيرا، مما أهله ليتولى منصب التدريس بالزاوية زمانا، يرشد الطلبة بعلمه، ويتتلمذ عليه نفر من رجال الفكر والعلم، إلى جانب منصب الخطابة والإمامة بالمسجد الأعظم بالدلاء، وهو المنصب الذي ظل يشغله إلى حين تخريب الزاوية.

وعندما اتجه محمد المرابط إلى الديار المقدسة للقيام بمناسك الحج، عرج في طريق عودته على البلاد المصرية، وكانت شهرته قد سبقته إليها، فكان محط تكريم علمائها وأدبائها، ومحور أمداح كثيرة سالت على ألسنتهم في التنويه بعلمه وجلالة قدره، من ذلك قول ابن أبي السرور[10] يمدحه :

شمس الهدى من أمه نال الأرب
فرع الكرام ذوي المكارم والحسب
كنز جواهره العلوم، ومن يلذ
بجنابه نال المآرب والطلب
برا وبحرا من أتاه قائلا
حدث عن البحر المحيط ولا عجب
الله يبقيه على طول المدى
في طول عمر والإله له وهب[11]

وهو نفس التنويه الذي صدر عن معاصريه من المغاربة، سواء كانوا من أفراد أسرته أو من غيرهم. فهذا أخوه عمر ينوه به عندما ألف كتابه المسمى بالبركة البكرية في الخطب الوعظية[12] فيقول :

يا أيها الحبر الإمام الأوحد
الفاضل الصدر الهمام الأمجد
أعطيت من فن البلاغة معجزا
بهر الماجل والرسائل تشهد

هذا هو السكر الحلال من انتشى
بسماعه طربا يكاد يعربد[13]

وهذا أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي[14] يقول فيه بنفس المناسبة :

إمام طبق الآفاق علما
فقاص يستنير به ودان
كغيث وابل من بعد يأس
وإمحال تهاطل في مكان
فأحياه بأزهار حياه
وعمم من عمائمه الحسان[15]

ومن خلال هذه الأشعار وغيرها، يتضح أن محمدا المرابط قد بلغ من العلم شأوا بعيدا، دلت عليه مؤلفاته العديدة وأشعاره الغزيرة. ولنا في المصادر التي تعرضت للشاعر ما يؤكد ذلك. فقد نعته القادري بأنه «أحد الأعلام والبلغاء في الكلام»[16]، وأنه «خاتمة النحاة وعلامة المحققين الأعلام»[17]، كما أكد الحوات أنه كان «بارع الإنشاء في النثر والنظم، ضاربا في فنون الأدب بسهم وأي سهم، يجيد الإنشاء، ويتصرف فيه كيف شاء، له أشعار أدبية وأمداح نبوية، ومقطعات في النحو كثيرة، وأشعار في التغزل أثيرة، وله مكاتبات وأسجاع تستحسنها الطباع، وكلامه في أعلى البلاغة مشهور، ما بين منظوم ومنثور»[18]. ولم يفت الكتاني أن يذهب هو الآخر إلى أنه كان «أحد الأعلام الأكابر والفصحاء البلغاء المشاهير، قد أخذ من كل العلوم بأوفر نصيب، ورمى في كل محمدة بسهم مصيب، له العظيم التام لأهل البيت، ويسعى في مرضاة الحي منهم والميت، وله في مدحهم أنظام وبليغ كلام»[19]. وقد سبقهم اليوسي جميعا ليؤكد أن للشاعر المرابط «القلم البارع في الإنشاء نظما ونثرا»[20].

10) هو محمد بن محمد أبي السرور زين العابدين البكري، عالم مصري مبرز (1005 هـ-1087 هـ) انظره في خلاصة الأثر ج 3 ص 465، والأعلام ج 7 ص 293، ولعل صاحب البدور الضاوية كان مخطئا عندما سماه أبا السرور الميداني.
11) البدور الضاوية ص 282.
12) الكتاب محفوظ بخزانة الأستاذ حسن جلاب بمراكش.
13) البدور الضاوية ص 266.
14) انظر مصادر ترجمته في كتاب عبقرية اليوسي.
15) ديوان اليوسي ص 141.
16) التقاط الدرر ص 208.
17) نفس المصدر ص 207.
18) البدور الضاوية ص 287.
19) سلوة الأنفاس ج 2 ص 91.
20) فهرسة اليوسي ص 115.

ولعلنا نكتفي بالإشارة إلى بعض أعمال المرابط في مجال النثر ـ قبل أن نتناول شعره ـ ككتاب **المعارج المرتقاة إلى معاني الورقات**[21] وهو شرح لورقات إمام الحرمين عبد الملك الجويني في أصول الفقه، **وفتح الطيف على البسط والتعريف**[22] وهو شرح لأرجوزة المكودي المسماة بالبسط والتعريف في نظم ما جل من علم التصريف، **ونتائج التحصيل في شرح التسهيل**[23] وهو شرح ضاف لكتاب تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك في النحو، وهو الكتاب الذي تقاطرت على الشاعر أمداح كثيرة بمناسبة وضعه له، أقتصر منها على أبيات قالها فيه ابنه محمد[24] :

يا طالعا يرقى المراقي دائما
يهنيك أنك قزت بالتفضيل
مذ بان نجمكم المبارك بشرت
هذي الورى بنتائج التحصيل
ما زال منتظرا لديهم غدوة
وعشية مثل انتظار النيل
حتى تبدوا سره متروحا
لحظوه بالتعظيم والتبجيل
رصعت فيه جواهرا ويواقتا
أبديت فيه محاسن التسهيل
فاحمد لأن أولاك ربك فضله
متيسرا إذ من بالتكميل[25]

ولا بأس من الإشارة إلى أن للمرابط، علاوة على ما تقدم ـ مجموعة من التقاييد والخطب والرسائل والإجازات، يضيق مقام البحث عن الوقوف عندها جميعا[26].

ويظهر أن نشاط الشاعر العلمي والإبداعي لم يكن مقصورا على بيئته الأولى (الزاوية الدلائية) بل إنه ظل يواصل نشاطه ذاك في مدينة فاس التي استقر بها بعدما خربت الزاوية الدلائية، حيث «احتفى به أهلها وأعيانها، وصدروه للتدريس فيها إلى أن فارق الحياة بها سنة 1089 هـ وبها دفن»[27].

III مصادر شعره :

يهمنا في هذا البحث، ونحن نتناول المرابط من وجهته الشعرية خصوصا، أن نتعرف إلى المصادر التي يمكن أن نستقي منها شعره، والتي تمدنا بإشارات متعددة توحي بأن المرابط كان شاعرا مكثرا، وأن مادته الشعرية كانت غزيرة في الأغراض والفنون المختلفة.

فمن هذه الإشارات مثلا ما علق به الحوات على ما كان المرابط ينظمه في موضوع النحو إذ قال : «وله في هذا المعنى كثير، وإنما ألمحنا بما وقفنا على ما لم تتعب في البحث عنه، وإلا فالذي له في هذا المعنى على ما ذكروا لا ينحصر»[28].

أضف إلى هذا ما رواه الحوات عن أبيه محمد من أن محمد بن أبي بكر زعيم الزاوية الدلائية قد «مدح يوما ببيتين من طرف محمد بن ناصر الدرعي[29] هما :

له يدان : يد للظلم مقمعة
ويد جود تفيد الناس أموالا
كأنما هاتف الحق يخاطبه
أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا

فتجاذبت أيدي علماء الزاوية وأدبائها إلى البيتين، وهم كل قادر بالجواب، وأجاب ولده الشيخ الإمام المفلق، معجزة المغرب والمشرق، أبو عبد الله سيدي محمد المرابط، بأبيات لم أستحضرها الآن»[30].

21) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 276.
22) طبع على الحجر بفاس سنة 1316 هـ.
23) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.
24) انظر مصادر ترجمته في كتاب الشعر الدلائي ص 352.
25) البدور الضاوية، النسخة رقم ك 294 ص 549.
26) للتوسع عد إلى كتاب «أبو عبد الله محمد المرابط الدلائي، حياته وآثاره».

27) الشعر الدلائي ص 359.
28) البدور الضاوية ص 334.
29) هو محمد بن محمد بن أحمد بن ناصر الدرعي (1011 هـ ـ 1085 هـ) صاحب الزاوية الناصرية بتامكروت انظره في الصفوة ص 173 والزاوية الدلائية ص 57 ـ 59، والسلوك ج 1 ص 264 والتقاط الدرر ص 196.
30) البدور الضاوية ص 103 نقلا عن كتاب تحفة المعاصر لمحمد الحوات.

ومن هذه الإشارات أيضا ما ذكره الكتاني في معرض حديثه عن الشاعر أثناء رحلته إلى الديار المقدسة حيث قال : «وقد لقي في حجته هذه جماعة من الأعيان، والصلحاء ذوي العرفان، وأخذ عنهم وانتفع بهم... وله منهم إجازات كما ذكر ذلك في ديوانه في الأدب»[31].

إلا أننا بالرغم من هذه الإشارات لا نكاد نجد ما يعكس دلالتها الحقيقية، ولا نعثر من شعره - الذي وصف بالكثرة والغزارة - إلا على ما هو دون هذا الحكم، مما يميل معه الاحتمال إلى ضياع بعض شعر الشاعر، كما ضاع غير قليل من شعر غيره من شعراء الزاوية الدلائية، وسواهم من الشعراء المغاربة في العصور المتعاقبة.

وعموما يمكننا أن نستعرض فيما يلي جملة من المصادر التي احتفظت لنا بما قاوم الضياع من شعر المرابط، وهي :

1 - ديوان محمد المرابط :

يعتبر هذا الديوان من بين المصادر الهامة التي أسعفتنا بجزء من شعر الشاعر، وإن كان هذا الجزء لا يعدو موضوع الأمداح النبوية. فقد جمع هذا الديوان اثنتي عشرة قصيدة في مدح الرسول ﷺ، والثناء على آله الكرام، والتشوق إلى الديار المقدسة الفاضلة. على أن واحدة من هذه القصائد مبتورة، حيث لم يثبت ناسخ الديوان منها إلا المقدمة، وهي الجزء الخاص بالغزل، ومطلعه :

أزف الرحيل فأسر دمعك مطلق
هذي الأحبة أتهموك وأعرقوا[32]

ومن قصائد الديوان كذلك، واحدة أثبتها الناسخ مدرجة ضمن رسالة نثرية للشاعر، وجهها إلى الرسول الكريم قبل أن يتمكن من أداء مناسك الحج وزيارة قبره الطاهر[33]، ومطلع القصيدة :

يا خير دار الرسل يا مثوى المنى
قلبي لأجلك ثائر الحركات[34]

ويوجد هذا الديوان مرفقا بديوان ابنه محمد الذي هو خاص كذلك بالأمداح النبوية. وقد كتب الديوانان معا بنفس الخط، مما يدل على أن ناسخهما واحد، وهو خط مغربي مقبول، ولكنه يكتب الأبيات دون الفصل بين صدورها وأعجازها، مع شكل بعض الحروف بين الحين والحين.

وقد كتب على الصفحة الأولى منه : «بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم، وللعالم العلامة الصدر المتفنن سيبويه الزمان وخاتمة المحققين الأعيان، المتبرك به سيدي أبي عبد الله محمد الملقب بالمرابط بن محمد بن الولي الصالح سيدي أبي بكر الدلائي نفعنا الله بهم آمين».

وواضح أن هذا الديوان قد نسخ بعد وفاة الشاعر، بدليل ما يفهم من تقديم الناسخ لبعض القصائد كقوله : «وله أيضا أسكنه الله جنته»، أو قوله : «وله أيضا رحمه الله».

ومع أننا نجهل تاريخ نسخ هذا الديوان، إلا أننا لا نستبعد أن يكون أسبق مصدر من مصادر شعر محمد المرابط، ولا سيما أن من المصادر الباقية من يأخذ عنه.

ويقع ديوان المرابط في الثلاث والأربعين صفحة الأولى، بينما يقع ديوان الابن بين الصفحتين 43 و188، وهما محفوظان بقسم الوثائق بالخزانة العامة بالرباط، ومرتبان فيها تحت رقم د 3644.

2 - البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية : لسليمان الحوات

لعل هذا الكتاب يكتسي أهمية كبرى بالنسبة لشعر محمد المرابط، وذلك لأن مؤلفه قد استعرض فيه جملة غير قليلة من هذا الشعر، سواء منه ما تعلق بالأمداح النبوية، أو ما تعلق بغيرها من المواضيع والأغراض. وقد تخللت الثلاث

31) سلوة الأنفاس ج 2 ص 91.
32) ديوان محمد المرابط ص 11.
33) انظر هذه الرسالة في ديوان محمد المرابط من ص 38 إلى ص 43.
34) نفس المصدر ص 39.

والستين صفحة التي خصصها الحوات لترجمته خمس وثلاثون ما بين نتفة وقصيدة، يمكن تصنيفها كالتالي :

خمس عشرة في المديح النبوي.

ثلاث في التشوق إلى الديار المقدسة والثناء على المدينة المنورة.

خمس في مدح الرجال (منها اثنتان في مدح الولي عبد السلام ابن مشيش[35]).

ثمان في الغزل.

ثلاث في مجال النحو.

وواحدة في الحنين إلى أرض الدلاء، علاوة على بعض الأبيات المتفرقة التي كان الشاعر يطعم بها أحيانا بعض رسائله ومنثوراته.

وكتاب البدور الضاوية الذي يترجم لرجالات الزاوية الدلائية بصفة شاملة، كتاب ضخم من الحجم الكبير، إذ يقع في 516 صفحة، أثبتت في الصفحات الإحدى عشرة الأولى منها منظومة حدائق الأزهار الندية في التعريف بأهل الزاوية الدلائية البكرية لمحمد بن أبي بكر اليازغي، والتي مطلعها :

حمـــــدا لمن أدلى إليـــــه الكـــل

دفـــــاءه فعم منـــــــه الفضــــل[36]

وقد كان الفراغ من نسخه بخط محمد بن المهدي بن أبي جيدة القريطي في مهل شعبان المبارك عام 1231 هـ، كما جاء في الصفحة الأخيرة منه، وهو خط مغربي غير مشكول، تتخلله بعض الهفوات بين الحين والآخر.

والكتاب محفوظ بقسم الوثائق بالخزانة العامة بالرباط، ومرتب فيها تحت رقم د 261.

وتوجد للكتاب نسخة ثانية، تقع في 557 صفحة من الحجم المتوسط، ولكنها تختلف عن النسخة الأولى (د 261) بكونها أولا تخلو من منظومة اليازغي، وثانيا بكون الناسخ - ولم يذكر اسمه - أثبت في الثلاثين صفحة الأخيرة منها نماذج من الأمداح التي قيلت في محمد المرابط، نثرا أو شعرا، سواء من طرف الأدباء المغاربة أو المشارقة، وخاصة عندما وضع المرابط كتابه المسمى بنتائج التحصيل، علاوة على أبيات أثبتها الناسخ لأحمد بن عبد الله بن محمد الحاج الدلائي[37] في التشوق إلى أرض الدلاء، وهو في تلمسان بعد النكبة التي حلت بالزاوية الدلائية سنة 1079 هـ، ومطلعها :

تـــاشـــدتـــك اللـــــه يــــا نسيم

مـــا فعلت بعــــدنــــا الرســـوم[38]

وكذلك منظومة لأبي عبد الله محمد بن الطيب بن عبد السلام القادري[39] وعنوانها : الزواهر الفلكية والجواهر الصدفية، وهي في التعريف بالشيخين الدلائيين محمد بن أحمد بن المسناوي[40] وولد عمه محمد بن محمد بن عبد الرحمن[41] ومطلعها :

القــول في إمــــامنــــا المســــناوي

حجـــــة كـــل قــــارئ وراوي[42]

وتاريخ الفراغ من نسخ هذه النسخة متأخر عن تاريخ النسخة السابقة (د 261)، حيث كان هذا الفراغ في ثاني جمادى الأولى عام 1294 هـ كما هو مثبت في الصفحة 526 منها. وهي نسخة مكتوبة بخط مغربي غير مشكول، ولكنها مليئة بالأخطاء والتحريفات، وهي محفوظة بقسم الوثائق بالخزانة العامة بالرباط، ومرتبة فيها تحت رقم ك 294.

---

35) من كبار المتصوفين المغاربة، وهو صاحب الصلاة المشيشية التي اشتهرت بين أوساط الصوفية وتناولها الشارحون من المشرق والمغرب، وهو إلى جانب هذا شيخ أبي الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية المشهورة، انظره في كتاب : مناقب الشيخ عبد السلام بن مشيش.

36) البدور الضاوية رقم د 261 ص 1.

37) انظر مصادر ترجمته في كتاب الشعر الدلائي ص 331.

38) البدور الضاوية رقم ك 294 ص 553.

39) من مؤرخي القرن الثاني عشر الهجري، انظره في مقدمة تحقيق كتابه التقاط الدرر.

40) انظر مصادر ترجمته في كتاب الشعر الدلائي ص 344.

41) نفس المرجع ص 346.

42) البدور الضاوية رقم ك 294 ص 553.

3 - كراسة من ديوان أحمد الحارثي : لمجهول

هذا الكتاب عبارة عن منتخبات شعرية لمجموعة من الشعراء الدلائيين، سواء منهم أبناء الزاوية كمحمد المرابط وعمه أحمد الحارثي، أو الوافدين عليها أمثال محمد المكلاتي[43] والعربي بن يوسف الفاسي، وأحمد الدغوغي[44].

فقد أثبت جامعه - وهو مجهول - ثلاث عشرة قصيدة أو نتفة لمحمد المرابط، وثلاثا لأحمد الحارثي بين مدح وغزل وطبيعة، وواحدة لمحمد المكلاتي في مدح والد محمد المرابط محمد بن أبي بكر الدلائي، واثنتين للعربي ابن يوسف الفاسي في نفس الممدوح، وثلاثا لأحمد الدغوغي في الممدوح عينه، وإن كانت الثالثة منها مبتورة.

وهذا الكتاب الذي يحسن أن يطلق عليه اسم مجموع في مدح محمد بن أبي بكر الدلائي، يقع في ست عشرة صفحة من الحجم المتوسط، ويعتبر مصدرا مهما لشعر المرابط خاصة، والشعر الدلائي عامة، ولا سيما أن أغلبه يدور حول بعض الأمداح التي كان شعراء الفترة يتوجهون بها إلى زعيم الزاوية الدلائية محمد بن أبي بكر. ويبدو هذا المصدر مبتور الأول والآخر، حيث إن أوله عبارة عن تتمة لرسالة نثرية لعلها لشاعرنا كان قد بعث بها إلى أبي مهدي ابن عيسى بن عبد الرحمن أحد الأعلام المعاصرين له، كما أن آخره بداية لقصيدة لأبي العباس أحمد الدغوغي.

وإذا عدنا إلى ما أثبته المجموع من قصائد ونتف للشاعر المرابط، وجدناها لا تخرج عن نطاق المدح والغزل، وإن كان نصيب الغزل أفر من المديح، وهي قصائد - كبقية أشعار المجموع - مكتوبة بخط مغربي رديء وغير مشكول، لا يخلو من أخطاء، كما أن بعض القصائد أثبتت على طرر بعض الصفحات.

ويوجد هذا المجموع محفوظا بقسم الوثائق بالخزانة العامة بالرباط، ومرتبا فيها تحت رقم ك 3312.

4 - الدر المنضد الفاخر، فيما لأبناء مولانا علي الشريف من المحاسن والمفاخر : للكردودي

لقد أثبت الكردودي في هذا الكتاب للشاعر محمد المرابط بيتين في مدح العربي بن يوسف الفاسي، وقطعة في مدح الشيخ محمد بن أحمد ميارة[45]، وأخرى يستفسر فيها عمه الحارثي حول قضية نحوية. وبذلك يكون هذا الكتاب قد أطلعنا على جزء يسير جدا من شعر الشاعر، كما فعل مع بقية شعراء الزاوية الدلائية الذين عرف بهم المؤلف.

والكتاب من خط نجل مؤلفه الكردودي، كما جاء في الصفحة الأخيرة منه : «ووافق الفراغ من نسخه على يد أفقر العبيد إلى مولاه، الراجي عفو ربه في سره ونجواه، نجل مؤلفه علال بن محمد بن عبد القادر الكلالي الحسني عرف بالكردودي...» وهو خط مغربي متوسط وغير مشكول.

والكتاب من الحجم المتوسط، ويوجد في مجموع من ورقة 87 إلى ورقة 230، وهو محفوظ بقسم الوثائق بالخزانة العامة بالرباط، ومرتب فيها تحت رقم د 1584.

5 - مطلع الإشراق في نسب الشرفاء الواردين من العراق : لعبد السلام بن الطيب القادري

لم يثبت هذا المصدر من شعر محمد المرابط سوى قصيدة واحدة قالها في مدح آل الرسول ﷺ، ومطلعها :

آل النبي معاشري أجري ... ذكراهم سرا وفي الجهر[46]

43) انظر مصادر ترجمته في كتاب الشعر الدلائي ص 75، الهامش رقم 132.

44) نفس المرجع ص 362.

45) انظر مصادر ترجمته في كتاب الشعر الدلائي ص 132، الهامش رقم 86.

46) مطلع الإشراق ص 169.

وقداستشهد بها ابنه محمد بن محمد المرابط على وجوب حب آل البيت النبوي الكريم في معرض تقريضه لكتاب مطلع الإشراق.

وجدير بالتوضيح أن هذا الكتاب قد ذيل بمجموعة من الكتابات التي أبدعها بعض الأدباء والعلماء المغاربة في التنويه بتصنيف مطلع الإشراق الذي أحاط بالنسب الشريف، ورتبه ـ كما يقول الطيب بن محمد بن عبد القادر الفاسي ـ ترتيبا تستعذبه الأسماع والأذواق[47].

والكتاب يقع في مجموع بين الصفحتين 103 و148، بينما تقع الكتابات التنويهية التي ذيل بها الكتاب بين صفحتي 149 و181، وقد وقع الفراغ من نسخه في الثامن عشر من رمضان عام 1284 هـ، وهو مكتوب بخط مغربي متوسط غير مشكول، كما أنه محفوظ بقسم الوثائق بالخزانة العامة بالرباط، ومرتب فيها تحت رقم ك 1234.

6 ـ نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني : لمحمد بن الطيب القادري

أورد صاحب النشر في الجزء الأول منه قطعة شعرية لمحمد المرابط كان قد خاطب بها عمه أحمد الحارثي في موضوع النحو مطلعها :

أيا بحر هذا العصر علما ومن به
تبسم ثغر النحو بعد عبوس[48]

كما أورد له ـ خطأ ـ أبياتا في موضوع الوعظ والإرشاد، والغالب أنها ليست له، إذ أثبتها الحوات لشاعر دلائي آخر هو الشرقي بن أبي بكر، ومنها :

لا تفاخر بما منحت من اليـ
ـسر ولا تزدري به الإخوانا[49]

والكتاب ضخم، يقع في جزأين، وبخط مغربي مقبول وغير مشكول، وهو محفوظ بقسم الوثائق بالخزانة العامة بالرباط، ومرتب فيها تحت رقم ك 2253.

47) نفس المصدر ص 156.

48) نشر المثاني ج 1 ورقة 138.

49) نفس المصدر والجزء والورقة.

50) انظر هذا المجموع ص 514.

وقد تم طبعه أخيرا بتحقيق كل من الدكتور محمد حجي والأستاذ أحمد التوفيق.

7 ـ المباحث الإنشائية في الجملة الخبرية والإنشائية : لمحمد المرابط

هذا الكتاب من تأليف الشاعر محمد المرابط، وهو عبارة عن صفحات قليلة أجاب بها الشاعر عن سؤال تقدم به إليه أحد علماء العصر في موضوع الجملة الخبرية والإنشائية وفي هذه الصفحات وردت أبيات للشاعر نوه فيها بهذا السائل في مستهل الجواب، وهي التي مطلعها :

راقت بك الأيام بعد تناس
إذ حيث صرت فخار كل الناس[50]

وهذه الصفحات تقع في مجموع من ص 514 إلى ص 540. والمجموع محفوظ بخزانة الأستاذ الجليل السيد محمد المنوني الذي تفضل مشكورا فأطلعني عليه.

8 ـ مجموع آخر وردت فيه الأبيات التي أجاب بها محمد المرابط الأديب البهلول[51] حول إعراب «كائنا من كان»، ومطلع الجواب :

يا إماما حوى المحاسن واقتا
د المحامد وارتدى العرفانا[52]

والمجموع كذلك في حوزة الأستاذ المنوني الذي أطلعني عليه مشكورا.

9 ـ التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار أعيان المائة الحادية والثانية عشر : لمحمد بن الطيب القادري

أورد محمد بن الطيب القادري في هذا الكتاب أبياتا لمحمد المرابط يخاطب فيها عمه أحمد الحارثي، وهي أبيات أثبتت في طرة نسخة واحدة من نسخ هذا الكتاب،

51) هو البهلول اليوعصالي، من شعراء النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري وأوائل القرن الثاني عشر.

52) وردت الأبيات كذلك في البدور الضاوية ص 334.

هي نسخة الخزانة الملكية التي تحمل رقم 2/112، والتي تقع في 291 صفحة من نسخ عبد السلام بن أحمد الفاسي، بخط مغربي متوسط، إلا أنها تخلو من تاريخ النسخ.

وقد حقق هذا الكتاب أخيرا من قبل الأستاذ هاشم العلوي القاسمي، ولكنه لم يثبت هذه الأبيات، واكتفى بالإشارة إلى وجودها في إحدى طرر النسخة المذكورة[53].

وإذا كانت هذه المصادر تعتبر النواة الحقيقية لشعر محمد المرابط، فلا شك أن بعضها كان المصدر الذي استقى منه بعض الدارسين المحدثين عندما تعرضوا للشاعر، أمثال الدكتور محمد حجي في كتابه «الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي»، أو الأستاذ حسن جلاب في كتابه «أبو عبد الله محمد المرابط الدلائي»، وغيرهما، ولذلك لم أستعرض هذه الدراسات المحدثة كمصادر.

IV شعره :

لعلنا بعد هذه الجولة بين مصادر شعر الشاعر، نعود إلى الوقوف قليلا عند هذا الشعر الذي تميز بغزارة مادته وتنوع موضوعاته، تلك الموضوعات التي كان بعضها ذاتيا كالغزل والحنين والمساجلات المختلفة، بينما كان بعضها الآخر صادرا عن الإطار العام للزاوية الدلائية كشعر التصوف والأمداح النبوية وما إليهما.

وإذا تساءلنا عن المؤهلات التي صنعت هذه الشخصية الشاعرة عنده، وجدناها متعددة، ربما كان من أبرزها انتماؤه إلى أسرة مارس أغلب أفرادها الشعر، علاوة على الجو الثقافي والأدبي الذي تنفس فيه داخل رحاب هذه الزاوية التي كانت تستقطب شعراء الفترة، وتوفر لهم مناخا فنيا يتطارحون فيه الشعر، ويتوسلون به للتعبير عن هواجسهم وهمومهم المختلفة.

ويتميز شعر أبي عبد الله المرابط بسمات واضحة لعل أظهرها ارتباطه ببيئته وتفاعله معها، ذلك التفاعل الذي تجلى في إكثاره من الأمداح النبوية التي يمكن اعتبارها عند المرابط ومن عاصروه مظهرا من مظاهر التمرد على ما أصاب الوضع العام في المغرب من فساد واضطراب، ثم مظهرا من مظاهر الرغبة في التحول والنزوع إلى حياة أكثر رغدا وازدهارا، فعندما نقف على قوله مثلا :

رحماك يا سر الوجود لمن
رحماك طول الدهر يستجدي[54]

أو على قوله :

إني أعوذ ببابك الأحمى من الـ
أرزاء والإرزاء والأوزار[55]

نتأكد من أن المرابط يفرز في هذا الشعر ومثله تذمره من واقعه، وتطلعه إلى حياة تتحقق فيها المثل العليا، وتترجم فيها الفضائل المنشودة إلى واقع حي ملموس. ولعله نفس الشعور الذي يأخذنا ونحن نقرأ شعره في التوسل إلى الله تعالى - إلى جانب توسلاته بالرسول ﷺ - ببعض الأقطاب والأولياء ممن كان المرابط يعتبرهم رمزا يجسد آماله ويحقق طموحاته، على غرار قوله متوجها بالخطاب إلى القطب عبد السلام بن مشيش :

مولاي ها عبدك الصب المتيم قد
ألقى إليك أكف الذل مفتقرا[56]

أضف إلى ذلك ما طبع شعر المرابط من ملامح الصدق والواقعية، وهي ملامح كانت تطبع جل الشعر الدلائي خلال ما يربو على قرنين من الزمان. وإذا كان المرابط نفسه قد أكد على هذه الظاهرة في معرض مديحه للرسول ﷺ :

فإليك من كلف بكم مدح
قد زانها في وصفك الصدق[57]

فإنها ظاهرة تلمس واضحة في أشعاره كلها لما تميزت به من عاطفة متأججة وانفعال صادق، وجه شعر الشاعر نحو الإعراب عما يعانيه فعلا، بعيدا عما ألفه بعض الشعراء من إغراق في التضخيم أو التزييف.

53) انظر كتاب التقاط الدرر محققا ص 92 الهامش رقم 1.
54) ديوان المرابط ص 15.
55) البدور الضاوية ص 280.
56) نفس المصدر ص 333.
57) البدور الضاوية ص 316.

ولعل لهذا السبب اختفى شعر المدح التكسبي عند شاعرنا، إذ كان مدحه مقصورا على صاحب الرسالة الإسلامية، ومن انضوى تحت لوائه من الأولياء الصالحين، وإن خرج عن ذلك فإلى قريب أو شيخ أو عالم، لا تحركه نزوة الطمع، ولا يحفزه عامل الاستجداء والتملق.

ويتميز شعر المرابط علاوة على ذلك ببروز شخصية صاحبه فيه، وهو بروز يمكن أن ندركه في مجالات متعددة منها :

- طغيان موضوع التصوف والأمداح النبوية عنده على غيرها من المواضيع والأغراض، وذلك راجع إلى انتمائه الصوفي أولا، وإلى شدة تعلقه بالرسول ﷺ، واحترامه لآل البيت، وكذا الأولياء الأتقياء. فما أكثر القصائد التي عبر فيها الشاعر عن هذا التعلق والاحترام، كقوله في الرسول ﷺ :

أحب رسول الله دينا وشيمة
وإني لمنقوم الهنات لآمله
وأهفو إليه مستفيثا لظلمه
وإني لمستجد نداه وسائله[58]

وكقوله في آل بيته الكرام :

فعلى ودادتكم طويت جوانحي
وزررت بين عشيرتي أزراري[59]

- انعكاس ثقافته الدينية في هذا الشعر، وهي ثقافة تتجلى فيما نظمه المرابط من معلومات ومعارف دقيقة تتعلق بالسيرة النبوية من جوانبها المختلفة، من نسب ومولد وبعثة وجهاد وهجرة ومعجزات متعددة، أشير إلى بعضها متمثلا بقوله :

لك حن جذع النخل مكتئبا
وحمت حماك حمائم ورق
وأتتك عجم البيد خاضعة
ولها بإفشاء الجوى نطق
ونحتك وارقة تميس وما
راس بأحشاء الثرى عرق
فأمرتها بالسير فانقلبت
والأرض من مسعاتها خرق
ونحلت عنقا فانبرى ذكرا
يقري الكماة وحبذا العذق
ورددت عينا بعدما انهملت
يوم الهياج وسامها المحق
ونضحت وجه زينب فغدت
والحسن مكتمل بها طلق[60]

وتتجلى هذه الثقافة الدينية أيضا فيما تلون به شعر المرابط من اقتباسات وتضمينات من القرآن الكريم، كما نلاحظ في النماذج الآتية :

- من قد ثوت في قلبه محبة
قد ذللت قطوفها تذليلا[61]

ففي البيت اقتباس من قوله تعالى : ﴿**ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا**﴾[62].

- لولاه ما خلقت طبقات سبعة
والأرض عرضا للأنام وطولا[63]

فهنا اقتباس من قوله تعالى : ﴿**الذي خلق سبع سماوات طباقا، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت**﴾[64].

- أنا في حماك إذا الجحيم تسعرت
وإذا الجحود مقيدا مغلولا[65]

ففيه اقتباس من الآية الكريمة : ﴿**وإذا الجحيم سعرت**﴾[66].

58) ديوان المرابط ص 29.
59) البدور الضاوية ص 280.
60) نفس المصدر ص 315.
61) البدور الضاوية ص 311، وصدر البيت مكسور في الأصل.
62) سورة الإنسان، الآية رقم 14.
63) البدور الضاوية ص 312.
64) سورة الملك، الآية رقم 3.
65) البدور الضاوية ص 312.
66) سورة التكوير، الآية رقم 12.

• انعكاس ثقافته العلمية واللغوية كذلك في هذا الشعر، سيما وهو المعروف باهتماماته الواسعة في هذا المجال، وهو انعكاس يبرز على المستوى المعرفي والتعبيري على السواء. فإذا نظرنا إلى قوله مثلا :

بخمسة قد يرى الواقع مقتصرا
إن رمتها فاحفظن نظما بها جهرا[67]

أو إلى قوله :

فليس بمرقيك الذي كان فاعلا
نديك فالمرفوع بالفعل فاعله[68]

تجلى أمامنا ذلك الانعكاس على المستويين معا.

• انعكاس ثقافته العقلية والمنطقية أيضا على شعره، ويتجلى ذلك بوضوح في ظاهرة التعليل التي تفرض نفسها عليه أحيانا فإذا أعلن عن حبه لرسول الله ﷺ وأمله في زيارة قبره في قوله :

وكل سؤلي وآمالي ومغتبطي
في زورة المصطفى من شرف البشر[69]

علل هذا الأمل فقال :

لكونه منهم في نسبة ولقد
فاق كما فاق در اللؤلؤ الحجر[70]

وإذا أعرب عن حبه لأولياء الله قائلا :

إني أحبهم حبا وإن بعدت
عني منازلهم وامتطوا القمر[71]

وقف معللا فقال :

لأن حبهم حب الإله وفي
حب الإله شفاء للذي خبرا[72]

• انعكاس ثقافته الأدبية على هذا الشعر كذلك، حيث إن بعض صياغاته الشعرية تدل على أن له محفوظا شعريا لا يستطيع أن يسلم من بصماته وآثاره، وهو محفوظ يمتد عبر مراحل التاريخ الأدبي بدءا من المرحلة الجاهلية. فإذا وقفنا على قول المرابط مادحا :

هو البدر والناس الكواكب حوله
وهل يشبه البدر المنير الكواكبا[73]

وجدناه قريبا في مبناه ومعناه من قول النابغة[74] :

فإنك شمس والملوك كواكب
إذا طلعت لم يبد منهن كوكب[75]

وإذا وقفنا على قول المرابط وهو يخاطب الرسول ﷺ :

والأمان الأمان إن بقلبي
من هواك تشوقا وارتياحا[76]

أدركنا أنه شبيه بقول الإمام البوصيري[77] في الموضوع نفسه :

الأمان الأمان إن فؤادي
من ذنوب أتيتهن هواء[78]

بل إن هذا الانعكاس قد يتجاوز أحيانا مستوى التشابه إلى ميدان المعارضة، وخاصة في شعر المديح النبوي. ولا شك أن محمدا المرابط قد تعرف إلى شعراء هذا الفن سواء في المغرب أو المشرق، فراح يقلد بعضهم بين الحين والحين. ولعل من أبرز هؤلاء الشعراء القاضي عياضا[79] الذي نلمس الكثير من التقارب بين شعره وبين شعر محمد المرابط. فإذا ما تشوق القاضي عياض إلى الديار

67) البدور الضاوية ص 333.
68) البدور الضاوية ص 323.
69) نفس المصدر ص 333.
70) نفس المصدر والصفحة.
71) نفس المصدر والصفحة.
72) نفس المصدر والصفحة.
73) البدور الضاوية ص 297.
74) شاعر جاهلي مشهور، ينسبه البعض إلى أصحاب المعلقات. انظره في الأغاني ج 9 ص 162 ـ 177، وشرح القصائد العشر ص 31 ـ 34.
75) ديوان النابغة الذبياني ص 56.
76) البدور الضاوية ص 328.
77) هو محمد بن سعيد الصنهاجي البوصيري، أصله من المغرب وإقامته في مصر (608 هـ، 696 هـ). انظره في فوات الوفيات ج 3 ص 362، والوافي بالوفيات ج 3 ص 105 ـ 113.
78) ديوان البوصيري ص 24.
79) من شعراء العصر المرابطي بالمغرب وعلمائه البارزين. انظره في التعريف بالقاضي عياض وأزهار الرياض والقاضي عياض الأديب.

المقدسة فبعث برسالة إلى المدينة المنورة ختمها بشعر أوله :

يـــــا دار خير المرسلين ومن بـــــه

هــــدي الأنـــام وخص بـــالآيـــات

عنـــدي لأجلـــك لـوعـــة وصبـابـــة

وتشـــوق متـــوقـــــد الجمرات[80]

وجدنا محمدا المرابط وهو يعيش نفس الموقف في التشـوق إلى البقـاع المطهرة، يبعث برسـالـة إلى سيـد المرسلين ﷺ ويختمها بأبيات يخاطب بها المدينة المنورة في وزن وروي وقافية شعر القاضي عياض[81]، بل في تقليد لبعض أساليبه أحيانا، يقول :

يــا دار خير الرســل يــا مثوى المنى

قلبي لأجلـــك ثـــائر الحركـــات

عنـــدي لبعـــدك لـوعـــة وهجيـــة

وحشـــا البـلابـل مضرم الجنبـــات[82]

- اختفاء موضوعات معينة من شعره كـالخمريـات والهجـاء مثلا. ولعل غيـاب الخمريـات راجع إلى أن الرجل كان متـدينـا صـادق التـدين، فلم يكن هـذا الوضع الـديني لديه يسمح له بإنشاد شعر يخل به أو يخدش مكانته. أما ما قـالـه من غزل فـإنـه لا يعـدو أن يكون تعبيرا عن عـواطف بشرية تنتاب الناس جميعا، ولا يعتبر شـذوذا مخلا أو هفوة منقصة، في حين قد يرجع غياب المجاء إلى مـا فطر عليـه الشاعر من حب للناس وحسن في معـاملتهم، تلك الخصـال التي كانت حائلا بينه وبين الهجاء والتعيير. وأما غيـاب فن الرثاء فأغلب الظن أنه راجع إلى ضيـاع هـذا اللون من شعر الشـاعر، خصوصا وأن الظروف التي كانت توحي بفن الرثـاء لباقي شعراء الزاوية الدلائية هي نفس الظروف التي عاشهـا محمد المرابط. أما القصيدة التي أثبتهـا لـه الحوات وجعلهـا رثـاء للحسين السبـط، فـإنهـا تـدخـل في إطـار المـديح النبوي[83].

ومما يتميز به شعر المرابط أيضا انسياق صاحبه مع ألوان بـلاغيـة متعـددة من تشبيهات واستعـارات ومجـازات وغيرها، وهو مظهر من مظاهر التبعية والتقليد اللذين كـادا يطغيان على الشعر المغربي عامة، وإن كانـا عنـد المرابـط يرتبطـان كـذلـك برغبـة في التعبير عن واقعـه، والحفـاظ للشعر بمـا عـده الأقـدمـون من عناصر الإجـادة والتـأنـق، خصوصـا وأن هـذه العنـاصر كـانت تـوظف لبلـورة المعنى، والاستزادة من جلائه وتأثيره. ولعل من ألطف المجازات مـا ورد في قوله متغزلا :

أنت النعيم إذا بـــــدلت وإن بـــــدا

منـك الصـدود لنـا فشعلـة مـوقـــد[84]

ومن أجمـل تشبيهـاتـه مـا جـاء في إحـدى غـزليـاتـه كذلك :

مشي الحمـــــامـــــة إن مشت وإذا رنت

شزرا إليـــك رنت بمقلـــة أغيـــد[85]

وفي المضمار نفسه يمكن الإشارة إلى مـا يكتنف شعر المرابط أحيـانـا من تكرار وإعـادة، وهو مظهر مهمـا كـان انعكـاسه على مستوى الصياغة الشعرية عنده، فإنـه لا شك كان نتيجة لتـأثر الشـاعر ببيئتـه، تلـك البيئـة التي عرفت ترتيل الأوراد والأذكـار في الزوايـا والمسـاجـد، وهي أوراد وأذكار كانت تقوم على خـاصيـة التكرار، حيث تتردد فيهـا بعض الكلمـات أو بعض المقـاطـع رغبـة في خلـق إيقـاع مـوسيقي يميـل معـه المنشـدون لهـذه الأوراد والأذكـار، ويهيمون بفعلـه في عـالم من الخشـوع والنشـوة، وأقتصر من نماذج ذلـك على شـاهـدين اثنين، أولهمـا قول المرابـط من قصيدة نبوية :

أنت الــــذي عـــزت معــــارفـــــه

عن أن ينــــال يسبرهـــــا الخلـــق

أنت الـــذي لـــولاك مـــــا سمكت

خضرا ولم ينثر بهــــــــــا ودق

80) أزهار الرياض ج 4 ص 180.

81) الوزن هو البحر الكامل، والروي هو التاء، والقافية مطلقة مردوفة.

82) ديوان المرابط ص 39.

83) انظر القصيدة في ديوان المرابط من ص 13 إلى ص 14.

84) كراسة من ديوان الحارثي ص 4.

85) كراسة من ديوان الحارثي ص 3.

أنت الـــــذي لـــولاك مـــــا ابتهجت
غبرا ولم يفتـــــق لهـــــــا ورق[86]

وثانيهما قوله في قصيدة أخرى :

ولأنت أشرف من حفي ومن امتطى
ولأنت خير وسيلـــــة للبـــــــاري
ولأنت حقــــا ملجئي وفخـــــاري من
بين الـــورى ووقـــــايتي من نــــــار
ولأنت خير من ارتــــــــدى ومن ارتقى
متن البراق لحضرة الجبــــــــــــــار
ولأنت صفـــوة من حمي بســـوابــغ
ونـــواســـج عجم بيـــــاب الغـــــار
ولأنت أكرم مرســـل متـــــأيـــــد
بمصــــــالت زهر من الأنصــــــار
ولأنت بـــــاب اللـــــه من وافـــاه لم
يكلـــــح ولم يلفحـــــــه لهب أوار[87]

ولعلنا هنا أيضا نستطيع أن نتبين مدى تأثر شاعرنا بالقاضي عياض الذي لم يسلم شعره في المديح النبوي من الظاهرة نفسها في مثل قوله :

يــا سيـدي يــا رسـول اللـه خـذ بيـدي
فحــوض فضلـــك مـــورود لكــل ظمي
يــا سيـدي يــا رسـول اللـه خـذ بيـدي
فـــالعبـــد ضيف وضيف اللـــه لم يضم
يــا سيـدي يــا رسـول اللـه خـذ بيـدي
يــــا من لقــــاصــــده أمن من النقم[88]

وكــأني بــالمرابـط لا يستطيـع التخلص من هــذه الظــاهرة، التي لم يستطـع التخلص منهـا شعراء دلائيـون آخرون غيره، ولذلك نجدها عنده تتخذ أحيانا طابعا لا يخلو من طرافة، حيث نجد بعض تعابير الشاعر تتردد بين القصيدة والأخرى، كما يتجلى ذلك في النموذجين الآتيين من قصيدتين مختلفتين :

ـ رحمـــاك يـــا سر الـوجـود وخير من
ســـاد الـورى من ســـارب أو ســــار[89]
ـ رحمـــاك يـــا سر الـوجـــود لمن
رحمـاك طـول الــدهر يستجــدي[90]

وإن كنـا نجدهـا أحيـانـا أخرى نـاسجة على منوال المتقدمين، وعلى رأسهم القـاضي عيـاض. فـإذا قرأنـا لهـذا الأخير قوله مثلا :

إن البخيـــل بلحظـــــة أو لفظـــــة
أو عطفـــــة أو وقفـــــة لبخيـــل[91]

وجدنا شاعرنا يقول :

فيـــك المكـــارم والمـــآثر والمفـــا
خر والمحـــامـــد للبرايـــا تنسق[92]

وإذا كـانت هـذه الظـاهرة عند شـاعرنـا لا تخلو من صنعة أحيـانـا، فـإن هـذه الصنعـة تبـدو عنـده في واجهـات أخرى لعل أبرزها نسج القصيدة وفق خطـة مرسومـة تتمثل في استهلال أبيـاتهـا بحروف لو قرنت متـواليـة لكـانت آيـة قرآنية أو قولا مأثورا. ومن ذلك قصيدته التي مطلعها :

لـــــذ بجـــــاه الهـــــاشمي العلم
مجتبى المـــــــــــولى من الأمم[93]

حيث تشكلت أوائل أبيـاتهـا الأخيرة[94] من حروف الشهادتين : «لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ»، وهذا نموذج منها :

لحت في أفـــــق الهـــــــدى قمرا
في دريـــــــــــــاجي الظلم والظلم
أزعجت آيـــــــــك كــــــــل عم
قــــد تمـــــادى الــــدهر في صمم

86) البدور الضاوية ص 316.
87) البدور الضاوية ص 280.
88) مجموع رقم 359 بخزانة ابن يوسف بمراكش غير مرقم الأوراق.
89) البدور الضاوية ص 280.
90) ديوان المرابط ص 15.
91) أزهار الرياض ج 4 ص 215.
92) البدور الضاوية ص 305.
93) ديوان المرابط ص 15.
94) من البيت 41 إلى النهاية.

إن من أسرى الإلـــــــه بـــــــه
لخليـــــق بـــــالثنــــا العمم

لنت يــــــا زين الـــــورى خفرا
في علـــــــــــو النفس والهمم

أيروم الخلـــــق شـــــأوك والـ
ـرب أصفـــــاك لـــــدى القلم

همعت يمنــــــاكم منحـــــــا
ولقـــــد تـــزهـــو على الـــديم

أحمــــد الفضـــل الـــذي جمـــع الـ
ـغرر العليــــــــــــا على شيم

لا ينــــــال الـــــدهر من لعلى
مجـــــدكم قـــــد راح من خـــدم

آيـــــة الفرقــــان قـــد قصمت
ظهر عـــــز الشرك من قـــــدم

ليس يحصي قــــدركم أحــــد
لا ولا اللـــــوح مـــع القلم

أيعـــــد القطر في همـــــع
أم يـــــام المـــوج في لطم

هـــالــــة الرســـل الكرام لأنـ
ـت الإمـــــــام الفرد من علم[95]

ومن خصوصيات هذا الشعر وصاحبه أخيرا، أنهما تركا بصماتهما على شعراء الفترة، مما يدل على أن المرابط كان يحتل مكان الصدارة في عصره، وأن أدبه كان مثالا يحتذى، ومقصدا يتجه الشعراء نحوه، ويستلهمون فنه وإبداعه. وقد أقتصر للتدليل على هذه الملاحظة على ابنه محمد، الذي تأثر بوالده في مجال التصوف والتوسلات النبوية، حيث نجده يكاد يقصر شعره على هذا الجانب، بل إننا نجده يتوسل ببعض أساليبه، وخاصة في ميدان التصليات.

فإذا قال الوالد :

عليـــــك من المهيمن كـــل حين
على طـــول المـــدى أزكى ســـلام[96]

ردد الابن من قصيدة :

عليـــــك من المهيمن كـــــل حين
صـــــلاة متيم بعرار نجـــــــــد[97]

وردد من ثانية :

عليـــــه من المهيمن كــــل حين
صـــلاة تنعش القلب السليمـــــا[98]

كما نجد الشاعر محمد بن أحمد بن المسناوي يحذو حذو المرابط فيتوسل إلى الله تعالى بالأولياء، والأقطاب الصالحين، ونجد اليوسي يقتفي أثر المرابط في ميدان التصوف من جهة، وفي مجال الصنعة والتأنق في الشعر من جهة ثانية.

على أن قارئ شعر المرابط، لا شك واقف على هفوة واضحة في هذا الشعر، إن لم نقل على عيب فيه، وهي ما كان الشاعر يقع فيه أحيانا من سقطات نحوية أو عروضية، ومع ذلك فهي سقطات قليلة أولا، ثم إنها لا يمكن أن تجرد صاحبنا مما تميز به من عبقرية وشاعرية، كما أنها لا تضعف قيمة هذا الشعر الذي يعتبر رصيدا أدبيا هاما، وخصوصا إذا ما نظر إليه بمنظار العصر الذي قيل فيه.

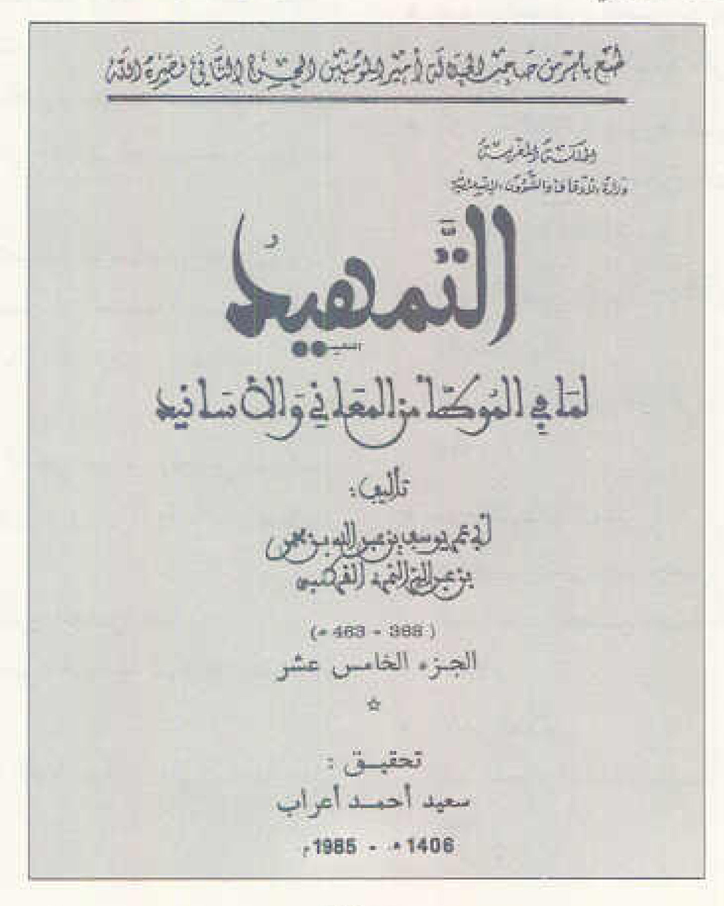
وعموما، يبقى محمد المرابط الدلائي علما من أعلام الإبداع الشعري في بلادنا، وأحد الذين ساهموا في إغناء الساحة الشعرية بعطاءاتهم وعصارة قرائحهم، الشيء الذي يجعله قمينا بالتعريف والبحث، جديرا بالتحليات التي حلاه بها تلاميذه ومعاصروه.

95) ديوان المرابط ص 18.
96) البدور الضاوية ص 332.
97) ديوان ابن المرابط ص 158.
98) نفس المصدر ص 88.

المصادر والمراجع المذكورة في البحث

- أبو عبد الله محمد المرابط الدلائي : حياته وآثاره لحسن جلاب، رسالة جامعية مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض لأحمد بن محمد المقري التلمساني طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط
- الأعلام
لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1979م.
- الأغاني
لأبي الفرج الأصبهاني، تحقيق عبد الله العلايلي وآخرين، بيروت، دار الثقافة، 1955م.
- التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار أعيان المائة الحادية والثانية عشر
لمحمد بن الطيب القادري، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1401 هـ ـ 1981م.
- البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية لأبي الربيع سليمان بن محمد العلمي الحوات، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم د 261.
- التعريف بالقاضي عياض
لأبي عبد الله محمد بن القاضي عياض، تحقيق الدكتور محمد بنشريفة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر
لأبي عبد الله محمد المحبي، المطبعة الوهبية، القاهرة، 1284 هـ
- الدر المنصد الفاخر، فيما لأبناء مولانا علي الشريف من المحاسن والمفاخر
لمحمد بن عبد القادر الكردودي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 1584
- ديوان البوصيري ـ محمد بن سعيد
تحقيق محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، 1374 هـ ـ 1955م
- ديوان الدلائي ـ محمد المرابط
مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 3644
- ديوان الدلائي ـ محمد بن محمد المرابط
مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 3644
- ديوان النابغة الذبياني
جمع وتحقيق وشرح محمد الطاهر بنعاشور، الشركة التونسية للنشر والتوزيع، 1976م
- ديوان اليوسي ـ الحسن بن مسعود
مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم ج 32
- الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي للدكتور محمد حجي، المطبعة الوطنية بالرباط 1384 هـ ـ 1964م
- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس، بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس
لمحمد بن جعفر الكتاني، المطبعة، الحجرية بفاس، 1316 هـ
- شرح القصائد العشر
للخطيب التبريزي، تحقيق وضبط وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، 1384 هـ ـ 1964م
- الشعر الدلائي
لعبد الجواد السقاط، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1985م

- صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر
لمحمد الصغير اليفرني، طبعة حجرية
- عبقرية اليوسي
للدكتور عباس الجراري، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1401 هـ - 1981م
- فهرسة اليوسي
للحسن بن مسعود اليوسي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 1301
- فوات الوفيات
لمحمد بن شاكر الكتبي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان
- القاضي عياض الأديب
لعبد السلام شقور، دار أمل، طنجة، 1983م
- كراسة من ديوان أحمد الحارثي
مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 3312
- المباحث الإنشائية في الجملة الخبرية والإنشائية
مخطوط بخزانة الأستاذ محمد المنوني
- مجموع خاص فيه مؤلفات وأشعار دلائية
مخطوط بخزانة الأستاذ السيد محمد المنوني
- مجموع رقم 359
مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش
- مطلع الإشراق في نسب الشرفاء الواردين من العراق
لعبد السلام بن الطيب القادري، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 1234
- مناقب الشيخ عبد السلام بن مشيش
لمؤلف مجهول، مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط رقم 9447
- نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني
لمحمد بن الطيب القادري
- الوافي بالوفيات
لصلاح الدين الصفدي، باعتباء هلموت ريتر، دار النشر فرانز شتايز بفيسبادن 1381 هـ - 1962م



المدن الثقافية الإسلامية ⑤ و ⑥



للدكتور محمد كمال شبانة

5 ـ قرطبة :

تقع مدينة قرطبة في إسبانيا على سفوح الجبال المتفرعة من سلسلة جبال سييرا مورينا، التي تمتد شمالي المدينة، وتحاذي قرطبة الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير، وهي مدينة قديمة يعتقد أنها ايبيرية الأصل، فقد دلت الحفريات الأثرية التي تمت في منطقتها على ذلك الاعتقاد، حيثما عثر على تماثيل أيبيرية من البرونز، وأن اسمها يتشابه في مقاطعه مع أسماء بعض مدن أخرى، فليس من المستبعد أن اسمها القديم Corduba قد حرفه العرب إلى «قرطبة».

وقد توالى على المدينة حكم دول مختلفة على مر تاريخها، ففي عام 169 ق.م. اتخذها الرومان عاصمة لإسبانيا السفلى، حيث تناولتها العمارة الرومانية، كما أحيطت بالأسوار المنيعة، وازدحمت بالسكان وخاصة الأسرات النبيلة الرومانية. ثم تمكن قائد الامبراطور يوليوس قيصر من الاستيلاء على قرطبة عام 45م، حيث قسمت إسبانيا السفلى إلى إقليمين : لوزيتانية، وباطقة، وكانت قرطبة عاصمة لإقليم باطقة، وبعد فترة قصيرة أصبحت هذه العاصمة أحد المراكز القضائية في إسبانيا الجنوبية، أما الثلاثة الأخرى فكانت في استجة وأشبيلية وقادس.

وحدث أن غزا الفندال والسواق والألان شبه جزيرة أيبيريا عام 409م، واستولى الفندال على إقليم باطقة وأشبيلية، واتخذوا من هذه الأخيرة عاصمة للإقليم. أما قرطبة فقد ظلت تحت سيطرة البيزنطيين، حتى تمكن ملك القوط الغربي «ليوفخلدو» من امتلاكها عام 568م، ومن ذلك الحين تنتقل قرطبة إلى منطقة الظل، وتفقد قوة مركزها بالنسبة إلى طليطلة التي فاقتها منذ أواخر القرن السابع الميلادي.

وأقبل الفتح الإسلامي إلى الأندلس، وتم الاستيلاء على قرطبة دون مقاومة تذكر، إذ تذكر الرواية العربية أن طارق بن زياد بعث قائده مغيث الرومي إلى قرطبة على رأس سبعمائة فارس، فوصلوا المدينة تحت جنح الظلام، حيث كان حراس أسوارها في غفلة عنها، فتمكن جنود مغيث من تسلق الممر الخاص بالسور، وقفزوا إلى داخل المدينة، وباغتوا حراس بابها الجنوبي فقضوا على من تعرض منهم لهم وفتحوا الباب الرئيسي من الأسوار، فتفرقت الجيوش الإسلامية، وصارت قرطبة بعد هذا الفتح عاصمة لإسبانيا الإسلامية، حيث أخذت تستعيد ماضي مجدها شيئا فشيئا، ووطد بها ولاة الأندلس سلطانهم منذ عصر الوالي أيوب بن حبيب اللخمي حتى نهاية الحكم الأموي، وقد ترك للنصارى من سكانها حرية البقاء على دينهم أو الإسلام، فمن لم يسلم فرضت عليه الجزية، كما جرت به عادة الفاتحين الإسلاميين للأقطار النصرانية.

بيد أن السمح بن مالك الخولاني ـ الذي كان واليا على الأندلس عام 100 هـ (719م) ـ أخذ على عاتقه أن

يرتفع بقرطبة إلى مصاف الحواضر الكبرى، فبدأ بترميم السور المحيط ـ بالمدينة حيث كانت قد تهدمت أجزاء منه، واستعمل الأحجار الضخمة التي تخلفت عن الأجزاء المتهدمة من السور الروماني ـ بعد ترميمه ـ في إعادة بناء قنطرة قرطبة، وهي التي كانت تعد من أعظم وأعجب الآثار الأندلسية، وقد كانت قبل ذلك من إنشاء الرومان حتى تهدمت تماما فيما عدا أسافلها...

ولقد كان طول هذه القنطرة العربية الجديدة ثمانمئة ذراع، وعرضها عشرون باعا، وارتفاعها ستون ذراعا، وعدد حناياها (أقواسها) ثماني عشرة حنية، وعدد أبراجها تسعة عشر برجا، وذلك حسب الروايات العربية والإسبانية.

وتربط هذه القنطرة مدينة قرطبة (الجزء المغمور منها) وبين ربضها ـ وهو ضاحيتها ـ الواقع جنوبي قرطبة على الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير، وهو الربض الذي يطلق عليه «شقندة»، ولا تزال هذه القنطرة باقية حتى عصرنا الحاضر، بعد اعتبار الإصلاحات والإضافات التي شملتها على مر التاريخ.

وترجع قيمة ثروة قرطبة الاقتصادية إلى شهرتها الزراعية، وبخاصة سهلها الجنوبي المعروف بالكنبانية، فمن محصولاتها الهامة الزيتون الذي هو أساس لصناعات غذائية مختلفة، وبها المعادن المتنوعة ولا سيما الفضة والزئبق، وحجر الشادنة، ويستغل في صناعة التذهيب، بالإضافة إلى الرخام الخمري والأبيض الشديد البياض.

ولقد أخذت قرطبة وضعها التاريخي كعاصمة كبرى عندما اتخذها الأمير عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) حاضرة له، فقد أضحت مركزا ثقافيا إسلاميا له مكانته التاريخية الشهيرة، بما اشتملت عليه من أسباب الحضارة السامية، واحتضان المدينة لأعظم الفلاسفة والأدباء ـ والعلماء يومئذ، بحيث كانت مركزا للعلوم والفنون والآداب، وتطورت بها الحركة المعمارية تطورا لم تعرفه أوربا وقتئذ، والتي كانت تعاني من ظلمات الجهل الذي ضرب أطنابه في كافة أرجاء القارة الأوربية.

ويأتي عصر عبد الرحمن الناصر ثم ابنه الحكم المستنصر... لتبلغ قرطبة في عهدهما أوجا حضاريا لم تعرفه قبلهما ولا بعدهما، فقد عم الثراء والرخاء أرجاءها، وبهذا تفوقت على سائر المدن الأندلسية الأخرى، وظلت كذلك حتى سقطت الخلافة الأموية، وجاء إليها البربر فاتحين عام 1010م، فحولوا آثارها إلى أنقاض، وقضوا على عمرانها وما امتازت به، ومع ذلك فقد احتفظت بتفوقها في الميادين الفنية والأدبية، بعد أن نهضت من كبوتها، واستمرت هكذا حتى استردها الإسبان على يد فرناندو الثالث في 26 يونية 1936م.

وقد كان لسقوط قرطبة ـ في حروب الاسترداد ـ رنة أسى وفجيعة أصابت المسلمين في العالم الإسلامي، إذ سرعان ما قام الإسبان بتحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة كبرى، ونتيجة للسياسة الإسبانية تجاه مسلميها بعدئذ، فقد هاجرت أعداد عظيمة من المسلمين، واستعاض عنهم «فرناند» وبآخرين من الأقاليم المسيحية كقطالونيا وليون وقشتالة. ولكن هذه العناصر الجديدة لم تستطع أن ترفع قرطبة من تلك الكبوة، أو تعيد إليها مظهرها القديم، بالإضافة إلى أن هؤلاء المستوطنين جاءوا ومعهم تقاليد تختلف تماما عن تقاليد قرطبة الأموية، إلا أن كل هذا لم يمح من المدينة العمارة الإسلامية، بل أضحت هذه العمارة المتميزة مصدرا يستوحى منه النصارى من بعد فنونهم المعمارية، وخاصة في كنائسهم ودورهم.

ويذكر المؤرخون أن قرطبة في القرن العاشر كانت تنقسم إلى جانبين كبيرين : جانب شرقي كان يعرف بالشلاقية، ومازال يعرف بهذا الاسم حتى اليوم Aljaguia وجانب غربي، كما كانت تنقسم إلى أحياء تعرف في الأندلس بـ «الحومات»، وهذه تسمى بأسماء الأبواب المجاورة لها، أو تتسمى بأسماء أهم الآثار الكائنة بها، أو بأسماء تتبع حرف سكانها، مثل حومة باب الفرج، وحومة الرقاقين قرب باب العطارين، وحومة النجارين، وحومة عين فرقد شرقي قرطبة، وحومة غديربني ثعلبة، وحومة حير الزجالي خارج باب اليهود (1).

---

1) د. السيد محمود عبد العزيز سالم «دائرة معارف الشعب» (61).

ويروي ابن بشكوال في «الصلة» عن أرباض قرطبة (أي ضواحيها) بعد توسعتها - أنها بلغت واحدا وعشرين ربضا : فالمدينة القبلية بعدوة النهر بها ربض شقندة، وربض منية عجب، وأما الغربية فتسعة، وهي : ربض حوانيت الريحان، وربض الرقاقين، وربض مسجد الكهف، وربض بلاط مغيث، وربض مسجد السرور، وربض مسجد الروضة، وربض السجن القديم، وأما الشمالية فثلاثة، هي : ربض باب اليهود، وربض مسجد أم سلمة، وربض الرصافة. وأما الشرقية، فسبعة، وهي : ربض شبلار، وربض فرن بربل، وربض البرج، وربض منية عبد الله، وربض منية المغيرة، وربض الزاهرة، وربض المدينة العتيقة.

إن ورود أسماء هذه الأرباض (الضواحي) في المؤرخات العربية لذو دلالة قاطعة على أن مدينة قرطبة كانت من عظم المساحة لدرجة وسعت سكان هذه الضواحي بمرافقها العامة، وذلك من بداية القرن التاسع في عهد الحكم بن هشام المشهور بالحكم الربضي، ويذكر ابن بشكوال في «الصلة» أن تلك الضواحي لم تكن مسورة، حتى كان سقوط الخلافة الأموية، وما تبع ذلك من

اضطرابات وفتن، فرأى القائمون بالأمر أن يتداركوا الأخطار، وذلك بحفر خندق حول هذه الأرض جميعها، كما استدار بها سور هام بلغ محيطه أربعة وعشرين ميلا، وهو على شكل متوازي الأضلاع، وله سبعة أبواب، أكبرها الباب الجنوبي المؤدى إلى القنطرة، وهو ينتهي بالرصيف الممتد على طول الضفة اليمنى للنهر، وفي السور الشرقي بابان : الباب الجديد، وموقعه قرب النهر، وهو المعروف بباب سرقسطة، حيث يطل على الجسر المؤدى إلى تلك المدينة، والآخر يطلق عليه باب عبد الجبار، نسبة لعبد الجبار بن الخطاب مولى الخليفة الأموي مروان بن الحكم، ويقع هذا الباب شمال السور الشرقي، وقد أفاد المؤرخون أنه كان يعرف بباب طليطلة وبباب رومية. فإذا ما انتقلنا إلى السور الشمالي فنرى أن به بابا يعرف بباب ليون أو باب طلبيرة، حيث يشرف على الجسر المؤدى إلى مدينة طلبيرة.

ويلاحظ أن الجانب الغربي من السور قد اشتمل على ثلاثة أبواب، أحدها كان يعرف بباب عامر القرشي، صاحب الدور الهام في أحداث القرن الثامن بالأندلس، مما جعل الخليفة عبد الرحمن الناصر يأمر بفتح هذا الباب لإمكان الوصول إلى مقبرة عامر القرشي، أما الباب الثاني ويقع وسط هذا السور فكان يعرف بباب الجوز والباب الثالث جنوبي السور الغربي، ويسمى باب العطارين أو باب إشبيلية، وهو من الأبواب التي ما زالت قائمة حتى اليوم.

هذا، وقد اشتملت قرطبة الإسلامية على طرق كبرى وطرق فرعية، فمن أهم الطرق الكبرى طريق يعرف بـ «المحجة العظمى» ويتخذ مساره من باب القنطرة شمالا، ويشق طريقه بين المسجد الجامع وقصر الخلافة، ويتقاطع مع هذا الطريق شارعان، أحدهما غربي من باب عامر، والآخر شمالي يمتد من باب ليون، وهو نظام رئيسي قديم في تخطيط شوارع المدن الرومانية القديمة، حيث يتألف من هذا الالتقاء للطرق شكل صليب، على غرار ما نلحظه كذلك في الشوارع الرئيسية لكل من غرناطة ومالقة وغيرهما من المدن الأندلسية.

وطبيعي أن تتفرع عن هذه الشوارع دروب وحارات وأزقة، منها ما هو نافذ، ومنها ما هو غير نافذ، ويحفظ لنا المؤرخون أسماء بعض تلك الدروب، مثل درب ابن شراحيل (قاضي قرطبة زمن عبد الرحمن الأوسط) ودرب الفضل بن كامل، ودرب أبي الأشهب، ودرب بني فطيس.

ويقوم على حماية هذه الأزقة والحارات والدروب حراس معينون، ويسمى الواحد منهم بـ «الدراب»، فيذكر ابن سعيد المغربي» أن بالأندلس عسا يطوفون بالدروب ليلا، ويعرفون بالدرابين... لأن بلاد الأندلس لها دروب بأغلاق تغلق بعد العتمة، ولكل زقاق حارس فيه، له سراج معلق، وكلب يسعر، وسلاح معد، وذلك لشطارة عامتها، وكثرة شرهم، وإعيائهم في أمور التلصص».

تلك هي قرطبة قاعدة الحضارة الإسلامية في الأندلس، وحاضرة الخلافة الأموية في ذلك العصر، والتي يطلق عليها اليوم «السلطانة الحزينة».

لقد زارها ابن حزم، وهو أحد أبنائها البررة، وذلك بعد الفتنة التي آذنت بأفول شمس الأندلس (أوائل القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي)، وحيث أصاب قرطبة الخراب على أيدي أهلها، فوصفها بقوله :

«وقفت على أطلال منازلها بحومة بلاط مغيث من الأرباض الغربية، ومنازل البربر المستباحة عند معاودة قرطبة (بعد عودته إليها عقب الفتنة) فرأيتها قد انمحت رسومها، وخفيت معاهدها، وغيرها البلي، فصارت صحاري مجدبة بعد العمران، وفيافي موحشة بعد الأنس، وآكامها مشوهة بعد الحسن، وغرائب مفزعة بعد الأمن...»، إلى آخر هذا الوصف المحزن الذي يأخذ بمجامع القلوب، وتسيل له الدموع مدرارا...

إن من أعلام قرطبة - غير ابن حزم - في شتى مناحي المعرفة كثيرون، نذكر منهم - على سبيل المثال لا الحصر - أبا الوليد بن رشد، أعظم فلاسفة العصور الوسطى على الإطلاق، وأبا بكر بن طفيل، صاحب قصة «حي بن يقظان» الفلسفية البارعة الرائعة، والتي ترجمت إلى معظم لغات العالم.

ومن هؤلاء الأفذاذ أيضا أبو القاسم الزهراوي الجراح الكبير، وصاحب عمليات استخراج الحصى من المثانة والكلي، ومؤلف كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف»، الذي وصف فيه أدوات الجراحة التي ابتدعها، وقام برسمها بيده، ويروى أن الأطباء مدينون له بأخذهم عنه عملية «الكتاراكتا».

ولقد قام الوزير المغربي محمد بن عبد الوهاب الغاني بزيارة قرطبة بعد سقوطها في أيدي الإسبان بنحو ثلاثة قرون فلم يجد من معالمها الإسلامية وآثارها النادرة سوى المسجد الجامع الكبير، وكذلك الحال عندما زارها بعد ذلك بقرن الغزال الفاسي سفير سلطان المغرب وكفى بهذا الأثر الفريد شاهدا على ما بلغه عصر الخلافة الأموية، من حضارة ومدنية، شملت كافة الفنون والعلوم والآداب...

مسجد قرطبة الجامع :

تقوم عمارة هذا المسجد على صحن مسقوف، وفناء غير مسقوف، وتبلغ مساحة الصحن 4868 مترا مربعا، بينما تبلغ مساحة الفناء (732 مترا مربعا، وبذلك تصير المساحة الكلية للمسجد 12189 مترا مربعا أي أكثر من هكتارين، ونحوا من ثلاثة أفدنة، وعدد أعمدته التي ما زالت حتى اليوم يتجاوز 1200 عمود.

ولما كانت العادة قد جرت في الفتح الإسلامي للمدن الأندلسية بأن تحول الكنيسة العظمى بالمدينة إلى مسجد جامع... فهذا ما حدث فعلا بالنسبة إلى مسجد قرطبة، عند ما أقيم على أنقاض الكاتدرائية الكبرى بالمدينة، ولذلك لا نحتاج إلى تفسير ما قام به الإسبان، عندما حولوا بدورهم مسجد قرطبة إلى كنيسة عظمى كرد فعل طبيعي، وكما كان هو شأنهم حيال المساجد الجامعة في البلاد الأندلسية التي استردوها من أيدي المسلمين.

لقد استغرق بناء مسجد قرطبة قرابة مائتين وعشرين عاما، بحيث بدئ في إنشائه سنة 780م، وتم بناؤه نهائيا عام 1000 ميلادية، فقضت في بنائه سبعة أجيال من المهندسين المعماريين وهو بهذا عبارة عن ثلاثة أقسام :

القسم الأول : وقد بناه عبد الرحمن الداخل فيما بين سنتي 780 و786م، وهو الجزء الذي يدخل إليه الناس اليوم من الباب الرئيسي المعروف بباب النخيل، وهو أحد الأبواب الرئيسية الثلاثة، في واجهة المسجد الغربية على الشارع الرئيسي لقرطبة الإسلامية (المحجة العظمى)، ويمثل هذا الطرف من المسجد الربع الجنوبي، وهو يبدأ من المدخل، وينتهي عند العمود الثالث عشر في اتجاه المحراب، ومن ناحية الحائط الغربي، وحتى العمود الحادي عشر من ناحية الشرق.

ثم يلفي الداخل من الباب الرئيسي نفسه في رواق يتألف من الأقواس المزدوجة، بعرض 785 أمتار منها خمسة صفوف من الأعمدة يمينا، وخمسة أخرى يسارا.

وكان جدار الجامع الأول أو القسم الأول من المسجد الحالي قائما عند القوس الثالث عشر، وهو الذي أسسه عبد الرحمن الداخل، ولا زالت آثار هذا الجدار باقية حتى الآن، حيث يمكن رؤية أجزاء منه تحمل الأقواس بدل الأعمدة.

القسم الثاني : أما الجزء الثاني من المسجد فإنه يلي القسم الأول منه مباشرة، وهو عبارة عن الزيادة التي أضافها عبد الرحمن الأوسط (206 ـ 238 هـ = 821 ـ 852)، وهي عبارة عن نفس منوال القسم الأول من المسجد تماما، وحيث تمتد إلى الجنوب سبعة أقواس تحملها ستة أعمدة، تليها البقية الباقية من جدار التوسعة الثالثة والأخيرة التي قام بها كل من عبد الرحمن الثالث ثم ابنه الحكم المستنصر.

وفي رواق هذا القسم الثاني من المسجد يبدو للناظر العجب العجاب، فالأعمدة مثل أعمدة القسم الأول من الرخام الأخضر أو الوردى أو الأحمر، بل وفي نفس القياس قطر ومحيط، تعلوها جميعا التيجان الرائعة، والتي اعتمدت عليها أقواس فوق أقواس، وقد أشرف على هذه الزيادة في المسجد القاضي محمد بن زياد، ونصر ومسرور موليا عبد الرحمن الربضي.

القسم الثالث : أما الزيادة الأخيرة للجامع فهي التي أضافها الحكم المستنصر في الفترة ما بين عامي 961 و966م، بإشراف أحد رجال الفكر في الأندلس، وهو القاضي منذر بن سعيد البلوطي، وحيث تمكن مهندسوا الحكم المستنصر أن يوائموا بين القديم والحديث في عمارة المسجد، حتى بدأ في النهاية وحدة متناسقة متكاملة.

وتجدر الإشارة إلى أنه قد أقيمت كنيسة صغيرة بالداخل يتقاطع محورها مع محور المسجد، وأنشئ مصلب هذه الكنيسة على يسار الرواق، الأمر الذي صار كالنشاز في الموسيقى أو العبث في لوحة فنية رائعة، بشهادة كثير من المستشرقين الذين شاهدوا تلك الحماقة التاريخية.

وهناك الزيادة التي أضافها المنصور محمد بن أبي عامر آخر الأمر (366 ـ 393 هـ = 976 ـ 1002م)، قد وسع المسجد من ناحيته الشرقية بما يوازي ثلث مساحته أيام الحكم المستنصر، وهكذا أضاف 245 عمودا وقوسا، تختلف عن الكيفية التي سبقت للأقواس والأعمدة التي أقامها أسلافه، فهي تبدو من بعيد وكأنها مبنية بالحجر والطوب الأحمر كبقية أقواس المسجد، ولكنها في الواقع من الحجر فقط والمطلى باللون الأحمر. كما أضاف المنصور الجدار الشرقي وأبوابه إلى المسجد، وهي بدورها تختلف في دقة وروعة الجدار الغربي.

كذلك وسع المنصور صحن المسجد بما يوازي ثلث المساحة، وأحاط كل هذا بسور شامل.

وجدير بالذكر أن هذا الصحن غير المغطى هو المعروف اليوم بفناء النارنج (البرتقال)، ولازال شجر البرتقال حتى الآن، ولكن بعد أن أعيد غرسه مرات بطبيعة الحال، بعد أن أضيف إليه بعض النخيل ونافورات في منظر سياحي جميل، ولما كان غرس الشجر غير معهود في المساجد الإسلامية، فلذلك حدث خلاف بين العلماء حول جوازه، ولكن فقهاء الأندلس أباحوه اجتهادا، وكان الذي أفتى بذلك الفقيه صعصعة بن سلام الشامي المتوفى عام 774م.

أما المحراب فإنه آية من آيات الفن في كل العصور، وهو الفريد في معماره دقة وروعة وبهاء من بين كافة المساجد في العالم الإسلامي على الإطلاق.

إن المحراب أشبه بصومعة تدخلها من مثل ما يشبه الباب المزخرف، في هيئة حدوة حصان، مرفوعة فوق قواعد من الرخام، مع ملاحظة أن الأحجار التي يتكون منها القوس مزينة بالزخارف، ويحيط القوس بدوره إطار منقوش، ويدور بالإطار جدار تعمره الكتابات، وتزينه في أسطر متناسقة، قد اشتملت على آيات قرآنية مناسبة من سور شتى، بعضها من سورة المجادلة ﴿**ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم**﴾، وبعضها من سورة غافر ﴿**لا إلاه إلا هو، فادعوه مخلصين له الدين، الحمد لله رب العالمين**﴾.

وفي أحد جوانب المحراب بجداره أيضا نجد ما نصه :

«أمر الإمام المستنصر بالله عبد الله الحكم موليه (أي مولاه) وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله، بتشييد هذه البنية، فتم بعون الله بنظر محمد بن تمليخ، ومحمد بن نصر، وخالد بن هاشم أصحاب شرطته، ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب...».

وتحت هذا كتب : بسم الله الرحمن الرحيم، ثم الآية : 23 من سورة الحشر : **﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون﴾**.

ثم عند قاعدتي القوس من اليمين كتابتان في ثلاثة سطور :

بعد البسملة الآية : 43 من سورة الأعراف **﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾**، وبعده : «أمر الإمام المستنصر بالله عبد الله الحكم أمير المؤمنين... أصلحه الله موليه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن - رضي الله عنه - ينصب هذين المنكبين، فيما أسه على تقوى من الله ورضوان، فتم ذلك في شهر ذى الحجة سنة أربع وخمسين وثلاثمئة».

وكل هذه الكتابات محلاة بالفسيفساء، وهو المعروف بالموزايكو في الأوربية.

ويشتمل المسجد على ميضأة عظيمة، تتوسط فناء المسجد غير المسقوف، وقد تم توصيل الماء إليها من الجبل عبر قنوات رصاصية، وعرف أن المنصور أشار بوضع صهريج عظيم تحت الميضأة، يتألف من تسعة أقبية ترتكز على أربعة أعمدة وإثنى عشر قوسا، ولا تزال آثار هذا الصهريج قائمة حتى وقتنا الحاضر.

وأما مئذنة الجامع فإنها قائمة على يمين الداخل من باب فناء النارنج (البرتقال)، وكان ارتفاعها يبلغ 45 مترا، وعمارتها تشبه البرج بارتفاع 30 مترا، وتبعا لتحويل المسجد إلى كاتدرائية فإن النواقيس قد وضعت في الجزء العلوي - الحديث منها.

هذا، ويتحدث «جوستاف لوبون» عن روعة المسجد الجامع، مسجلا ذلك الخلل الذي لحق به على يد الإسبان، آخذا عليهم هذا التعصب الأعمى والمشوب بالجهل... إذ يقول :

«... ولا يزال جامع قرطبة من المباني المهمة، مع ما أحدثه الإسبان فيه من التلف والفساد، ومع تلك الكنيسة الواسعة التي أقاموها فيه لتطهيره، ومما صنعه الإسبان أن - كلسوا زخارف جداره وكتاباته، ونزعوا منه فسيفساء أرضه، وباعوا تحف سقفه الخشبية المحفورة المزوقة، فيجب على من يرغب في تمثل ما كان عليه جامع قرطبة أن ينظر إلى محرابه الذي تفلت وحده من التخريب.

«ويقوم سقف جامع قرطبة على أعمدة، ويتكون من اجتماع هذه الأعمدة صفوف من الصحون المتوازية المؤدية إلى باحته، وتتقاطع الصحون وصحون أخرى كتقاطع الأضلاع الذي ينشأ عنه زوايا قائمة، ويتألف من مجموع تلك الأعمدة غابة من الرخام والغرانيت، وتعلو تلك الأعمدة أقواس رائعة منضدة، مصنوعة على شكل نعل الفرس.

«ولا يؤدي ارتفاع سقف جامع قرطبة الذي لا يزيد على عشرة أمتار - إلى ما نراه في الكاتدرائيات القديمة التي أقيمت على الطراز القوطي في القرون الوسطى من الجلال الأدجي، ككتدرائية استراسبورغ، وإنما ينشأ عن تنضد أقواسه وتنوع زخارفه منظر مبتكر بديع، قلما تجد مثله في مبان أخرى.

«وأما محراب جامع قرطبة فإننا - من غير أن نجارى «جيرول دي برانجه» في قوله «إنك لا ترى أحسن من زخرفه وسنائه في أي أثر قديم أو حديث - نعترف بأنه من أجمل ما تقع عليه عين بشر.

«وجامع قرطبة أقيم أيام كان الفن العربي في فجره، ثم تدرج الفن العربي إلى الكمال» (2).

هذا هو مسجد قرطبة، والذي كان - بالإضافة إلى كونه مقرا للعبادة - مجلسا للقضاء، وجامعة نشرت معارفها

---

2) حضارة العرب، لجوستاف لولون ص 353 - 354.

على الأندلس في كافة أرجائه، ونهل من ينابيعها طلاب المعرفة من أقطار شتى في أوربا.

لقد بلغت قرطبة أوج قمتها العلمية في عهد الحكم المستنصر الذي كان حب العلم آخذا بأسره، ويروى عن ولعه بجمع الكتب الكثير، فيقول ابن خلدون : «إنه كان محبا للعلوم، مكرما لأهلها، جامعا للكتب في شتى أنواعها بما لم يجمعه أحد من ملوك قبله»، وقد قدر ابن خلدون والمقري أنه كان بمكتبة الحكم نحو أربعمائة ألف مجلد، كما عمرت خزائن الأندلس في عهده بالكتب الكثيرة والمؤلفات النادرة، وكان ينفرد الحكم المستنصر عن غيره من الحكام في هذا الميدان بأنه كان يقرأ ما تصل إليه يده من الكتب، كما يتناول بعضها بالنقد أو التعليق.

يضاف إلى هذه العناية العلمية أن الحكم كان يجتهد في استقطاب العلماء الأفذاذ إلى قرطبة، ومن هؤلاء ـ على سبيل المثال ـ الشيخ أبو علي القالي العالم اللغوي المعروف، الذي أنزله لديه أكرم منزلة، فألف القالي بقرطبة كتابه المشهور «الأمالي»، وهو يتألف من المحاضرات التي كان يدرسها في جامع قرطبة المذكور، والذي أضحى جامعة على غرار الأزهر بالقاهرة والقرويين بفاس، وذلك لكثرة العلماء الذين كانوا يحاضرون فيه حول شتى ألوان المعرفة والثقافة، من علوم دينية ولغوية وطبيعية وكيميائية وطب وفلك ورياضيات وجغرافيا ورحلات، وما إلى ذلك من الفنون والآداب.

ويروى المؤرخون ـ الذين عايشوا هذه الفترة بالذات من تاريخ قرطبة ـ أن الخليفة الحكم كثيرا ما كان يعقد حلقات الدرس في قصره مع العلماء والأدباء، ويناقشهم في جو علمي بحت، وأنه عمل من جانبه على نشر الثقافة الخاصة والعامة، فأسس المدارس والمكاتب في العاصمة وفي غيرها من الأمصار بالأندلس، وكان التعليم فيها بالمجان، فأقبل عليها العديد من التلاميذ وخاصة من أبناء الطبقات العادية، كما قام الحكم بإنشاء المكتبة العامة في قرطبة، بالإضافة إلى فروع لها بنفس المدينة وغيرها من المدن، لتيسير الاطلاع وتثقيف رواد المعرفة.

والسؤال الذي يفرض نفسه بعد هذا... هو : هل كان لانشغال الحكم بالثقافة والعلوم إلى هذا الحد تأثير على أمور المملكة عامة ؟ وإلى أي مدى كان هذا التأثير ؟

والجواب... أن ذلك الاشتغال لم يكن له رد فعل على مستوى السياسة الخارجية، فإن هيبة الدولة كانت قارة في نفوس نصارى الشمال بالأندلس، وكانت صولتها تحول بين من تزين له نفسه محاولة مناوشتها. ولكن هذا التفرغ العلمي من الحاكم كان له تأثيره على السياسة الداخلية، فقد ترك أمور تصريف شئون الدولة للوزراء والقادة ورجال الدولة، وهكذا كان وزيره «الصحفي» مفوضا في كافة الشئون السياسية والإدارية، بحيث لا يرجع للخليفة إلا في القليل منها، وكان لهذا تأثيره البالغ على دفة السياسة في المستقبل، إذ بدأت تتولد من جراء هذا التفويض طبقة من كبار موظفي الدولة، وبالتالي أصبح لهم نفوذ وسلطة، خلافا لما كان عليه الشأن في عهد الناصر، ووجود طبقة كهذه أدت إلى عواقب وخيمة مستقبلا، فقد استبد الوزراء والحجاب بعدئذ بتصريف أمور الدولة، وهاهو حاجب الخليفة هشام بن الحكم (المنصور محمد بن أبي عامر 366 ـ 363 هـ = 976 ـ 1002م) تصير إليه السلطة شيئا فشيئا حتى استقل بالملك، وهو من غير بني أميه، فأقام «الدولة العامرية» أخيرا، والتي لم يقيض لها البقاء طويلا.

وبسقوط الدولة العامرية تنتقل «قرطبة» ـ كمدينة من أهم مدن الإسلام الثقافية ـ إلى منطقة الظل، وتفقد أهميتها العلمية منذ ذلك الحين شيئا فشيئا، لا سيما وأن ملوك الطوائف ثم المرابطين والموحدين لم يولوا قرطبة من العناية ما كان لها على يد الأمويين، ولا سيما في مجال المعرفة والثقافة، بعد أن تحولوا عنها إلى غيرها من مدن الأندلس، فاتخذوها عواصم بديلا عنها.

6 ـ غرناطة

يرتبط اسم غرناطة بعصر بني نصر أو بني الأحمر في الأندلس (أبريل 1238 ـ 2 يناير 1492م)، فقد كانت هذه المدينة عاصمة لملكهم الذي دام قرنين ونصفا من الزمن. ولم

تكن المدينة زمن الفتح الإسلامي (712م) سوى قرية صغيرة دخلها المسلمون عنوة، ولم يولوها يومئذ أهمية، فقد استقر جند دمشق بمدينة البيرة الواقعة شمال غربي غرناطة زمن عبد الرحمن الداخل مؤسس دولة بني أمية في الأندلس، فكانت مدينة غرناطة إحدى مدن عاصمة الإقليم (البيرة)، ولكنها بدأت تتسع شيئا فشيئا منذ القرن العاشر، ولما استولى البربر على البيرة وأحرقوها وخربوها نزح أهلها إلى غرناطة، ومنذ ذلك الحين بدأ إسم المدينة يسيطر على إقليم الكورة حتى أضحت العاصمة للإقليم.

تقع غرناطة على الضفة اليمنى لنهر شنيل، ويخترقها نهر حدرة الذي أتاح للجنان والبساتين أن تحيط بالمدينة، ويطل عليها من الشرق والغرب جبل «شلير» الذي تكسوه الثلوج صيفا وشتاء، فعرف في الإسبانية بجبل «سييرا نيفادا»، أي الجبل المكسو بالثلج. وينبع نهر حدره الذي يشق غرناطة من أعلاها، وحيث تعلو الهضبة التي تضم قلعة السلاطين وحي البيازين.

ويروي المؤرخون أن زاوي ابن زيري اتخذه المدينة عاصمة له عام 1013م حينما سقطت في أيدي البربر، ثم امتدت إليها يد حبوس الصنهاجي بالتعمير؛ فقد جعل منها مدينة محصنة بالأسوار، كما أقام قصبتها المنيعة، ولما خلفه ابنه باديس أكمل ما بدأه أبوه من عمارتها، وهكذا ازدهرت المدينة واتسعت، واستمرت عاصمة لبربر صنهاجة حتى عام 1089م، حيث جاء المرابطون بعدئذ فاستولوا عليها، وكان الصنهاجيون قد توجوا منشآتهم فيها ببناء القصر الملكي المعروف بقصر الحمراء بأعلى الهضبة التي تشرف على حي البيازين. ولم يتبق من غرناطة على عصر بني زيرى سوى بقايا لعقد كانت تقوم عليه قنطرة نهر حدره، وهي المعروفة اليوم بقنطرة القاضي.

وجاء المرابطون إلى الأندلس فاتخذوا غرناطة عاصمة لهم على ما يبدو، ثم استولى عليها الموحدون عام 1146م، وفي أواخر أيامهم تمكن ابن هود صاحب مرسية من ضم غرناطة إلى ملكه عام 1231م، وظلت المدينة كذلك قرابة ست سنوات، فما أن توفي ابن هود عام 1237م حتى قامت دولة بني الأحمر بزعامة محمد بن يوسف بن نصر بن أحمد، سيد حصن أرجونة وبسطة ووادي آش وشريش وجيان ومالقة، فاتخذ ابن الأحمر غرناطة عاصمة لمملكته التي دامت ما يقرب من قرنين ونصف من الزمان، بالرغم من حروب الإسترداد الإسبانية التي كانت قائمة على قدم وساق بين طرفين غير متكافئين عدة وعددا، وبالرغم من الحروب الداخلية التي عانت منها المملكة طوال فترة بقائها، ولعل مرد هذا العمر الذي عاشته غرناطة يعود إلى مساندة بني مرين بالمغرب، الذين كانوا يهبّون - كلما استدعى الأمر - إلى نجدة مسلمى الأندلس، بالإضافة إلى تلك المعاهدات السياسية التي كان يعقدها ملوك بني نصر مع نصارى الشمال للمهادنة أحيانا.

هذا، ويلاحظ أن موجات الهجرة الداخلية من البلاد الأندلسية المتاخمة قد بدأت - تتزايد على مملكة غرناطة، وذلك كلما سقطت في أيدي الإسبان مدينة من المدن المسلمة سواء منها الشرقية أو الوسطى، وبخاصة أولئك المسلمين الذين فضّلوا الهجرة إلى المناطق الإسلامية على الخضوع للنصارى، وقبول التدجن، فقد سقطت قرطبة عام 1236م، ومرسية عام 1236، واشبيلية عام 1248م، الأمر الذي حدا بالمسلمين واضطرهم إلى تأليف جبهة قومية لمقاومة النصارى، فكانت غرناطة ملاذهم، والقلعة الحصينة أخيرا للدفاع عن الوجود الإسلامي في الأندلس.

لقد كان من بين هؤلاء اللاجئين المسلمين إلى غرناطة أعداد ضخمة من أرباب الصناعات المختلفة والفنانين المهرة، وقد عمل كل منهم في دائرة اختصاصه بالعاصمة خاصة، حتى نهض بفضلهم فن العمارة والزخرفة، وجادت الطبيعة بوفرة من المحاصيل الزراعية، بالإضافة إلى ما كانت تجود به المناطق الجبلية من معادن نفيسة كالحديد والرصاص والنحاس، وهكذا ازدهرت وسائل العيش والمقام بتلك البقعة، ونمت الصناعات المختلفة بفضل هذه الخامات التي توفرت لتلك الأيدي النشيطة.

إن الزائر لمدينة غرناطة ليأخذه العجب،وتستولي عليه الدهشة؛ إذ يرى ما قام به سكانها يومئذ في مجال المعمار الهندسي خاصة، ولا سيما أجنحة قصر الحمراء التي أضافها ملوك

بني نصر على مر عهودهم، كباب الشريعة، وبرج قمارش، وبهو السفراء، والحمامات السلطانية، وغيرها مما لا يزال ـ حتى يومنا هذا ـ شاهد صدق على الروح السامية، المنطلقة في آفاق الجمال...، لما حوته تلك الآثار من زخارف، واشتملت عليه من نقوش، في سحر أخاذ، وجمال فتان.

الحركة العلمية في غرناطة :

لم يـأل سـلاطين بني نصر جهـدا في سبيـل نشر العلم والثقافة في ربوع مملكة غرناطة، ولا سيا في العاصمة نفسها، فقد شجعوا العلماء والأدباء والكتاب، وعمر بلاطهم بمشاهير من أمثال هؤلاء، كما عملوا على تشييد المدارس والمكتبات في المساجد ودور العلم، وكانوا يتفانون في سبيل توفير المناخ العلمي بالعاصمة إحياء لذكر قرطبة الأموية، وأملاً في أن تخلف غرناطة قرطبة في هذا الميدان، وهكذا أنشأ السلطان أبو الحجاج يوسف الأول (733 هـ/1333 ـ 1354م) أشهر ملوكهم ـ بعد المؤسس لدولتهم ـ المدرسة اليوسفية، وتسمى مدرسة غرناطة والمدرسة النصرية، وقام على تنفيذ مشروعها ـ بأمر من السلطان ـ حاجبه أبو النعيم رضوان عام 750 هـ (1349م)، وكانت تقع في درب ضيق يحاذي شارع الملكين الكاثوليكيين، تجاه المدفن الملكي، بيد أن مبناها القديم قد أزيل في أوائل القرن الثامن عشر، وأنشأت بلدية غرناطة مكانه مبنى حديثا، ولم يتبق من المبنى الأصلي سوى الجناح الذي يشتمل على محراب مسجد المدرسة، ويضم مجموعة من النقوش والزخارف، تزينها الآيات القرآنية التي انتشرت في المحراب، وتوجد بمتحف غرناطة «الأركيولوجى» بعض اللوحات الرخامية الخاصة بهذه المدرسة، منها قطع متفرقة تشكل في جملتها لوحة إنشاء هذه المدرسة، نصها :

«أمر ببناء هذه الدار للعلم ـ جعلها الله استقامة ونورا، وأدامها في علوم الدين على مرّ الأيام ـ أمير المسلمين ـ أظله الله بعونه ـ العلي، الشهير، السعيد، الطاهر، الرفيع، الهمام، السلطان المؤيد، أبو الحجاج يوسف، ابن العلي، الكريم، الكبير، الخطير، الشهير، المجاهد، الفاضل، العادل، المقدس، الأرضى، أمير المسلمين، وناصر الدين، أبي الوليد إسماعيل، ابن فرج، ابن نصر، كافى الله في الإسلام صنايعه الزاكية، وتقبل أعماله الجهادية. وتم ذلك في شهر المحرم عام خمسين وسبعمائة» (3).

وتعد هذه اللوحة واحدة من عدة لوحات خاصة بتلك المدرسة، كانت قد نزعت منها عند هدمها، ونقلت إلى مختلف المتاحف الإسبانية.

وقد نظم لسان الدين ابن الخطيب ـ وزير هذا السلطان ـ قصيدة تشيد بالمدرسة ومنشئها، وكانت منقوشة على إحدى حوائط هذه المدرسة، وتتألف من تسعة أبيات، مطلعها :

ألا هكـذا تبنى المـدارس للعلـم

وتبقى عهود المجد ثابتة الرسم

ونهايتها :

جزى الله عنى يوسف خير ما جزى

ملوك بني نصر عن الدين والعلم (4)

ويذكر أن ابن الخطيب أوقف على «المدرسة اليوسفية» نسخة خاصة من كتابه المشهور «الإحاطة في أخبار غرناطة»، اعترافا منه بيد السلطان أبي الحجاج عليه، ولانتفاع الباحثين والدارسين في المدرسة بمؤلفه التاريخي الكبير هذا، وقد ذكر في حجة الوقف أن تلك النسخة تتألف من إثنتي عشر سفرا، وسطرت الحجة بأول سفر منها، كما أوقف الحاجب أبو النعيم رضوان ـ بأمر من السلطان ـ الأوقاف الجليلة على المدرسة، حتى «جاءت نسيجة وحدها، بهجة ورصدا وظرفا وفخامة(5).

هذا، وقد تولى التدريس بهذه المؤسسة العلمية نخبة ممتازة من العلماء الذين فاخرت بهم العاصمة غرناطة، فهم ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ الشيخ أبو سعيد فرج بن لب، (701 ـ 770 هـ)، والشيخ أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري (734 ـ 770)، وهما من أشهر أساتذة هذه المدرسة، وتربطهما بلسان الدين ابن الخطيب ـ معاصرهما (713 ـ 776 هـ) صلات أدبية وعلمية، بالإضافة إلى مشاركته هو نفسه في التدريس بالمدرسة أحياناً.

---

3) يوسف الأول ابن الأحمر ـ سلطان غرناطة من تأليفنا ص 98 ـ 99.
4) المقري في «نفح الطيب» ج 9 ص 186 (تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة).
5) الإحاطة، ج 1 ص 516 ـ 517 (تحقيق عنان ـ القاهرة).

هذا، ومن جانب آخر فقد نهضت الآداب في غرناطة في عصور بني نصر الأولى (القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي)، وقد حفل بلاط معظم سلاطين بني الأحمر بشيوخ الكتاب المبرزين في الآداب، أمثال الرئيس أبي الحسن علي ابن الجياب، والشريف أبي القاسم الحسن السبتي، والوزير أبي بكر بن الحكيم، والكاتب المحدث أبي الحسن التلمساني، وغير هؤلاء كثيرون ممن اتصل عصرهم بعصر السلطان يوسف الأول أبي الحجاج، حيث بلغت الحركة الثقافية ذروة ازدهارها يومئذ ـ في المملكة عموماً وفي العاصمة بصفة خاصة، فقد اشتهر هذا السلطان نفسه بالعلم والأدب، كما شغف بالفنون ولا سيا فن العمارة، فكان طبيعيا أن يشجع المشتغلين في هذه المجالات حتى غدا بلاطه مضرب المثل في هذا الصدد.

ولقد ازدهرت حركة التأليف والتصنيف في الآداب والتراجم يومئذ ازدهاراً عظيماً، وبرزت جبهة عريضة من الأدباء المعروفين وقتئذ، نذكر في مقدمتهم ذا الوزارتين الأديب المؤرخ لسان الدين ابن الخطيب الغرناطي السلماني، صاحب المؤلفات في شتى نواحي المعرفة، بحيث عدّ إنتاجه موسوعة علمية حقا؛ فقد كتب في التاريخ والأدب والفلسفة والتصوف والطب والموسيقى والفلك والسياسة، وغير ذلك، وقد بلغ ما كتبه في هذا حوالي خمسة وستين كتاباً، فقد معظمها ـ للأسف إبان محنة نزوحه من الأندلس إلى المغرب لاجئا سياسيا في أخريات أيامه (6).

فمن مؤلفات ابن الخطيب ـ التي تنبغي الإشارة إليها في هذا المقام ـ ما يشهد بازدهار الحركة العلمية والأدبية بغرناطة في ذلك العصر :

«الكتيبة الكامنة ـ ريحانة الكتاب ـ الإحاطة في أخبار غرناطة»

ففيها يتحدث بصفة خاصة عن العديد من معاصريه وغيرهم من العلماء والأدباء والكتاب، ولا سيا في مؤلفه الأخير (الإحاطة)، وهو عشرة أسفار، والذي يخصص أجزاء منه للتراجم، وتاريخ حياة تلك الصفوة الجمة من العلماء، ومؤرخا في الوقت نفسه للحركة الثقافية في غرناطة.

6) انظر التعريف بابن الخطيب في كتابه «الإشارة إلى أدب الوزارة» بتحقيقنا ص 15 ـ 33.

وهناك العلوم المختلفة التي نبغت فيها طائفة من علماء غرناطة، كتفسير القرآن، وشرح الحديث، واستنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة، وقد اشتغل بهذا العلم في هذا العصر كثير من العلماء، من أمثال أبي القاسم عبد الله بن جُزَى الكلبي الغرناطي، المولود في ربيع الثاني من عام 693 هـ / 1296م، والمتوفى قتيلا في موقعة طريف ضحوة يوم الإثنين 9 جمادى الأولى من عام 741 هـ / 1340م، ومن مؤلفاته في هذا المضار كتاب «التسهيل لعلوم التنزيل» وكتاب «الأنوار السنية في الألفاظ السنية (7).

ومن الأعلام المشتغلين بالتصوف يومئذ طائفة من أقطاب هذا العلم، نذكر منهم أبا إسحاق إبراهيم بن يحيى الأنصاري، المولود عام 687 هـ / 1286م، والمتوفى في غرناطة عام 751 هـ / 1350م، ومن مؤلفاته «زهرة الأكمام في قصة سيدنا يوسف»، وأبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري، المولود عام 649 هـ / 1248م، والمتوفى عام 754 هـ / 1353م، ومن كتبه «بغية السالك في أشرف المسالك» في مراتب الصوفية(8).

ومن علماء القرآن في غرناطة أبو عبد الله الشريشي تلميذ ابن الخطيب ومساعده، وفي علم النحو برز شيخ النحاة بالأندلس، في عصره أبو عبد الله محمد بن علي بن الفخار الألبيري، تلقى عنه ابن الخطيب، والوزير الشاعر ابن زمرك، وقد توفي بغرناطة عام 754 هـ / 1253م.

وفي علم الجغرافيا والتاريخ نذكر في مقدمة المؤرخين لسان الدين ابن الخطيب، الذي خصص الكثير من مؤلفاته للتاريخ الإسلامي وجغرافية المغرب والأندلس، والتي منها «معيار الاختيار، في ذكر المعاهد والديار» وكتاب «نفاضة الجراب، وعلالة الاغتراب»، و «رقم الحلل في نظم الدول».

ومن المؤرخين أيضا الشيخ محمد بن يحيى بن أبي بكر بن سعيد الأنصاري المالكي، المولود عام 674 هـ / 1372م، والمتوفى قتيلا في معركة طريف، ومن كتبه «التمهيد والبيان، في مقتل الشهيد عثمان بن عفان».

7) المصدر السابق.
8) المقري في «نفح الطيب» ج 3 302.

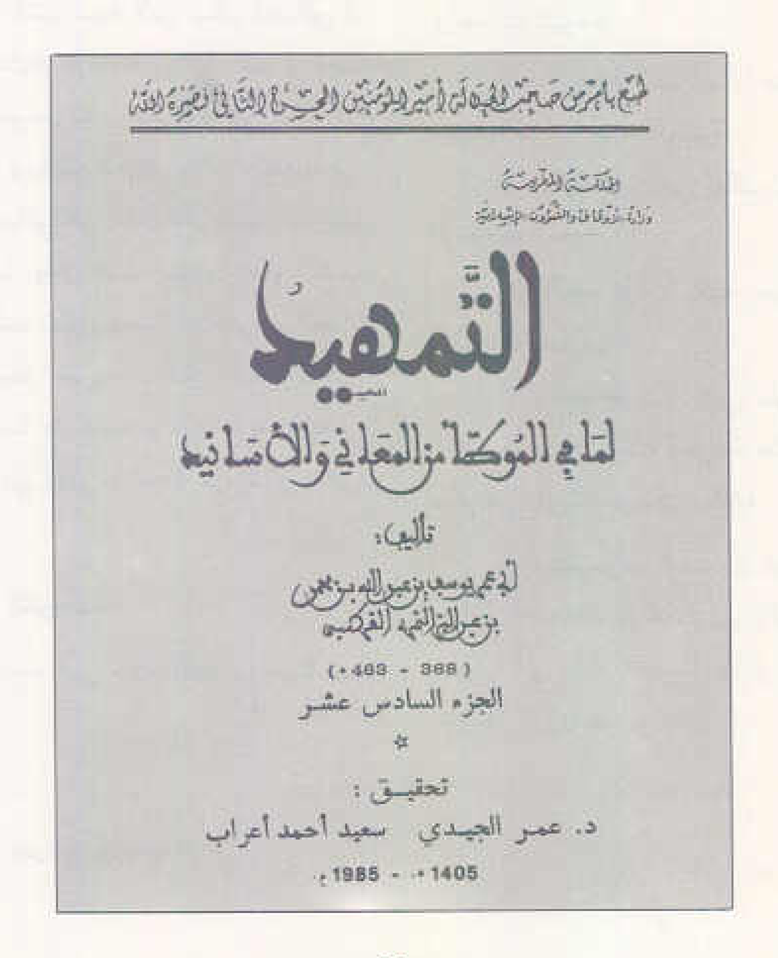
ومن المشتغلين بالرحلات أبو البقاء خالد بن عيسى، الذي سافر إلى الشمال الإفريقي، وأجتاز بلاد المشرق فيما بين عام 736 هـ / 1325م وعام 740 هـ / 1329م، ثم دوّن هذه الرحلة في كتابه الذي أسماه «تاج المفرق في تحلية علماء المشرق».

وفي مجال التخصص ظهر بعض العلماء في غرناطة، ممن كتبوا في الطب والفلسفة والعلوم والرياضة، مثل أبي زكريا يحيى بن هذيل، حكيم غرناطة وفيلسوفها، المتوفى عام 753 هـ / 1355م، فقد طارت له شهرة في هذه العلوم، وهو أحد شيوخ ابن الخطيب، ومن شيوخه المبرزين في أكثر من علم - الشيخ أبو عثمان سعد بن أحمد بن ليون التجيبي، أحد كبار الفقهاء، والذي قام بتلخيص كثير من الكتب الكبار مثل كتاب «بهجة المجالس» لابن عبد البر، كما أسهم بنصيب معلوم في علمي الفلاحة والهندسة.

وقد شارك ابن الخطيب في علوم الطب بنصيب وافر، يدل على هذا ما خلفه من تراث طبي، مثل مؤلفه «عمل من طب لمن حب» وكتابه «الأُصول لحفظ الصحة في الفصول»، وغيرهما من المؤلفات الصحية والطبية.

هذه هي غرناطة المدينة الثقافية، والمركز الإسلامي في المغرب الأُوربي، تلك العاصمة التي أضاء إشعاعها العلمي فترة ليست بالوجيزة في تاريخ الوجود العربي الإسلامي في الأندلس، والتي بقيت صامدة طيلة فترة حكم بني الأحمر الذين رعوا تلك النهضة الثقافية بالرغم من حروبهم الأهلية في الداخل، وصمودهم ومقاومتهم للنصارى الذين كانوا يتربصون بتلك القلعة الإسلامية الأخيرة، حتى سقطت أخيرا في أيدي الملكين الكاثوليكيين فرناندو وايزابيلا بالتسليم في 2 يناير 1492م.

وهكذا انتزعت غرناطة، ومن قبلها في الأندلس قرطبة كمدينتين ثقافيتين من العالم الإسلامي، بعد أن أسهمتا في الحقل الثقافي الإنساني بدور هام، شهد به المستشرقون الأوربيون في كثير من مؤلفاتهم.



أبو سالم العياشي

مصادر ترجمته وآثاره

للأستاذ عبد الله بنصر العلوي

إن لسيرة أي عالم أو كاتب أهمية كبيرة في تاريخ الأدب لتحديد العلاقة بين المجال الشخصي وبين الآثار الصادرة عنه وكذا أحوال عصره. فقد تكون تلك الأحداث والوقائع التي يتعرض إليها الشخص أو عصره تسهم في فهم بعض الظواهر الإجتماعية والفنية.

وحينما حاولنا أن نكتب سيرة لأبي سالم العياشي لم نجد مجالا واسعا لعدم عنايته بترجمته الذاتية، كما لم نجد عناية بذلك في تراجم معاصريه... ولا ضير في ذلك ما دامت آثاره تعكس عصره ورؤيته للحياة. لذلك صادفنا في محاولة تاريخ حياة العياشي في كتب مترجميه عنايتهم بشيوخه أولا وآثاره ثانيا. ولعل هذه العناية محور كتب التراجم المغربية التي قلما تحفل بحياة الشخص أو العصر، لحرصهم على تاريخ الحياة العلمية. لذلك اضطررنا إلى الاقتداء بمسلكهم فاعتنينا بشيوخه وآثاره، لرصد بعض سيرته وثقافته وشخصيته في إطار ما نملكه من إشارات في المصادر والمراجع.

مصادر ومراجع الترجمة :

المصادر التي ترجمت لأبي سالم العياشي منها ما كتبه بنفسه :

1 ـ اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر. وهي فهرسته الكبرى، عرّف فيها بشيوخه وأسانيدهم في الفقه والحديث والتصوف ومختلف العلوم الإسلامية.

2 ـ إتحاف الأخلا بإجازات المشايخ الأجلا. وهي فهرسته الصغرى، سجل فيها نصوص استدعائه الإجازة وإجازات شيوخه.

3 ـ الرحلة العياشية : ماء الموائد. وهي تسجل أخصب فترات حياته العلمية.

4 ـ الرسائل. وهي تعكس واقع العياشي في علاقاته الإخوانية.

ومن المصادر ما كتبه بعض معاصريه وأصحاب التراجم والفهارس :

5 ـ المحاضرات[1] لأبي علي الحسن اليوسي (1040 ـ 1102 هـ). أورد كتابة إخوانية يعتذر فيها عن زيارته لأبي سالم في زاويته، ويذكر مكانته.

6 ـ نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان[2] لمحمد بن قاسم بن زاكور (1075 ـ 1120). عرّف بمكانة أبي سالم العلمية، وذكر إجازته منه وسنده في الوظيفة الزرّوقية.

---

1) تحقيق محمد حجي وأحمد الشرقاوي إقبال ص 31.

2) انظر ص 84 ـ 85.

7 ـ هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام[3] لأحمد بن محمد التملي الهشتوكي (1057 ـ 1127) ذكر أبا سالم ونقل بعض رسائله وأشعاره وإشارات من الرحلة.

8 ـ الرحلة الحجازية[4] لأحمد بن محمد التملي الهشتوكي المتقدم الذكر، ذكر أبا سالم وبعض رسائله.

9 ـ الإعلام بمن غبر من أهل القرن الحادي عشر[5] لأبي محمد عبد الله بن محمد الفاسي (ت 1131). عرّف بأبي سالم، وذكر شيوخه في المغرب والمشرق، وبعض مؤلفاته، ونص قصيدته في العتاب :

أجـــل صحـــــابي أن أسيء لهم ذكرا

وأحمي لســـاني أن أقـول بـــه هجرا

10 ـ المنح البادية في الأسانيد العالية والمسلسلات الزاهية والطرق الهادية الكافية[6] لمحمد بن عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي (ت 1134). ذكر أبا سالم في الرتبة التاسعة من شيوخه، وأشار إلى شيوخ أبي سالم واجازته له ومسموعاته منه.

11 ـ جهد المقلّ القاصر في نصرة الشيخ عبد القادر[7] لمحمد بن أحمد ابن المسناوي الدلائي (ت 1136). عرف بأبي سالم وبقبيلته، وقارن رحلته برحلة ابن رشيد : ملء العيبة مما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين مكة وطيبة.

12 ـ صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر[8] لمحمد الصغير الافراني (ت 1140). عرف بأبي سالم، وذكر شيوخه في المغرب والمشرق، وبعض كراماته ومؤلفاته، ثم أورد نص محاضرات اليوسي، ونقل بعض ما جاء في الإعلام للفاسي مع نص قصيدته السابقة في العتاب.

13 ـ الثغر الباسم في جملة من كلام أبي سالم[9] لمحمد بن حمزة بن أبي سالم العياشي (ت بعد 1140). ترجم لجده بتوسع مركّزا على شيوخه ومؤلفاته، وأورد العديد من نصوصه في الشعر والرسائل. ويعتبر هذا الكتاب أهم مصدر لأدبه.

14 ـ الإحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش[10] لأبي محمد عبد الله بن عمر العياشي (ت 1169). ترجمة لأبي سالم بتوسع، وأورد كثيرا من أشعاره ورسائله.

15 ـ ترجمة أبي سالم العياشي[11] لمؤلف مجهول. وقد تبين لنا بالمقارنة أنها جزء من ترجمة الإحياء والانتعاش.

ويبدو أن الثغر الباسم والإحياء والانتعاش مما ألفه أبناء الزاوية مصدر أساسي للتعريف بأبي سالم وشيوخه ونشاطه العلمي والأدبي، بعد كتب العياشي المشار إليها، وكذا مؤلفاته الأخرى.

16 ـ التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر[12] لمحمد بن الطيب القادري (1124 ـ 1187).

ذكر اسم أبي سالم ووصف رحلته وفهرسته وإجازة عبد القادر الفاسي له.

17 ـ نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني[13] لمحمد بن الطيب القادري (1174 ـ 1187) عرف بأبي سالم، ونقل من كتاب المحاضرات وجهد المقل القاصر، وتحدث عن كثرة شيوخه ومؤلفاته وأورد نص استدعائه الإجازة من عبد القادر الفاسي، ونص إجازة هذا الأخير له، كما أشار إلى إجازاته من شيوخ مغاربة ومشارقة.

وقد أولى القادري عناية واهتماما بترجمة أبي سالم في نشر المثاني دون التقاط الدرر الذي تحدث عنه في بضعة أسطر فقط.

---

3) مخطوط خ.ع. 190 ج، ص 107 و 138 و 144 و 160...

4) مخطوط خ.ع. 147 ق.ص 71.

5) مخطوط ضمن مجموع خ.م. 3637 ز، ص 70 ـ 75.

6) مخطوط خ.ع. 1249 ك، ص 6 ـ 8.

7) مخطوط خ.ع. 579 ج، ص 10 ـ 75.

8) انظر ص 191 ـ 196.

9) مخطوط خ.ع. 304 ك، ص 3 ـ 20.

10) مخطوط مصور خ.ع. 1433 د، ص 43 ـ 371.

11) مخطوط /ميكروفيلم في 70 لوحة خ.ع. 18/1979.

12) تحقيق هاشم العلوي القاسمي ترجمة رقم 318 ص 212 ـ 213.

13) انظر الطبعة الحجرية ص 45/2 ـ 55 والطبعة المحققة لمحمد حجي وأحمد توفيق ص 254/2 ـ 264.

18 ـ البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية[14] لأبي الربيع سليمان بن محمد الحوات العلمي (1160 ـ 1231) تحدث عن العلاقة الثقافية بين الزاويتين الدلائية والعياشية من خلال المساجلات الأدبية والأسئلة العلمية بين أبي سالم والطيب ابن المسناوي، والرسائل المتبادلة بين أبي سالم وأحمد بن عبد الله الدلائي.

19 ـ السر الظاهر فيمن أحرز بفاس الشرف الباهر من أعقاب الشيخ عبد القادر[15] لأبي الربيع سليمان بن محمد الحوات (1160 ـ 1231) أشار إلى العلاقة الصوفية بين الزاوية العياشية والقادرية من خلال زيارة أحمد بن عبد القادر لأبي سالم، وأورد ماجلة شعرية قصيرة بينهما.

20 ـ الدر المنضد الفاخر[16] لمحمد بن عبد القادر الكلالي (ت 1267) ترجم لأبي سالم وذكر شيوخه ومؤلفاته، وأشار كثيرا إلى رحلته وفهرسته.

21 ـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار[17] لعبد الرحمان الجبرتي (1168 ـ 1238)، عرف بأبي سالم وذكر بعض شيوخه بالمغرب ومصر والحجاز.

ومن المراجع الحديثة[18] :

22 ـ الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي[19] لمحمد بن الحسن الحجوي الثعالبي. أشار إلى أبي سالم وبعض كتبه وأخذه عن شيوخ المغرب ومصر والحجاز.

23 ـ المنزع اللطيف في التلميح بمفاخر مولاي إسماعيل بن الشريف[20] لعبد الرحمان بن زيدان العلوي (ت 1365 هـ). عرف بأبي سالم في الباب السابع عشر الذي خصه لشعراء دولة مولاي اسماعيل، ووصف رحلته وكتبه، وذكر بعض من ترجم له.

24 ـ فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات[21] لمحمد عبد الحي الكتاني (ت 1382 هـ). ترجم لأبي سالم، وأبرز اهتمامه بعلوم الإسناد، وذكر إجازاته للعلماء. نقل عن جهد المقل وصفوة من انتشر والثغر الباسم. كما أشار كثيرا إلى فهرسته وشيوخه وأسانيده.

25 ـ تاريخ الشعر والشعراء بفاس[22] لأحمد النميشي. ذكر أبا سالم مع بعض أعلام عصره.

26 ـ اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة[23] للبشير محمد ظافر الازهري. عرف بأبي سالم، ونقل شيوخه عن كتاب الجبرتي، ومؤلفاته عن صفوة من انتشر، وبعض نصوصه النثرية والشعرية من الرحلة «ماء الموائد».

27 ـ مؤرخو الشرفاء[24] لليفي بروفنسال. ترجم لأبي سالم وعرف برحلاته العلمية إلى المشرق، وذكر بعض مؤلفاته، وتحدث عن الرحلة باقتضاب كمصدر من مصادر تاريخ المغرب.

28 ـ اليوسي أو مشاكل الثقافة المغربية في القرن السابع عشر[25] لجاك بيرك. أشار إلى العياشي وأثر الأدب والتصوف المشرقيين في رحلته.

29 ـ دراسات للشخصيات المذكورة في إجازة الشيخ عبد القادر الفاسي[26] لمحمد بن شنب. ذكر أبا سالم وأشار لبعض مؤلفاته.

14) مخطوط خ.ع. 261 د، ص : 345 ـ 352 و 427 ـ 430.

15) انظر الطبعة الحجرية ملزمة 19 ص 2.

16) مخطوط خ.ع. 1584 د، ص ؟! و 204...

17) تحقيق وشرح : حسن محمد جوهر، عبد الفتاح الرنجاوي، السيد ابراهيم سالم ص : 168 ـ 169.

18) هناك مراجع عديدة اعتمدت الرحلة والفهرسة في إشارات كثيرة. انظر ص 121 و124 و125 و126.

19) انظر ترجمته في رقم 770 ص 114/4.

20) مخطوط خ.م. 3982 ص 351 ـ 352.

21) انظر الطبعة الأولى ص 211/2 ـ 214 وانظر الطبعة الثانية ص 832/2 ـ 835.

22) انظر ص 32.

23) انظر صفحة 187 ـ 183.

24) تعريب عبد القادر الخلادي ص 184 ـ 185.

25) El youssi – problèmes de la culture Marocaine au XVIIe siecle p. 103.

26) Etudes sur les personnages mentionnés dans l'IDJAZA du cheikh Abdelkader el Fassi, par ben Chanab M. p. 4

30 ـ الأدب المغربي[27] لمحمد الفاسي. أشار إلى أبي سالم ضمن علماء المغرب ورحالته.

31 ـ التاريخ الموجز للأدب العربي[28] لمحمد بن عبد الجليل. ذكر أبا سالم ورحلته.

32 ـ الأدب العربي[29] للمستشرق هوار. أشار إلى أبي سالم ورحلته في جنوب الجزائر.

33 ـ دائرة المعارف الإسلامية، مادة العياشي[30] لمحمد بن شنب. ترجم لأبي سالم وعرف برحلاته العلمية وبمؤلفاته ومصادره.

34 ـ تاريخ الأدب الجغرافي العربي[31] لاغناطيوس يوليا نوفتش كراتشو فسكي (ت 1951م) ترجم لأبي سالم، وذكر رحلاته العلمية، وتحدث عن الرحلة وقارنها برحلتي الدرعي والزياني.

35 ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية[32] لمحمد بن محمد مخلوف عرف بأبي سالم وعدّد شيوخه وتلاميذه وبعض مؤلفاته.

36 ـ أهم مصادر التاريخ والترجمة في المغرب[33] لأحمد بن محمد المكناسي (ت 1965م). ترجم لأبي سالم وذكر بعض شيوخه ومؤلفاته ووصف رحلته.

37 ـ هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين[34] لاسماعيل باشا البغدادي. أشار إلى أبي سالم وبعض مؤلفاته.

38 ـ الأعلام[35] لخير الدين الزركلي. ترجم لأبي سالم وذكر بعض مؤلفاته وأشار إلى بعض من ترجم له.

39 ـ معجم المؤلفين[36] لعمر رضا كحالة. ترجم لأبي سالم، وذكر بعض آثاره، واهتم بمصادره.

40 ـ معجم المطبوعات العربية والمعربة[37] ليوسف اليان سركيس. ذكر أبا سالم وبعض شيوخه، وأشار إلى طبع الرحلة العياشية.

41 ـ تاريخ الأدب العربي[38] لكارل بروكلمان (ت 1956م) ترجم لأبي سالم وعرف برحلته وبعض مؤلفاته وجزء من مصادره.

42 ـ المستدرك في تاريخ الأدب العربي[39] لكارل بروكلمان. اهتم بمصادر دراسة أبي سالم.

43 ـ الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية[40] لعبد العزيز بن عبد الله. اهتم بمصادر دراسة أبي سالم، واستطرد إلى خطاب توصية حمله أبو سالم إلى والي توات، ثم بين مصنفاته في الخزائن العامة والخاصة.

44 ـ الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي[41] لمحمد حجي. أشار إلى العلاقة العلمية والصوفية بين الزاويتين الدلائية والعياشية. وأبرز علاقة أبي سالم مع الشيوخ الدلائيين.

45 ـ الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين[42] لمحمد حجي. تحدث عن أعلام زاوية آيت عياش ومنهم أبو سالم، وأشار إلى أخذه عن شيوخ المغرب والمشرق وما اجتمع له من الإجازات والروايات.

46 ـ جامع القرويين[43] لعبد الهادي التازي. ذكر أبا سالم وصلاته العلمية بالقرويين.

47 ـ مكتبة الزاوية الحمزاوية، صفحة من تاريخها[44] مقال لمحمد المنوني تحدث عن القيمة العلمية لهذه الخزانة وأبرز بعض نفائسها. وذكر ولع أبي سالم

27) La litterature Marocaine par el-fassi M. p. 533.
28) Brève histoire de la litterature arabe par Abdeljalil M. p. 211-212.
29) Litterature arabe par huart ch. p. 384.
30) encyclopédie de l'Islam p. 1/818
31) نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم ص 732/2 و 766 و 772.
32) انظر ترجمته رقم 1224 ص 314.
33) انظر ص 23 ـ 26.
34) انظر ص 478/1.
35) انظر الطبعة الأخيرة ص 129/4.
36) انظر ص 112/6 ـ 113.
37) انظر ص 1396/2.
38) Ges chi chie der arabishen litteratur p. 2/616-617
39) Suplements.... p. 2/711
40) انظر الصفحة 34/3 ـ 35.
41) انظر ص 14 و45 و64 و65.
42) انظر ص 509/2.
43) انظر ص 790/3.
44) مجلة تطوان العدد 8 السنة 1963 ص 97 ـ 177.

باقتناء الكتب بالشراء والاستنساخ من المغرب والمشرق، وتحبيس بعضها على الزاوية.

48 ـ أبو سالم العياشي[45] مقال لمحمد الأخضر. ترجم لأبي سالم، ووقف عند رحلاته العلمية في المشرق والمغرب، وذكر بعض مؤلفاته، كما اهتم بمصادر دراسته.

49 ـ الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية[46] لمحمد الأخضر. درس أبا سالم ضمن أدباء الفترة الأولى من العهد العلوي، ذكر مؤلفاته، وتحدث عن علمه وتصوفه، وعن شعره ونثره، موردا بعض النصوص والمصادر.

ولعل ما كتبه محمد الأخضر يعد أبرز دراسة عن العياشي وأدبه.

50 ـ مدينة واركلة في رحلة العياشي[47] مقال لبلحميسي مولاي. وعرّف بأبي سالم وبرحلاته وبعض آثاره، وحلل أخبار المدينة كما وردت في رحلته.

51 ـ أطوار العلاقات المغربية العثمانية[48] لابراهيم شحاتة حسن. ترجم لأبي سالم وبين مذهبه في الاعتقاد والتصوف، وذكر ميله نحو النخبوية في تعداد الإجازات ونحو الشعبية في رحلته (!) وقارن بين المنظور المغربي والمنظور العثماني للواقع الإسلامي في عصره.

52 ـ مع أبي سالم العياشي في رحلته للمشرق[49] مقال لعبد القادر زمامة. أشار إلى أثر الزاوية العياشية في تربية أبي سالم الصوفية، وذكر رحلاته إلى المشرق. ورافقه في رحلته ماء الموائد في إطارها الزمني والعلمي والجغرافي.

53 ـ مقدمة كتاب «التيسير» في إحكام التسعير[50] لموسى لقبال. أشار كثيرا لأبي سالم وعلاقته بأحمد بن سعيد المجيلدي مؤلف الكتاب وحلل رسالة أبي سالم إليه «تعداد المنازل».

54 ـ مقدمة تحقيق كتاب التقاط الدرر[51]... لهاشم العلوي القاسمي.

55 ـ الفقيه اليوسي[52] للأستاذ الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري. عرف بأبي سالم وآثاره.

56 ـ أبو عبد الله محمد الصغير الافراني، عصره، حياته وثقافته[53] لمحمد العمري. أورد ترجمة قصيرة لأبي سالم ذكر فيها رحلاته وبعض شيوخه.

57 ـ فهارس علماء المغرب[54]... لعبد الله المرابط الترغي عرف في ملحق الأعلام بأبي سالم وذكر شيوخه ورحلاته، وأشار إلى نشاطه العلمي وبعض مؤلفاته.

آثاره ومؤلفاتــــه

أولا ـ في الشعــر :

1 ـ لا نملك ديوانا كاملا لاشعار أبي سالم ـ ولعله لم يهتم بجمعها ـ فمصادره تتوزع على كثير من المخطوطات من خلالها نحاول صنعه.

أ ـ فهناك المجموعات الشعرية :

ـ الرحلة العياشية «ماء الموائد»[55] لأبي سالم العياشي، أورد فيها بعض قصائد المديح النبوي والمناسبات.

ـ الثغر الباسم في جملة من كلام أبي سالم[56]

45) انظر المقال بمجلة اللسان العربي ـ يناير 1970 ص 307، مجلة الثقافة المغربية ـ مارس 1970 ومجلة دعوة الحق ـ يونيو 1973 ص 167.

46) انظر ص 89 ـ 101.

47) انظر المقالة بمجلة تاريخ وحضارة المغرب، كلية الآداب الجزائر ـ يناير 1970 ص 41 ـ 51.

48) انظر صفحة 358 ـ 363.

49) انظر المقال بمجلة المناهل العدد 27 ص 156 ـ 168.

50) انظر صفحة 20 ـ 22.

51) انظر صفحة 196 ـ 197 وانظر هامش 1 ص 213 من تحقيق التقاط الدرر.

52) رسالة مرقونة بدار الحديث الحسنية.

53) رسالة مرقونة مع تحقيق كتاب المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل، بكلية الآداب بالرباط، صفحة 24 هامش 1.

54) رسالة مرقونة بكلية الآداب بفاس، ص 732/3 ـ 733.

55) راجع المخطوط منها والمطبوع.

56) انظر مخطوط خ.ع. 304 د، ص 21 ـ 44 و62 ـ 89 و189 ـ 267 ـ 279 ـ 318 و323 ـ 330 و342 ـ 350. ويقع هذا المخطوط في 411 ص، مسطرة بين 28 و38، مقياس 160/220، خط مغربي حسن ومختلف، خال من تاريخ الجمع والنسخ، واسم الناسخ. والمخطوط به بتر وخلط في ترتيب صفحاته، وبه بعض الخروم. ولا نعلم نسخة أخرى لهذا المخطوط.

لحفيده محمد بن حمزة بن عبد الله العياشي. ويضم أكبر مجموعة شعرية رغم ما يتخلله من بتر.

- إرفاد الوافد القاصد وبرد غلة المسترشد الراشد بإنشاء الشارد من شعر الجد والوالد، ومشيد بعض الأسانيد والمساند[57] لحفيده محمد بن حمزة ابن عبد الله العياشي. ولا نعرف القدر الذي يحتويه من أشعاره، ولا شك أنه دون ما أورده في الثغر الباسم.

- الإحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش[58] لعبد الله بن عمر بن عبد الكريم العياشي. يضم جزءا لا بأس به من قصائد أبي سالم ومقطوعاته.

ب - وهناك مختارات شعرية في المديح النبوي خاصة تشتمل على :

- الوتريات[59] وهي قصائد مرتبة قوافيها على حروف المعجم، نظمها أبو سالم في عام 1072 هـ.

- التوجيهات[60] وهي قصائد منظومة على بحور الخليل.

ج - وهناك قصائد مفردة وردت مستقلة أو ضمن كثير من المجاميع :

- «الكواكب الدرية في مناقب أشرف البرية»[61] وهي تخميس لبردة البوصيري (من البسيط).

- قصيدة (من المجتث).

يـــــا راحـــــلا بـــــسلامـــــة
وقيت كـــــلّ مـــــلامـــــه[62]

- قصيدة (من الطويل) :

أجـــل صحـــابي أن أسيء لهم ذكرا
وأحمي لســـاني أن أقـــول بـــه هجرا[63]

- قصيدة (من البسيط) :

تلـــك المنـــازل أين الصب مـــا فعـــلا
هـــل قرت العين منـــه بـــالـــذي ســـألا[64]

- قصيدة (من الخفيف) :

يـــا نبي الإلـــه يـــا ابن ســـنـــان
خـــالـــدا جـــد لخـــائف بـــأمـــان[65]

- قصيدة (من المتقارب) :

أمـــولاي عبـــد الســـلام الســـلام
عليكم من اللـــه وهـــو الســـلام[66]

- قصيدة (من الطويل) :

أمـــولاي إني مـــوقن بـــك مسلم
ببـــابـــك داع مشتـــك متظلم[67]

---

57) مخطوط بخط مؤلفه، سفر وسط، يوجد بالخزانة القاسية، انظر دليل مؤرخ المغرب الأقصى لعبد السلام بنسودة ص 178/1 رقم 675.

58) مخطوط مصور عن فيلم خ.ع. 1433 د، أورد مؤلفه بعض أشعار أبي سالم في ترجمته ص 43 - 171، وهذا المخطوط في 312 ورقة، مسطرة 30، مقياس 190/290، خط بدوي مختلف، وبه كثير من التقاييد.

59) مخطوط الخزانة الحمزاوية رقم 226 مبيضة المؤلف بخط يده، تحتوي على ثلاثين قصيدة مرتبة قوافيها على الأبجدية المغربية ص 2 - 27 ولها ميكروفيلم خ.ع. 194 نتف منها في الرحلة ص 9/1 - 11.

60) توجد الوتريات والتوجيهات معا في عدد من المخطوطات :
- مخطوط خ.ع. 1773 ك ضمن مجموع ص 5 202 مسطرة 11، مقياس 175/225، خط مختلط واضح ملون. تضم 42 قصيدة : 30 وترية، 12 توجيهية، وقع الفراغ من انتساخها في 19 شوال 1258 على يد عبد الرحمان بن عبد الله بن أحمد العياشي. وهذه نسخة لم تكن معروفة عند الباحثين لكونها لا تحمل اسم مؤلفها.
- مخطوطة الأستاذ محمد المنوني ضمن مجموع ص 81 - 255، مسطرة 11، مقياس 175/225، خط بدوي واضح ملون. وقع الفراغ من انتساخها في 19 شعبان 1272 على يد محمد بن عبد الوهاب.
- الثغر الباسم ص 66 - 76، 186، 190، 215، 224، 248، 251، 251، 279، 283، 291، 308، 313، 316.

61) مخطوط خ.ع. 2155 ك يقع في 29 ص، مسطرة 18، مقياس 200/150، خط مغربي جميل ملون/ الثغر ص 316 - 319.

62) مخطوط خ. ع. 47 ك ضمن مجموع ص - 9 - 14، مسطرة 12، مقياس 160/225 خط مغربي وبدوي التعرض 316 - 319.

63) الصفوة ص 193 - 196/ الثغر ص 354 - 356/ الأعلام بمن غبر ص 72 - 75/ الأحياء ص 119 - 121.

64) تعداد المنازل ص 315 - 316/ الثغر ص 207.

65) هداية الملك العلام للهشتوكي مخطوط خ.ع. 190 ج، ص 138 الرحلة ص 415/2، الثغر ص 307.

66) الحسام المشرفي... مخطوط خ.ع. 2276 ك ص 119/ الثغر ص 323 - 324.

67) الأزهار العطرة الأنفاس للكتاني ص 281/ الثغر ص 87 احياء ص 30.

ـ قصيدة (من الكامل) :

حصني إذا خـــان الـزمـــان ونــاصري

شيـخ الشيـوخ محمـــد بن تـــاصر[68]

ـ قصيدة (من المتقارب) :

ولمـــا بـــدا فضلكم ســـائـــلا

أتيت إلى بـــابكم ســـائـــلا[69]

ـ قصيدة (من الطويل) :

إلهي وفقني بمـــا قـــد رضيتـــه

وترضى بـــه عني ومنّ على ضعفي[70]

ـ مقطوعة (من الوافر) :

وعـــدتم في الثـلاثـــاء أن تـــزوروا

فطـــال الأربعـــاء بـــلا انتظـــار[71]

ـ أبيات (من البسيط) :

يـــا صـــاحبي فمـــا العمر بـــأجمعـــه

وإن تطـــاول من يـــوم السرور بـــدل[72]

ـ قصيدة : «نفثة المصدور إلى الاخوان والصدور».

(من الطويل) :

أحبتنـــــا أهـــــل التقى والمبرة

بفـــاس بقيتم دائمـــا في مسرة[73]

ـ قصيدة (من البسيط) :

انـا لـــك المجـد مـوروثـا ومكتسبـا

زكـــاء الأصـل وفرع أثمر الحسبـــا[74]

ـ قصيدة (من الطويل) :

أمـولى غـــدا حر الكـلام لـــه مـولى

وبحر نـــدى لم يخش وارده هـــو لا[75]

ـ بيت مدح (من البسيط) :

من فـــاتـــه الحسن البصري يصحبـــه

فليصحب الحسن اليـوسي يكفيـــه[76]

ـ بيتان في مساجلة (مجزوء الرجز) :

عـــــذرا فقـــــد أذهلني

شغـــــلا لعقلي خـــــامرا

فـلـــم أقـــم بـحـقـكـم

يـــا سيـــدي كمـــا ترى[77]

ـ بيتان في العزاء (من الطويل) :

ومـــا نحن إلا عشبـــة المـوت أنبتت

بـــأرض الردى فـــالنبت ذاو، ومحصـد

ولـو كـــان حيـــا يستجـــاز بقـــاؤه

لـــك بـــه أولى النبي محمـــد[78]

د ـ وهناك مقطوعات أو قصائد من شعر أبي سالم وردت في بعض التراجم الحديثة، نقلا عن الرحلة العياشية أو الثغر الباسم أو الاحياء والإنتعاش :

ـ اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة للبشير الأزهري[79].

ـ النبـوغ المغربي في الأدب العربي لعبـد اللـه كنون[80].

68) الدرر المرصعة... للناصري مخطوط خ.ع. 2261 ك، الباب السادس /الثغر ص 22/ الأحياء ص 52.

69) النشر (ط.ح) ص 49/2/ (ط.م) ص 258/2/ الثغر ص 7 / الأحياء ص 49.

70) مجموع مخطوط خ.ع. ص 43 ك، ص 302/ الأحياء ص 129.

71) رياض الورد لابن الحاج مخطوط خ.ع. 111 د، ص 139/ الأحياء ص 157.

72) رياض الورد... ص 137 ـ 138/ الوجادات لعبد القادر زمامة بمجلة دعوة الحق العدد 9 ـ 10 السنة 11.

73) الرحلة ص 69/1، 76.

74) البدور الضاوية... للحوات ص 427/ الرحلة ص 387/2/ الاحياء ص 151.

75) البدور الضاوية ص 428/ الرحلة ص 385/2.

76) المحاضرات 32/ الصفوة ص 209.

77) السر الظاهر فيمن أحرز بفاس الشرف الباهر في أعقاب الشيخ عبد القادر ملزمة 19 ص : 2. والبيان مساجلة مع أحمد بن عبد القادر إمازار مع ابني عمه الزاوية العياشية.

78) أدب الفقهاء لعبد الله كنون ص 179 ـ 180. ولم يذكر مصدر البيتين.

79) انظر ص 179 ـ 183.

80) انظر ص 79/3 و155 و156.

ـ الحياة الأدبية على عهد الدولة العلوية لمحمد الأخضر[81].

ثانيا ـ في الرسائل :

2 ـ ولأبي سالم مجموعة من الرسائل الإخوانية[82] يتحدث فيها عن الشوق والمودة والهجر والعتاب، ومن أبرز رسائله الموجهة إلى عثمان بن علي اليوسي وعبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي والحسن ابن مسعود اليوسي... وتتميز هذه الرسائل بمزاوجة الشعر والنثر والعناية بالتعبير والإلتزام بالفواصل والأسجاع.

وقد عرف عصر اليوسي رواجا كبيرا للرسائل الإخوانية التي تعكس العواطف الذاتية والأحداث الإجتماعية والسياسية والأدبية[83].

3 ـ هناك رسالتان مطولتان يتحدث فيهما أبو سالم عن مسائل نقدية في اللغة والشعر، الأولى «المغربيات بمحاسن الوتريات»[84].

ينقد فيها مجموعة شعرية لأحد أصدقائه، فيبرز ضرورة معرفة اللغة والعروض ومفهوم شعر المديح النبوي والسرقات الأدبية.

والثانية[85] نقد لقصائد بعض طلبة وادزيز في مدح الرسول، فيبرز أن اللحن والخطأ والكسر سوء أدب في مقام الرسول، ويثير قضايا فنية تتعلق بالشعر، ويوصي بضرورة التزام آداب النبوة.

ويطبع الرسالتين طابع تعليمي، فيفيض بالشرح والتحليل، ويكثر من النصح والتوجيه.

ثالثا ـ في الرحلات :

4 ـ الرحلة العياشية : «ماء الموائد».

وسنقف عليها في مبحث خاص. نظرا لأنها أبرز مؤلفاته، وأكثرها شيوعا، ونظرا لموسوعيتها بما اشتملت عليه من العلوم الإسلامية.

5 ـ تعداد المنازل[*]

وهي تقرير عن الرحلة الحجازية في كراسة صغيرة كتبها لتلميذه أحمد بن سعيد المجيلدي لما اعتزم أداء مناسك الحج والعمرة، فقدم له نصائح لمساعدته على قطع المسالك، وعرفه ببعض ما يحتاج إليه من معرفة منازل الطريق واختلاف أحوالها، وما يستعين به لكل موضع، وما يتلقى من شدائد وأمور لا تنوب فيها المكاتبة عن المشافهة. لذلك تقدم هذه الكراسة أسماء المنازل التي يمر منها الركب ومدة زمن قطعها. ويبرز طبيعة هذه المنازل من حيث مواطن الآبار والتزود بالقوت والعلف وتغيير الدواب. ويحلل الواقع الإجتماعي للحذر في مدى توفر إلا ما يسود الركب من نزاع. ويعرّف بالوضع الفكري من خلال زيارة العلماء والأولياء وذكر الكتب والأوراد. كما تبين الحالة الإقتصادية للركب في علاقاته مع تجار المنازل التي يصلون إليها والتزود بإنتاجها المحلي.

وهذه الكراسة تعكس شخصية أبي سالم ومدى إلمامه بكل المشاكل التي يتعرض لها الرحلة في حله وترحاله،

---

81) انظر ص 93 ـ 99.

82) انظر رسائل الأسرة العياشية منها واليها، ضمن مجموع بالخزانة الحمزاوية رقم 255 ص : 2 ـ 28/ ميكروفيلم خ.ع. 211.
ـ الثغر الباسم ص 100 ـ 131.
ـ الاحياء والانتعاش.
ـ هداية الملك العلام للهشتوكي ص 107.
ـ رحلة الهشتوكي ص 71.
ـ رسائل اليوسي ص 107/1.

83) رسائل اليوسي، مقدمة المحققة فاطمة خليل القبلي ص 107/1.

84) انظر الثغر ص 359 ـ 370/ ويذكر عنوانها : المحاسن بإصلاح الوتريات ص 15.

85) الثغر 370 ـ 411.

*) مخطوط خ.ع. 43 ك ضمن مجموع من ص 303 ـ 316، مسطرة 26 مقياس 150/198، خط مغربي وسط ملون مجدول. خ.ع. 2793 د/ خ.ع. 2839 د.
وقد ترجمها محمد الأخضر إلى الفرنسية نشرت بالجزائر عام 1939 وقد سماها البعض بالتعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز. انظر محمد المنوني : مصادر عربية من تاريخ المغرب مقال بمجلة كلية الآداب الرباط العدد 9 ص 259.
وانظر موسى القبال في مقدمة تحقيقه لكتاب أحمد بن سعيد المجيلدي «التيسير في أحكام التسعير» ص 21، وأورد في الملحق التاسع مقدمة هذه الرسالة ص 119 ـ 120.

فتصور عمق تجربته الإجتماعية في علاقاته مع كل الأوساط من فضلاء وبسطاء، وتعمق حسن إطلاعه على الناحية العلمية في كل المنازل، كما تجعله على إدراك بنوازل الركب وعلى علم بدقائق مسالك المنازل وبأحوالها المناخية والأرضية والبشرية والحضارية.

ويختم أبو سالم هذا التصنيف بقصيدة في مدح الرسول استهلها بمقدمة طللية (من البسيط) :

تلك المنازل أين الصب ما فعلا

هل قرت العين منه بالذي سألا

وقد انتهى أبو سالم من وضعها صبيحة يوم الخميس الثامن والعشرين من الربيع النبوي عام ثمانية وستين وألف. وبذلك تكون هذه الكراسة قد ألفت قبل تأليف الرحلة «ماء الموائد» بمدة، فكانت مصدرا لتأليف أدبي كبير، أتاحت له الرحلة الحجازية الثالثة الفرصة لاستكمال مقوماته.

رابعا ـ في الفهارس :

6 ـ اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر.[86]

أو مسالك الهداية إلى معالم الرواية، أو العجالة الموفية بأسانيد الفقهاء والمحدثين والصوفية. وهي فهرسة أبي سالم العياشي الأولى والكبرى، تدل على عنايته بشيوخه والعلوم التي درسها عليهم وأسانيدهم في تلقيها. وقد دعاه إلى كتابتها ما لمسه من ضعف في رواية العلماء حتى «شغر منهم الزمان، وخلت منهم الأوطان، واتخذ الناس رؤوسا جهالا، وأفتوا بغير علم استهالا، وتلقوا العلم في بطون الصحف تقليدا، وصار المتشبث بالرواية بينهم بليدا»[87] وكان أول معاناته للطلب كلفه بالرواية فوضع فهرسته. فذكر أولا المشايخ الذين لقيهم وأخذ عنهم بالمغرب فمصر والحرمين. وذكر ثانيا المشايخ ممن تلقى منهم التصوف وممن كان لهم التصرف في طريق التصوف. وذكر ثالثا الكتب التي درسها وشيوخه الذين درسوها فبدأ بالحديث المسلسل بالأولية، ثم الكتب المشهورة وأسانيدها، وختمها بسياق النادرات في الأحاديث العشاريات للسيوطي مضيفا إلى سندها ثلاث وسائط.

وقد وضع هذه الفهرسة إجازة لتلميذه أحمد بن سعيد المجيلدي[88] على ما هو منصوص في متنها[89]. ويقول عنها محمد عبد الحي الكتاني أنها : «ثَبَت حلو السياق جيد الأسانيد نفيس الإختيار لا ألطف منه في أثبات المغاربة بعد فهرس ابن غازي» وينقل رأي أحد العلماء «من أراد أن يعرف قدر مبلغ أبي سالم في العلم فليطلع على كتابه اقتفاء الأثر... يجد بحرا لا ساحل له[90]. ويتتبع أسانيدها التي يتواتر بعضها إلى عصره[91].

وقد فرغ أبو سالم من تأليفها في 27 ربيع الثاني عام 1068. وتعد فهرسة اقتفاء الأثر مصدرا لكتاب التراجم اعتمدوا عليها في تصانيفهم[92].

7 ـ إتحاف الأخلا بإجازات المشايخ الأجلا[93].

86) مخطوط خ.ع. 956 د، 2173 د، 70 ج، 280 ق.
خ.م. 3917.
الخزانة الصبيحية بسلا 756.
راجع فهرس الفهارس للكتاني ص 23/2 ـ 24/ فهارس علماء المغرب لعبد الله المرابط رسالة مرقونة ص 198 ـ 201، 628 ـ 629 انظر عدة إشارات ص 49، 45، 57، 69، 71، 72، 78، 163، 165، 168...

87) اقتفاء الأثر مخطوط خ.ع. 2173 د، ضمن مجموع ص 26 ـ 64 تنقصها الورقة الأخيرة. مقياس 140/190 مسطرة 13 خط مغربي وسط دقيق.

88) أحمد بن سعيد المجيلدي (ت 1094) من كبار فقهاء المغرب، تولى القضاء بفاس ومكناس له مصنفات فقهية كثيرة. راجع النشر ص 77/2/ الالتقاط ص 226/ فهرس الفهارس ص 420/1/ مقدمة موسى القبال في تحقيق التيسير في أحكام التسعير ص 14 ـ 21.

89) يذكر القادري في ترجمة عثمان بن علي اليوسي أن نفس الفهرسة اقتفاء الأثر منحها العياشي إجازة له. النشر (ط.م.) ص 206/2.

90) فهرس الفهارس ص 24/1.

91) ن.م. ص 24/2، 96، 212...

92) راجع القادري في التقاط الدرر : تراجم 299، 272...
ـ الناصري في الروض الزاهر ـ الباب السادس.
ـ الكردودي في الدر المنضد الفاخر.

93) مخطوط، انظر في آخر الرحلة العياشية مخطوطة خ.ع. 583 ك ص 479/2.
ـ نسخة المؤلف بخطه الخزانة الحمزاوية رقم 182
ـ خ.م. 173، 3778 ـ خ.ع. 1421 ك.
راجع فهرس الفهارس ص 118/1 /فهارس علماء المغرب ص 100 و130.

وهذا المصنف هو الفهرسة الثانية أو الصغرى جمع فيها أبو سالم مجموع استدعاءاته لكثير من علماء مصر والحجاز، طالبا فيها الإجازة لنفسه ولغيره من شيوخ بلده، ثم يتبع ذلك بنص إجازات المشايخ، ذاكرا عقب كل إجازة ما يصل حبلها بحبال الأئمة المشهورين[94].

ويحرص أبو سالم على هذه الإجازات لكلفه بالرواية، ولوفور رغبة إخوانه في ذلك. ومن الشيوخ المجيزين : ياسين الخليلي والخياري والكوراني والثعالبي والحنفي والمشرقي والقاسمي والغزي والديري والماموني والبابلي والخرشي[95].

وقد اهتم بهذه الفهرسة كثير من علماء المغرب لشمولية الاستدعاء والإجازة فرووها بأسانيد متعددة[96]. كما عدها أحد الباحثين من مصادر تاريخ المغرب الدفينة[97].

8 ـ الإجازة النظمية[98]

نظم أبو سالم بعض أسانيد العلوم التي أخذها عن شيوخه وقد كتبها باسم ولده أبي محمد حمزة وولد أخيه محمد بن عبد الرحمان. وتشتمل هذه الإجازة على عشرة فصول تضم : إسناد تلقين الذكر، وسلسلة الفقه، وإسناد القراءات، والحديث، والبيان، والنحو، وأصول الدين، وسند مختصر السنوسي، والخزرجية[99].

وقد اهتم بهذه الإجازة النظمية بعض علماء المغرب فرووها بأسانيد متعددة[100].

9 ـ وسيلة الفريق بائمة الطريق[101]

يتوسل أبو سالم في هذه المنظومة بشيوخه في التصوف فيذكر أسماءهم وأسانيدهم وعلومهم.

10 ـ المسلسلات العشرة المنتخبة[102]

المسلسلات عبارة عن مرويات الحديث المسلسل ويحرص على ذكر سنده معظم الشيوخ الذين يهتمون برواية حديث رسول الله : «الراحمون يرحمهم الرحمان، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء». ويختار العياشي أعلى السند وأقومه فيذكر المسلسلات بالأولية في أحاديث رسول الله في المصافحة، والمشابكة، والضيافة، والسبحة، والذكر، وأشهد بالله، وأشهد لله، ويده ﷺ على كتفي، وبقراءة الصف، وبالسؤال عن الاسم وتوابعه.

ولعل العياشي يهدف في حرصه على أسانيد هذه المسلسلات إلى وصل السند بالنبي ﷺ حتى يتم الإنتساب إليه وإلى أصحابه والسلف الصالح على وجه مخصوص.

خامسا ـ في التصـوف

11 ـ تنبيه أهل الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية[103]

مصنف صوفي يبرز مفهوم أبي سالم للزهد في عصر قل فيه طلب الحلال وكثرت فيه وسائل الحرام. وتتكون هذه الكراسة من مقدمة وخمسة فصول وخاتمة. تبحث كلها

---

94) اتحاف الاخلا مخطوط خ.ع. 421 ـ 1 ك ص 1 ـ 43.
95) راجع تراجمهم في مبحث شيوخ أبي سالم.
96) انظر سند محمد عبد الحي الكتاني في فهرس الفهارس ص 118/1 /وكذا سند ابن عبد السلام الناصري ن.م.
97) المصادر الدفينة في تاريخ المغرب لمحمد المنوني مقال بمجلة البحث العلمي العدد 10 السنة 4 ص 15.
98) مخطوط. راجع فهرس الفهارس ص 123/1/ دليل مؤرخ المغرب ص 372/2 رقم 1623.
99) فهرس الفهارس ص 123/1 وتقع هذه المنظومة في 254 بيتا.
100) راجع سند أحمد بن عبد العزيز الهلالي ومحمد عبد الحي الكتاني في فهرس الفهارس ص 123/1.
101) مخطوط، انظر خ.ع. 1254 ك، ضمن مجموع ص 586 ـ 616.
ـ الثغر ص 268 ـ 279.
ـ الدرر المرصعة لابن ناصر الدرعي مخطوط خ.ع. 265 ك، ص. 380 ـ 393/ وتقع هذه المنظومة في 304 بيت.
102) اقتفاء الأثر مخطوط خ.ع. ضمن مجموع 2173 د، ص 26 ـ 64.
ـ أشار عبد العزيز بن عبد الله في الموسوعة المغربية ص 33/3 إلى وجود نسخة في خزانة الاسكوريال في ص 79 من فهرسه. وقد أورد عنوانها : المسلسلات العشر المنتبدة، وفي ذلك تحريف لاريب.
ـ عيون الموارد السلسلة وعيون الأسانيد المسلسلة لمحمد بن الطيب الصميلي مخطوط خ.ع. 10916 ز نقل بعض المسلسلات عن العياشي ص : 21 ظ، 58 و.
103) مخطوط. انظر خ.ع. 1388 د، ضمن مجموع ص 219 ـ 237 مسطرة 24 مقياس 150/200، خط بدوي، نسخة عن الأصل الصديق أحمد الاراري في 22 محرم 1273.
وانظر مخطوط خ.م. 7661.

في تحقيق شروط الزهد، فيوصي بعدم أكل الدنيا بالدين حفاظا على صلاح الدين، ويأمر بالإكتفاء بالقليل من القوت فإن الماء والتمر من النعيم، ويذكر أن الله يعطي الآخرة لمن يحب فحسب. ويرى أن إقبال الدنيا علامة على الإعراض عن الله. ويؤكد على ضرورة اللجوء إلى الله تعالى في كل وقت، واستحضار معايب الدنيا ومذامها والإكثار من تصوير ذلك في القلب. ويرى أن مما يقوم السلوك ويعين على الزهد التمرس بمطالعة كتب الصوفية ككتب الغزالي وابن عطاء الله وابن عاشر.

ويبدو أن العياشي ألف هذه الكراسة لبعض الطلبة أو المريدين لما فيها من تبسيط وتحليل لا يخلو من بعض العمق وثاقب الرأي، وإن كانت لا تجنح إلى التأمل والكشف، كما لا تشير إلى الطرقية والتزام الأذكار. لأن المؤلف يهدف إلى وضع الخطوة الأولى في طريق الزهد والتصوف، وذلك بالتنبيه إلى الإعراض عن مظاهر الدنيا الفانية بمراقبة السلوك ومعرفة التجارب.

وقد ألف العياشي هذا التنبيه في بعض أسفاره لبلدة أوطاط وقد انتهى منه يوم الجمعة الخامس عشر من شهر ذي القعدة عام سبعين وألف[104].

12 ـ إظهار المنة على المبشرين بالجنة[105]

13 ـ معارج الوصول إلى أصول الأصول[106]

وهي نظم «لأصول الطريقة وأسس الحقيقة» للشيخ زروق، ذات المبادىء الخمسة[107].

14 ـ هالة البدر في التوسل بأهل بدر[108].

وهي نظم توسل فيه العياشي بالصحابة من أهل بدر المهاجرين منهم والأنصار[109].

15 ـ تضمين صوفي لأبيات من ألفية ابن مالك[110]

ضمن فيه العياشي بعض أشطار ألفية ابن مالك في معان صوفية، محاولة منه لنحو القلوب[111].

سادسا ـ في التوحيد والفقه :

الحكم بالعدل والإنصاف، الرافع لخلاف، فيما وقع بين فقهاء سجلماسة من الإختلاف، في تكفير من أقر بوحدانية الله وجهل ما له من الأوصاف[112].

وهو من الكتب المهمة التي يسجل فيها العياشي أبرز الصراعات الفكرية التي عرفها عصره. فقد أحدثت دعوة محمد بن عمر بن أبي محلي[113] ضجة كبيرة حيث دعا العوام إلى ضرورة «إزالة المنكرات بالعقائد الإيمانية والمعارف الدينية»[114]، وذلك بالتزامهم التعرف على «الصفات الإلهية ومعانيها ومتعلقاتها»[115]. فمن «لم يعرف التوحيد على الوجه الذي ذكره السنوسي، ومن لم يعرف النفي والإثبات في كلمة الإخلاص، فهو كافر لا يضرب له في الإسلام بنصيب»[116]. ولا يعذر أحد لجهل أو خطأ، حتى وقعت فتنة عظيمة في سجلماسة ومراكش[117]. وقد

---

104) تنبيه أهل الهمم مخطوط خ.ع. 1388 د، ص 237.

105) ذكره العياشي في الرحلة ص 420/2. ولا نعلم نسخة منه، ولعله يقع في كراسة.

106) انظر ـ الثغر ص 330 ـ 335.
ـ مخطوط خ.م. 2840.
ـ ميكروفيلم خ.ع. 155 ر.
ـ راجع أحمد زروق والزروقية لعلي فهمي خشيم ص 126.
ـ شرح محمد بن قاسم جسوس للمنظومة : انظر :
ـ خ.ع. 2795 د ضمن مجموع ص 38 ـ 44.
ـ خ.ع. 1674 د ضمن مجموع 292 ـ 296.
ـ خ.م. 2827.
ـ راجع الموسوعة المغربية ص 35/3، 91.

107) تقع في مائة وثمانية وعشرين بيتاً.

108) انظر الثغر ص 260 ـ 267.

109) تقع في مائتين وتسعة أبيات.

110) الثغر ص 335 ـ 341.

111) تقع في مائة وأربعة وخمسين بيتا.

112) مخطوط ـ خ.ع. 39 ك، 137 ص، مسطرة 20، مقياس 175/213، خط مغربي حسن ملون خال من تاريخ التأليف والنسخ واسم الناسخ.
ـ خ.م. 1740.

113) راجع ص 46 هـ.

114) الحكم بالعدل والإنصاف. مخطوط خ.ع. 39 ك ص 3.

115) نفس المصدر.

116) الصفوة ص 192.

117) المحاضرات ص 226.

رد عليه كثير من علماء العصر كمبارك العنبري[118] والحسن اليوسي[119] وأبي سالم العياشي.

ويذكر العياشي في مؤلفه الضخم خطب هذه الدعوة الفظيع الذي ألم بالمسلمين، فيناقش أصحابه في أمر الإعتقاد، ويدحض دعاويهم بكثرة الأدلة النقلية والعقلية، وقد أكبر من شأن هذا المؤلف محمد عبد الحي الكتاني قائلا : «**وهو كتاب عظيم يدل على اطلاع وافر وملكة واسعة يصلح أن يكون ردا على الوهابية ومن اشتمل بحلتهم ممن يرون الحرص والتشديد في التدقيق على عوام المؤمنين، فمطالعته الآن على أمل العلم متعينة والتمسك بما فيه على غير رام متأكد**»[120].

17 ـ معونة المكتسب وبغية التاجر المحتسب[121]

نظم فيها أبو سالم بيوع ابن جماعة التونسي. وقد اختارها لأهمية موضوعها، لأنه أبرز محاور الفقه الإسلامي في باب المعاملات.

18 ـ إرشاد المنتسب إلى فهم معونة المكتسب[122]

وهو شرح لمنظومته «معونة المكتسب وبغية التاجر المحتسب» ويضم هذا الشرح عديدا من الأبواب يفصل فيها العياشي القول في المعاملات التجارية أنواعها وشروطها ومشاكلها.

ويبدو العياشي في هذا الشرح ذا عارضة فقهية متمكنة من الموضوع بكل جوانبه الخفية والظاهرة، وذا قدرة على التحليل حيث يمزج الشرح بالمتن على عادة المشارقة[123]. وقد راجع هذا الشرح شيخه أبو العباس بن جلال[124]. وقد انتهى من نسخه عام واحد وثمانين وألف.

19 ـ تحرير كلام القوم في أمر النبي عليه السلام في النوم[125]

وجه لأبي سالم ـ أثناء الرحلة ـ سؤال منظوم حول أمر النبي في النوم هل يلزم أم لا. فأجاب : إن وافق الشرع لزم، وإن خالف النص أوّل بالعلم أو الكشف. ويبدو أن العياشي أدرك أن المسألة تتطلب بحثا ومراجعة لأقوال المحققين وآراء المدققين وتبيين حديث الرؤيا واختلاف رواياته وتعارض أقوال العلماء فيه. ويلزم ذلك كثرة المطالعة وصحة المراجعة. وهو أمر متعذر أثناء الرحلة. فأرجأ أبو سالم الأمر إلى حين وإن كتب كراسة تحدث فيها عن الموضوع، واكتفى بها عن مرغوبه، فجاءت ملمة بمجالها ومحيطة بجوانبها مما يدل على حضور ذاكرته وعمق تحليله.

20 ـ رفع الحجر عن الاقتداء بإمام الحجر[126]

حدثت بمكة نازلة فقهية، وهي أن إمام الحنفية كان يتقدم في صلاة المغرب ويصلي معه غالب الناس، فلما قرب موسم الحج جرى كلام في ذلك بين الطائفة المالكية في صحة الصلاة وراءه أو عدمها، فكتب رسالة يوضح فيها المسألة. وقد رتبها على مقدمة وتنبيهات وخاتمة يقول أبو سالم : «أما المقدمة ففي ذكرسبب وضعها وذكر اختياري الاقتداء بإمام الحجر. أما التنبيهات ففي كلام الأئمة في الإقتداء بالمخالف في الفروع وبيان دلالتي على هذه المسألة بالأولوية والمساواة. وأما الخاتمة ففي محصل كلام الأئمة المنقول في التنبيهات وتبيين طريقهم في المسألة وتوجيه الحكم بالصحة في مسألتنا على جميع طريقهم»[127].

---

118) أبو عبد الله امبارك العنبري (ت قبل 1095) صوفي /المحاضرات 229 و672.

119) أبو علي الحسن ابن مسعود اليوسي (1040 ـ 1102) من مشاهير علماء المغرب وأدبائه، اتسم فكره بالواقعية ونفاذ الرأي. له العديد من المؤلفات. راجع مؤلفاته ومصادر سيرته في عبقرية اليوسي للجراري ص 105 ـ 153.

120) الحكم بالعدل ص 1.

121) مخطوط خ.ع. 1957 د، 193 ص، حجم متوسط، خط مغربي ملون.

ـ خ.ع. 3308 د، 2136 د، 1499 د.

ـ خ.م. 1617، 8618، 6513.

122) مخطوط خ.ع. 1957 د.

123) ن.م. ص 162.

124) ن.م. ص 81.

125) انظر الرحلة ص 26/1 ـ 39.

126) الرحلة ص 259/2 ـ 279.

127) الرحلة ص 259.

21 - أجوبة الخليل عما استشكل من كلام خليل.[128]

وجه إلى أبي سالم صديقه عثمان بن علي اليوسي أيام اشتغاله بقراءة مختصر خليل عدة أسئلة في مسائل فقهية مختلفة أشكلت عليه فأجابه أبو سالم في كراسة عالج فيها إحدى وثلاثين مسألة ووقف عندها باحثا مدققا.

22 - النوازل.[129]

وللعياشي نوازل فقهية، أسهم فيها بوجهات النظر في حل بعض المشاكل الخاصة أو العامة. وتتسم هذه النوازل بتعدد مجالاتها، فهي بدوية (هل يزكي الخماس إذا حصل له نصاب أم لا)، وصوفية (حول تفسير الحزب الكبير للشاذلي) واجتماعية (هل يغرم السارق أم لا) ودينية (حول من أعطى ابنته في حالة مرضه) وأدبية (فيمن لا يعرف العربية هل يمدح الرسول أم لا) وطعنية (في تأخر بعض حجاج الركب وكرائهم من يجوّزهم من أخطار الطريق)...

ويبدو أن العياشي لم يكن يعتني كثيرا بكتابة نوازله، فجاءت قليلة بالنسبة للنوازل الشهيرة، باعتباره شيخا للزاوية تقصده قبائل منطقته للنظر في مشاكل واقعها من حين لآخر.

23 - تقاييد وأجوبة.[130]

وهي مجموعة رسائل علمية متفرقة حول مسائل في الفقه والبلاغة والتفسير والحديث والقراءات، يسأل فيها بعض العلماء عن إشكالات عنّت له أثناء قراءاته، أو يجيب فيها طلبته عن أسئلتهم، أو يتبادل الرأي والجدل في بعض القضايا فيراجع ويعقّب.

وأهم القضايا التي تطرحها هذه الرسائل أو التقاييد استفسارات أبي سالم العياشي للطيب المسناوي حول مسائل من مختصر خليل وإيضاح السعد، وجوابه عن سؤال عبد الرحمان الفاسي حول كتاب الكوراني في الكسب.

24 - القول المحكم في صحة عقود الأصم والأبكم[131]

25 - العلاوة فيمن ركع في محل سجود التلاوة.[132]

26 - شرح المحلي.[133]

سابعا - في النحـــو :

27 - كراسة في «لو الشرطية».[134]

ويذكر العياشي أن الناس قد أطالوا البحث في لو الشرطية واختلفوا في تفسيرها وضبط أقسامها. فكتب كراسة ليفصل في الموضوع، فتحدث عن نوعيها الإمتناعية والاستقبالية وأقسامها. ويعلق على أقوال النحويين والبلاغيين فيها، كما يركز على علاقتها بعلم المعاني مستقرئا كثيرا من النصوص الشعرية.

ثامنا - في مقدمات كتب :

28 - كتب أبو سالم مقدمة فهرسة عيسى الثعالبي «كنز الرواة المجموع من درر المجاز ويواقيت المسموع» بطلب من مؤلفها[135] وأبو سالم هو الذي حلاها بهذا العنوان.

---

128) الثغر ص 139 - 156.

129) مخطوط الخزانة الحمزاوية رقم 259 وله ميكروفيلم خ.ع. 212. يوجد ضمن مجموع، صفحات النوازل متفرقة، مسطرته وخطوطها مختلفة. انظر بعض النوازل في الرحلة ص 22/1 و212 /الثغر ص 90 - 100.

130) مخطوط الخزانة الحمزاوية 259 وميكروفيلم خ.ع. 212.
- أسئلة من أبي سالم المسناوي مخطوط خ.ع. 2581 د ضمن مجموع ص 150 - 156.
- البدور الضاوية... للحوات مخطوط خ.ع. 261 د ص 345 - 352.
- الثغر ص 45 - 57، 133 - 188.
- ميكروفيلم خ.ع. 424 ر.

131) ذكره صاحب الثغر ص 14 ولعله إجابة عن نازلة.

132) ذكره صاحب الثغر ص 15 ولعله إجابة عن نازلة.

133) ذكره صاحب الثغر ص 15 ونص على أنه لم يكمل.

134) ذكرها كثير ممن ترجموا للعياشي دون الإشارة إلى مكان وجودها. وعندي نسخة مخطوطة تحمل نفس الإسم وهي عارية من اسم المؤلف وتاريخ التأليف، مقياسها 240/200، مسطرتها 13، خطها واضح ملون غير مجدول، وتقع ضمن مجموع صفحاتها 1 - 17. وهذه النسخة غير مخرومة ولا متلاشية، ولعلها كتبت في زمن متأخر، وأفترض أن هذه الكراسة للعياشي لعنايته في التأليف بالتفريعات ولاهتمامه بالتطبيق على النصوص الشعرية. ورغم ذلك فهي تحتاج إلى توثيق أكثر ضبطا.

135) انظر المقدمة في الرحلة ص 2/ 132 - 137.

29 ـ ويقال أن خطبة شرح أبي عبد الله محمد ميارة لتحفة ابن عاصم من إنشاء تلميذه أبي سالم[136]

تاسعا ـ فيما نسب إليه :

ـ منظومة في صناعة الجدول، ذكرها أحد تلاميذه ولم يقف عليها صاحب الثغر الباسم.[137]

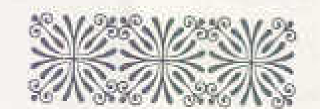
وقد ذكر بعض الباحثين أن من تآليف أبي سالم :

ـ شوق العروس وأنس النفوس.[138]

ـ الكشف والبيان في مسألة الكسب والإيقان[139]

ونسب للعياشي هذان المصنفان عن خطأ أو وهم.

أما رسالة أبي سالم إلى عبد الرحمان الفاسي في بيان مقالة إمام الحرمين وهي ضمن رسائله العلمية التي أشير إليها ـ فموضوعها في الكسب دون غيره. كما ذكر صاحب الموسوعة المغربية.[140]



136) ذكر ذلك الأفراني في صفوة من انتشر ص 140.

137) الثغر ص 15.

138) نسبه للعياشي عبد العزيز بن عبد الله في الموسوعة ص 35/3 ومحمد الأخضر في الحياة الأدبية على عهد الدولة العلوية ص 91، ومصدر الالتباس مجموع مخطوط خ.ع. 1388 يضم مؤلف العياشي «تنبيه أهل الهمم العالية في الدنيا الفانية والمؤلف المشار إليه وغيرهما، فوهم على أن هذا الكتاب للعياشي ولا نجد له ذكرا في الثغر ولا في الاحياء ولا عند مترجمي العياشي من المتقدمين.

139) نسبه للعياشي البغدادي في هدية العارفين ص 478/1 وكحالة في معجم المؤلفين ص 113/6 والأخضر في الحياة الأدبية ص 91، وهذا المؤلف لصفي الدين القشاشي لخصه وشرحه الكوراني في رسالته الإلماع المحيط بتحقيق الكسب والتوسط بين طرفي إفراط وتفريط. راجع الرحلة ص 430/1 ومجموع مخطوط خ.ع. 2279 د، ص 8 ـ 21.

140) أشار ابن عبد الله في الموسوعة ص 35/3 إلى أن موضوع هذه الرسالة في الطب وغيره، وذلك وهم منه أو تحريف، إن موضوعها في الكسب، انظر نصها في الثغر 131 ـ 133.



للأستاذ بنعلي محمد بن بوزيان

مقدمـة :

بنو عبد الجبار الفجيجيون، كغيرهم من بيوتات العلم بالمغرب ساهموا في إثراء العطاء الثقافي منذ أواخر العهد المريني. ولكنهم وإلى الآن مـا يـزالـون ضحيـة إهمـال يستحق منـا أن نواجهه في سبيـل تغيير موقع فجيج في خريطة المغرب الثقافية حتى يشار إليها مستقبلا كمركز ثقافي معتبر ولا يقل أهمية عن درعة وتافلالت وتادلا وسواها.

ولابد من أجل تنفيذ هذا المشروع وإنجاحه أن يجد صداه في نفوس المثقفين من أبناء فجيج خاصة. ونحن ممن يعتقد بوجاهة تعليل المرحوم المختار السوسي الذي ندب نفسه إن لم نقل تفرغ إلى العمل على إحياء تراث منطقته فكان من الفائزين، ونحن ممن يعتقد أن فوزه إنما هو آت من كونه من أهل سوس، وقديما قيل : أهل مكة أدرى بشعابها !

ولمجلتنا الغراء ـ دعوة الحق ـ في الواقع رباء لا ينكر على اتخاذي موضوع فجيج تاريخا وفكرا وأعلاما، ميدانا أواصل فيه البحث بعد فتور كاد أن يسلمني إلى الإحباط والقطيعة، وإذ قرأت موضوعي منشورا في أحد أعدادها[1] رأيتني أنشط من ظبي مقمر لأن فتحت أمامي فرص الاندماج في زمرة الباحثين.

وفي صدري ترجعت مواضيع متعددة تتعلق كلها بفجيج إلا أن الاختيار وقع على الإمام عبد الجبار بصفته مؤسس الخزانة وباعتباره ذؤابة بني عبد الجبار.

1) مولده :

إن الاهمال الذي لقيه كثير من شيوخ العلم وأقطاب المعرفة في المغرب انسحب على صاحبنا الإمام عبد الجبار بن أحمد بن موسى الفجيجي، بحيث لا نجد أحدا من أصحاب التراجم يشير إلى مولده ضبطا أو تقريبا، على الرغم من أننا لا نعدم أخبار أسرته في كتب المسلسلات والمشيخات والمصادر المهتمة بطبقات الرجال وتراجم الأعلام، فالمتصفح لثبت الوادي آشي[2] مثلا ـ وهو من أنجب تلامذته وأحفظهم لذكره ـ لا يجد إلماعا إلى سنة ميلاده أو حياته الأولى، في حين تعترضه صفحة بيضاء ربما كان خصها لهذا الغرض لولا أنه سار في الاتجاه الذي أنساه إياه، وانشغل عنه بسرد أخباره العلمية، وإجازاته، وأسانيده، ومروياته، وعليه، أجدني في حيرة من أمري وأنا أعد عدتي وآخذ أهبتي كيما أسجل للتاريخ حياته في شيء من النصفة والعدل ما وسعني الجهد.

---

1) يتعلق الأمر : بالعدد 248 راجع المقال في ص : 95 ـ 102.

2) دراسة وتحقيق الدكتور عبد الله العمراني، راجع عن حياة البلوي المقدمة التي كتبها المحقق ص 20 وما بعدها.

والحق أن هذه القضية غالبا ما تقض مضجع الباحث المتخصص، - فما ظنك بالمبتدئ القاصر - فيحاول كل بوسائله أن يخفف من حدة الشكوك التي تكتنف مولد هذا ونشأة ذاك، وماذا علينا لو أتينا أتيهم، وقفونا قفوهم مجتهدين لتعيين تاريخ ميلاده أو تقريبه على الأقل.

حدثنا المعمرون الثقات من أحفاده حديثا يروونه كابرا عن كابر ملخصه أن جدهم الإمام عبد الجبار عمر حتى مشت رواحله، بل ومنهم من حاولوا الضبط فقرروا أنه أهدف إلى المائة عام، وفي هذا الصدد أرونا مخصرته التي كان يتوكأ عليها، وهي عندهم صنف من أصناف الشواهد الدامغة، والدلائل الساطعة يقدمونها لكل باحث عن الحقيقة من زوار روضته المباركة، وتوحي بأنه كان ذا قامة طويلة هذا إذا كانت مخصرته حقا وصدقا.

وهذا الخبر المتواتر نتحسسه ونكاد نتأكده لا من خلال تلك القرينة المادية فقط وإنما استنادا إلى القرائن التاريخية أيضا. فإذا علمنا أن ابن مرزوق الحفيد المتوفى عام 842 هـ أجازه بتلمسان قبل هذا التاريخ بقليل أو كثير، وإذا علمنا أن العلامة الشهير، الخطير الكبير، وحيد دهره، وفريد أهل عصره أبا عبد الله محمد ابن الحسين بن محمد بن حمامة الأوربي النيجي المتوفى عام 887 هـ أجازه بفاس في الأربعينات من القرن التاسع، وإذا علمنا أيضا أن العالم الزاهد الصالح الناصح إبراهيم التازي اللنشي أجازه بوهران سنة 865 هـ أي قبل وفاته بنحو العام، وقد استاف منه اكتمال مخايل رشد آنسهافيه المتقدمان، وإذا علمنا آخر الأمر أنه أجاز تلميذه البلوي الوادي آشي سنة 895 هـ بتلمسان فدل بذلك على تألق متأخر في مجال التدريس، ودلت النعوت التي حلاه بها تلميذه الدؤوب على شخصية أربذت حبل الشباب وأخذت تخطو نحو الذبول فالأفول.

«فالبركة وأبقى الله بركته، وأبقاه الله» عبارات ترددت غيرما مرة بين دفاف الثبت بينما ينعته هو بالشاب النجيب آنا والشاب الصالح آونة[3]، إذا وضعنا كل هذا في الحسبان واعتبرناه، فرضنا أن يتراوح عمره في مرحلة التلمذ بتلمسان بين عشرين وثلاثين عاما وبالتالي جاز لنا أن نحصر ولادته في الخط الزمني الممتد من 810 هـ إلى 820 هـ، ومن ثم تقارب ما رواه أحفاده، ولا أخالهم إلا من الصادقين.

2) نشأته الأولى :

في غياب المصادر التي تؤرخ لنشأته الأولى : استنجدنا بالأخبار المتواترة بعد نخلها طبعا، على أن يكون مفهوما أن تخيلاتنا ستظل غير مضمونة النتائج والعواقب، ذلك أن هذه المتواترات عجزت عن استيعاب مختلف مراحل نشأته الأولى من جهة، وهي من جهة ثانية تجاوزت الاعتدال إلى التناقض والاضطراب باد منذ الوهلة الأولى في تحديد محل ولادته، ففريق يرى أنه ولد بفاس حيث قضى أول عمره مهتما بالقراءة والتحصيل، ثم التحق بأبيه أحمد بن موسى في فجيج وهو في ريعان الشبيبة ليكون معه في إصلاح ذات البين، ومحاربة البدع الضالة، ونشر التعاليم الدينية الصحيحة، والفريق الثاني يرى أن الإمام عبد الجبار ولد بفجيج، وتلقى علومه الأولى على يد والده قبل أن يضرب أكباد الإبل إلى تلمسان وفاس.

وأيا كان الأمر، فالذي لا يرقى إليه شك أنه شهر بين أصحابه وتلامذته بالفجيجي، ومن بينهم البلوي الآنف ذكره. ويقدمه هكذا : «عبد الجبار بن أحمد بن موسى بن أبي بكر بن محمد بن عبد الله البرزوزي الورتغيغي الفجيجي بجيمين بربريتين، يكنى أبا محمد رضي الله تعالى عنه.[4]

ولقد كان الإمام يفخر بهذا النسب الجغرافي ويعتز به، لأن حب فجيج كان يجري منه مجرى الدم في العروق، إن ارتحل حن إليها حنين النيب إلى فصالها، وإن أقام آنس إليها كما يأنس الواحد إلى الجميع، على خلاف

---

3) الثبت ص : 381 - 383 - 387 - 388 - 399.

4) المصدر نفسه ص : 378.

ابنه إبراهيم وحفيده أبي القاسم الذين استوخماها واستقلا الإقامة بها لأسباب قد نتطرق لها في مقال مستقل.

وسواء أولد بها أم طرأ عليها، فإنه تأقلم واستباء بها منزلة أهّلته لأن يصير أبا الفجيجيين دون غيره من أهل العلم والورع.

سلوكه ومكانته العلمية :

كان رحمه الله ورعا تقيا، رضي العشرة، سديد الكلمة، فصيح اللسان، لا يزدهيه ثناء ولا يستخفه تقريظ، متواضعا، متصرفا عاملا تنسب إليه كرامات كسائر الأولياء، عده الباحثون إماما يقتدى به، واعتبروه حجة ثقة، وصادقا مصدوقا لا يطرح قوله، وأقروا له بطول الباع وسعة الإطلاع وكثرة الحفظ، وكتاباته تشي بذلك كأن يقول بعد ما نقل حكاية من مدارك عياض، نقلته من حفظي بالمعنى والله أعلم.[5] هذا، وتشع من الأوصاف التي تناعته بها عصريوه ولا حقوه من باحثين وأعقاب صور سارية كل كرجل مُوَقَّبٍ ناصح الجيب إذا أعطى أحسب، وقاض أحسم إذا حكل عدل، وعالم جهباذ بصير يجمع بين الحقيقة والشريعة، نعته أحد أساتذته[6] بالحافظ اللافظ المجتهد المبارك الخير، ولقبه شيخه إبراهيم التازي بالفقيه الصالح،[7] وهي صفة يقول صاحب نفح الطيب : لها خطرها وجلالها حتى إن ملثمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون التنويه به بالفقيه، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه لأنها عندهم من أرفع السمات.[8]

ونستطيع ونحن نقرأ بعض الأوصاف التي أضفاها عليه تلامذته وبنوه وأعقابه أن نلامس حياته العلمية لنقول بعدها إنه بلغ درجة النبوغ في الميدان الفقهي على وجه خصوص، فهذا تلميذه البلوي ينعته : **سيدنا وشيخنا وبركتنا ومفيدنا الإمام الأُستاذ المفيد المقرئ العلامة المحقق الجليل الراوية المرشد الناصح المتبرك به الخطيب القدوة الحجة، الحاج الصدر الجليل، العام الصالح، العارف المحقق المجيد، المجدد المفيد، الرحال**[9]، ورثاه ابنه محمد فتحا بقصيدة من الطويل المقبوض عروضا وضربا جمعت خصاله ومناقبه، ومما جاء فيها قوله :

لقد كان عونا للأنام فهل لنا ... سواه معين في الأُمور العظيمة

غرائب علم ثم حلم وحكمة ... حواها ولو سارت بها العيس كلت

يسرك مظلوما ويرضيك ظالما ... كريم إذا لاقيته بالمودة[10]

وأما أنجاله فتراهم مأخوذين بما كان يقال في حق جدهم في الحلقات والنوادي العلمية، فيحثهم ذلك على تجديد رثائه وذكر مناقبه، ومن هنا ما أنشده الفقيه الأديب محمد بن أحمد ابن عبد الجبار غداة ختمه المرشد المعين لابن عاشر يقول :

ولله يوم تم فيه ابن عاشر ... وذلك من أولى جمادنا سابع

بمسجد[11] شيخ شيخه وإمامه ... ومن هو لأشتات المكارم جامع

إمام همام، عالم ومؤدب ... ومن هو في أعلى المعالي يطالع

وذلك تاج العارفين بربهم ... تجده مقامات اليقين يراجع

إمام به بحر المعارف مشرق ... لذا كل سالك إليه يسارع

5) تفسير الإمام عبد الجبار ـ مخطوط خاص.
6) الإشارة إلى الأوربي النيجي في إجازته ـ مخطوط خاصة.
7) الثبت ص : 396.
8) نفح الطيب ج 1 ـ ص 221.
9) الثبت ص : 380 ـ 383 ـ 385 ـ 387 ـ 396 ـ 398.
10) مخطوطة ضمن مجموع (خاص).
11) الإشارة إلى مسجد الإمام عبد الجبار صاحب الترجمة، وقد أضيف إلى اسمه ولا يزال إلى الآن.

أقـــام من العلـوم مـــا كـــان واهيـــا
أزاح ظـــلام الجهـــل، للغي مـــــانـــع
إمـــام بـــــه قـــد زاد فـج فجيجنـــا
محـاسن، وهـو كـان قبـل يخـادع[12]

4 ـ شيوخه وتلامذته :

وإذا صرفنا البصر عن قائمة النعوث والأوصاف قبل إنهائها وتلفتنا إلى شيوخه، تبين أنهم كثيرون. وكلهم أهل مروءة وأدب، وتقوى وصلاح. وكلهم ممن لا يحتاج إلى بسط الشواهد على نباهتهم وألمعيتهم، ويكفي أن نلم هنا بمسرد تمثيلي نقله أحد الفقهاء الولوعين بالبحث والتنقيب عام 1251 هـ من فهرست المترجم نفسه يقول : «**وهو ـ أي عبد الجبار ـ رضي الله عنه من أهل التاسع أخذ عن علمائها ومشايخها منهم علامة الدنيا، الحائز من علم الظاهر والباطن المرتبة العليا. أبو عبد الله سيدي محمد بن مرزوق التلمساني شارح البردة والمختصر. ومنهم نادرة الزمان ونخبة الأوان حافظ العصر أبو الوفاء التونسي، ومنهم شيخ الشيوخ، ومعدن الثبات والرسوخ، مربي المريدين، ومحيي ما اندرس من علوم الدين أبو العباس سيدي أحمد زرُّوق. ومنهم قطب زمانه، وفريد عصره وأوانه، من حاز المجد الراسخ، والولاية التي ما لمحكم آياتها من ناسخ، أبو إسحاق سيدي ابراهيم التازي، خليفة الشيخ الكامل أبي عبد الله سيدي محمد الهواري دفين وهران أعادها الله دار إسلام، التقى معه عام خمسة وستين وثمانمائة بوهران أعني السيد عبد الجبار المذكور، وأجاز له في صحيح البخاري قائلا : أخذته عن فلان وفلان إلى مؤلفه أبي عبد الله سيدي محمد بن اسماعيل البخاري، وأجاز له أيضا صحيح مسلم، والشفاء لعياض كالبخاري. وأخذ عنه أيضا طريق المشابكة إلى الباغزاوي وهو الذي شابكه النبي ﷺ، وقال له من شابك من شبكك إلى سبعة وروى عنه أيضا إلى يوم القيامة داخل الجنة، وأخذ عنه أيضا طريق السبحة إلى الحسن البصري، وقد قيل له في ذلك، فقال : شيء استعملناه في البدايات، وبدايته من غير شك كانت مع أصحاب رسول الله ﷺ، وجدت هذا في فهرست سيدي عبد الجبار المذكور بخط يده الكريمة**[13]». ونلحق بهذا المسرد علماء آخرين نسلم بأستاذيتهم لصاحب السيرة كقاسم بن سعيد بن محمد العقباني (768 ـ 854 هـ) ومحمد بن أحمد بن أبي يحي التلمساني الشهير بالحباك والمتوفى عام 867 هـ، ومحمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني المتوفى عام 871 هـ وعمه ابراهيم بن قاسم[14] (808 ـ 880 هـ). وممن اتصل بهم اتصالا وثيقا، وتبادل معهم الأخذ والإسناد على الطريقة المعهودة إذ ذاك» نذكر محمد ين يوسف السنوسي (832 ـ 895 هـ)، وأبا القاسم الفهري (825 هـ ـ 896 هـ)، وابن زكري المتوفى عام 899. ومحمد بن عبد الجليل التنسي المتوفى 89 هـ، وابن صعد المتوفى 901 هـ وابن مرزوق الكفيف المتوفى في نفس السنة وهلم جرا. ويبقى بعد هذا أن نعرف أن ابن غازي المتوفى سنة 919 هـ، والونشريسي المتوفى قبله بخمس سنوات اعتبرا من أعز أصدقاء الإمام عبد الجبار وأودهم. أما الأول فقد حضر معه الحلقات العلمية التي كان يرأسها الشيخ الصغير وأجازهما معا في حرز الأماني ورسالة القيرواني وسواهما، وأما الثاني فقد لقيه غير ما مرة في تلمسان وفي فاس. ومن آيات الود والإخلاص المتبادل أن يحتفظ الشيخ عبد الجبار في خزانته؛ التي كانت عامرة؛ بتصانيف صاحبه ذاك، ولم يبق منها الآن غير نماذج قليلة من بينها ثلاث عشرة صفحة من

12) العربي هلالي، فجيج تاريخ... ص : 121.
13) مجموع خطي (خاص).
14) أساتذته كثيرون ذكر بعضهم البلوي في الثبت وأبو القاسم في إجازته لأحمد بن أبي محلي.

كتاب غريب نادر الوجود ربما عديمه. ويتعلق الأمر بمصنفه عن المقري الجد. هذا المصنف الذي تحدث عنه الأستاذ الخطابي[15] وهو أحد المهتمين بفكر الونشريسي فقال : «**له تأليف في التعريف بأبي عبد الله المقري ذكره في النفح ولم أقف عليه**»[16]. وليس في علمنا للآن أن أحدا وقف عليه في أي من الخزانات المغربية عامة كانت أو خاصة، وعلى من يحمل رأيا مخالفا أن ينبه على ذلك مشكورا.

وتنقلات الإمام عبد الجبار المتكررة بين المراكز العلمية المشهورة، وبخاصة فاس وتلمسان توحي بأن تلامذته كثيرون جدا، وإن لم يشر إليهم في المصادر المهتمة بطبقات الرجال وتراجم الأعلام، باستثناء أولاده الثلاثة أحمد ومحمد (فتحا) وابراهيم، وتلميذه البلوي الوادي آشي الذي صرح بأخذه عنه رواية ودراية وحرص على بيان المواد المدروسة فقدمها في فصلتين. ذكر في الأولى أنه سمع عليه من أول صحيح البخاري إلى ترجمة الإيمان[17] في أصله العتيق بقراءة سيدي أبي الحسن العقباني، وناوله السفر الأول منه المحتوي على نصفه إلى باب إسلام أبي بكر، ثم إنه أجاز له جميع كتاب مسلم والشفا إجازة معينة فيهما، وعمم له الإجازة فيما أجاز له شيخه ابراهيم التازي.

وذكر في الثانية مقروءاته الأخرى وهي حزب النصر والتصلية لأبي المواهب التونسي، وسؤالاته السبعة التي سأل عنها أبا العباس حلولو (ت 898 هـ) وجواباته عليها، وشرحه على جمع الجوامع لابن السبكي، وأجاز له رواية ذلك.

ولا يفوتنا أن نشير في هذا الباب إلى أربعين قبرا، بعضها يحاذي روضته الشريفة، ويقال إنها لطلبة مصريين جازوا السباسب والفدافد للأخذ عنه.

5) مؤلفاته :

ونحن إذا ذهبنا نستقصي تآليف الإمام وجدنا أنفسنا أمام مخلفات ذات قيمة علمية محترمة عموما، جاد منها الزمان بطرف وضن بأطراف، ومنها :

أ ـ تفسير القرآن العظيم : وهو أول مؤلف اشتهر أمره وذاع صيته مع العصر السعدي وما تلاه، ويدل أن نخوض في منهجه وقيمته بالنسبة لما كتب في هذا الاتجاه نكتفي بوقفات ثلاث نعرف في الأولى بعنوانه من خلال هذه الوثيقة : «**وكان فيما يكتب رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به على رأس كل سفر من أسفاره، بدأ بالأول فقال : السفر الأول من مختصر جامع أحكام القرآن المبين لما تضمنه من السنة وآي القرآن هكذا إلى آخرهم**» ويسمى تفسير الإمام عبد الجبار، وهو كما يتوضح من الوثيقة اختصار لتفسير القرطبي الأندلسي المتوفى عام 671 هـ والموضوع في عشرين جزءا أو خمسة عشر مجلدا بتعبير صاحب نفح الطيب. ونؤكد في الثانية أنه كان إلى عهد قريب جدا في حكم المفقود حتى عثرنا عليه بعد مجهود كؤود استهدف نشر طيه، وقد تفرق في رفوف خزانة صاحبه.

وإنقاذ بعض أجزائه البالغة اثنى عشر، وترتيبها كما كانت أول مرة يتطلب مجهودا جبارا ولاشك، وفي الوقفة الأخيرة نسجل انطباع رحالة مغربي قدر له أن يزور الخزانة عام 1197 هـ، والأمر يتعلق بمحمد بن عبد السلام ابن ناصر المتوفى عام 1239 هـ يقول : «**وأوقفونا ـ أي أعقاب الإمام ـ على تفسيره من اثني عشر جزءا من الكبير قال في أوله إنه اختصر القرطبي فوجدناه يزيد عليه زيادة مستحسنة، وفوائد مستغربة، يطرزها بعبارات ريضة، ويوسمها بجواهره...**[18] فوأسفي على هاذي الجواهر الضائعة !

---

15) محقق «إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك» للونشريسي أبي العباس أحمد، وهو من منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

16) إيضاح المسالك ص 71.

17) الثبت ص : 396 ـ 397 وانظر أيضا صحيح البخاري ج 1 ص 12 الطبعة الميزية.

18) الرحلة الكبرى ص 67 مخطوط خ ع رقم د 2327.

وواحسرتاه على هذه الفوائد المستغربة ! والعبارات الريضة ! فليت الناصري لم يثن على الكتاب ولم يبالغ في الثناء. فقد أثار فينا هواجس كامنة لم نكن نريد أن تنشط من عقالها، واستشعرنا المرارة والحسرة والألم الممض على مؤلفات بني عبد الجبار التي تفرقت في كل وجه.

ب) مختصر حياة الحيوان :

وهو كتاب اختصر فيه «حياة الحيوان» لكمال الدين محمد بن موسى الدميري المصري (742 ـ 808 هـ)، ومعلوم أن هذا الكتاب حظي بشهرة واسعة في الأوساط العلمية فاختصره غير واحد من المهتمين تذكر على سبيل المثال لا الحصر ابن الدماميني (763 ـ 827 هـ) وسماه عين الحياة، وتقي الدين الفاسي (775 ـ 882 هـ) وأسمى مختصره «مختصر حياة الحيوان» وأما السيوطي المتوفى سنة 911 هـ فسماه ديوان الحيوان ونعود إلى مصنف صاحبنا لتجده ينص على منهجه، وتاريخ تأليفه في السطور الأخيرة وهي كما يلي : **«انتهى ما قصدت من اختصار حياة الحيوان بلفظه غالبا، وبمعناه تارة، وبتقديم في بعض، وتأخير في بعض، وكان الفراغ منه عشية الأربعاء في شهر شوال عام 894 هـ»**. ولعله من المفيد أن تشير إلى أن هذا الكتاب كان آخر ما حرره بفجيج قبل أن يثير فرسه التراب إلى تلمسان حيث كانت له عدة روابط ووصلات. ومما يحمد له سبقه إلى الاختصار العلمي في زمن استحوذت المختصرات الفقهية على الحياة الفكرية العامة.

ج) الفهرست :

وكغيره من علماء وقته خلف فهرسة جمعت بين دفتيها المصنفات العلمية المجاز فيها، وتراجم الشيوخ الذين لقيهم، وجلس إليهم في أسفاره ورحلاته بغرض اتصال الاسناد واسترساله ويظهر أن الأثرمين تقدما لها بالسوء فتنازلت عن حقها في الوجود، ولولا تقول هنا وهناك في المجاميع الخطية والوثائق ما عرفنا أن للشيخ عبد الجبار فهرسة.

وفضلا عن هذا خلف المترجم فتاوي لو تناهت إلينا جمعاء لكانت خير حافد على سبر أغوار الحياة الاجتماعية بفجيج عهدئذ، ويبدو أن الفجيجيين كانوا يستفتونه في كل صغيرة وكبيرة تجد، ومثال ذلك : **«ومن خط العلامة القاضي سيدي عبد الجبار الفجيجي رحمه الله، وسئل عن نسوة يتعاون في المناسج تعين هذه هذه، حتى يفرغ المنسج وتعينها الأخرى، والعادة أن التي تنسج مع صاحبة المنسج تأكل عندها حتى يفرغ المنسج، وكذلك الأخرى، فأجاب : هذه المعاملة فاسدة ولا ينبغي أكل ذلك الطعام والله أعلم»**[19].

وإذا فتحنا ملف الشعر بفجيج باحثين عن مدى إسهامات صاحبنا في إثرائه، لا نقف له إلا على قصيدة يتيمة في المديح النبوي، وهي مما كان يتغنى به في مواسم المولد النبوي الشريف، ونصرح منذ البداية أن لا شيء يصلها بعالم الشعر إلا الوزن والقافية مما يشجع على تصنيفها ضمن شعر الفقهاء والعلماء الذين كانوا ينشدون راحتهم في القريض بعد لغوب الحلقات والتصنيف، فيتقربون به إلى الله مادحين نبيه، أو محذرين من سفاسف الحياة الدنيا وزينتها، ويجعلونه مرقاة لهم إلى صعود الدرجات العلى، والباب الذي سيعبرون منه إلى حياض الحسنات والزلفى، ومما جاء في القصيدة ذات الأربعة والثلاثين بيتا عدا اللازمة التي تتكون في بيتين :

لقد عاد عيدك بالبر أحمد
بيمن وبشر وبالسعد الأسعد

بطه البشير النذير الشفيع
بيسن مذمذ[20] سميت يا أحمد

19) وثيقة خاصة.

20) مذمذ أو ماذ ماذ : فيما يتصل بمعنى الكلمتين روي عن كعب الاحبار أنه قال : «اسم النبي ﷺ في التوراة موذ موذ وفي الإنجيل طاب طاب» والماذ في العربية يعني الحسن الخلق والفكه النفس.

برقليـــط[21] في الكتب تسمى وتــذكر

بتــوراة مــوسى حريــا ينــد

بــإنجيـل عيسى أتـــانـــا البشير

فسميت فيـــه بـــأنـــك أحمـــد[22]

وهكـذا، وبعد حياة زاخرة بـالعطـاء الفكري السني، توفي صاحب الترجمة بفجيج حوالي 920 هـ، وقد دفن قريبا من زاويته العلمية خلف المسجد المشهور إلى الآن بين الأهالي باسمه في قصر[23] المعيز، وهو المسجد الذي أسسه وتصدر فيه للاقراء والتدريس.

تلك بوجه الإجمال حياة الإمام عبد الجبار المؤسس الأول للصرح الثقافي بفجيج، هذا الصرح الذي أعلى رفعته وأفشى سمعته بنوه وحفدته من بعدهم، ولا سيما ابنه إبراهيم وحفيده أبو القاسم الذي يعتبر بحق أعظم شخصية درجت على أرض فجيج الفيحاء في العصر السعدي.

21) بارقليط : كلمة سريانية الأصل وتعني المخلص المنقذ.

22) القصيدة : مخطوطة خاصة.

23) فجيج يتوزعها الآن سبعة قصور هي على حسب التدرج في الكثافة السكانية : قصر زناقة ـ قصر الوداغير ـ قصر المعيز ـ قصر الحمام الفوقاني ـ قصر أولاد سليمان ـ قصر العبيدات ـ قصر الحمام التحتاني.

ابن زكري من خلال الوجه المغري

تصحّفت كلمة (المغري) بالمغربي في مقال الأستاذ بنعلي محمد بن بوزيان في العدد (253)... فوجب التصحيح مع الاعتذار.

مطبعة فضالة . المحمدية . المغرب

رقم الايداع القانوني 1981/3

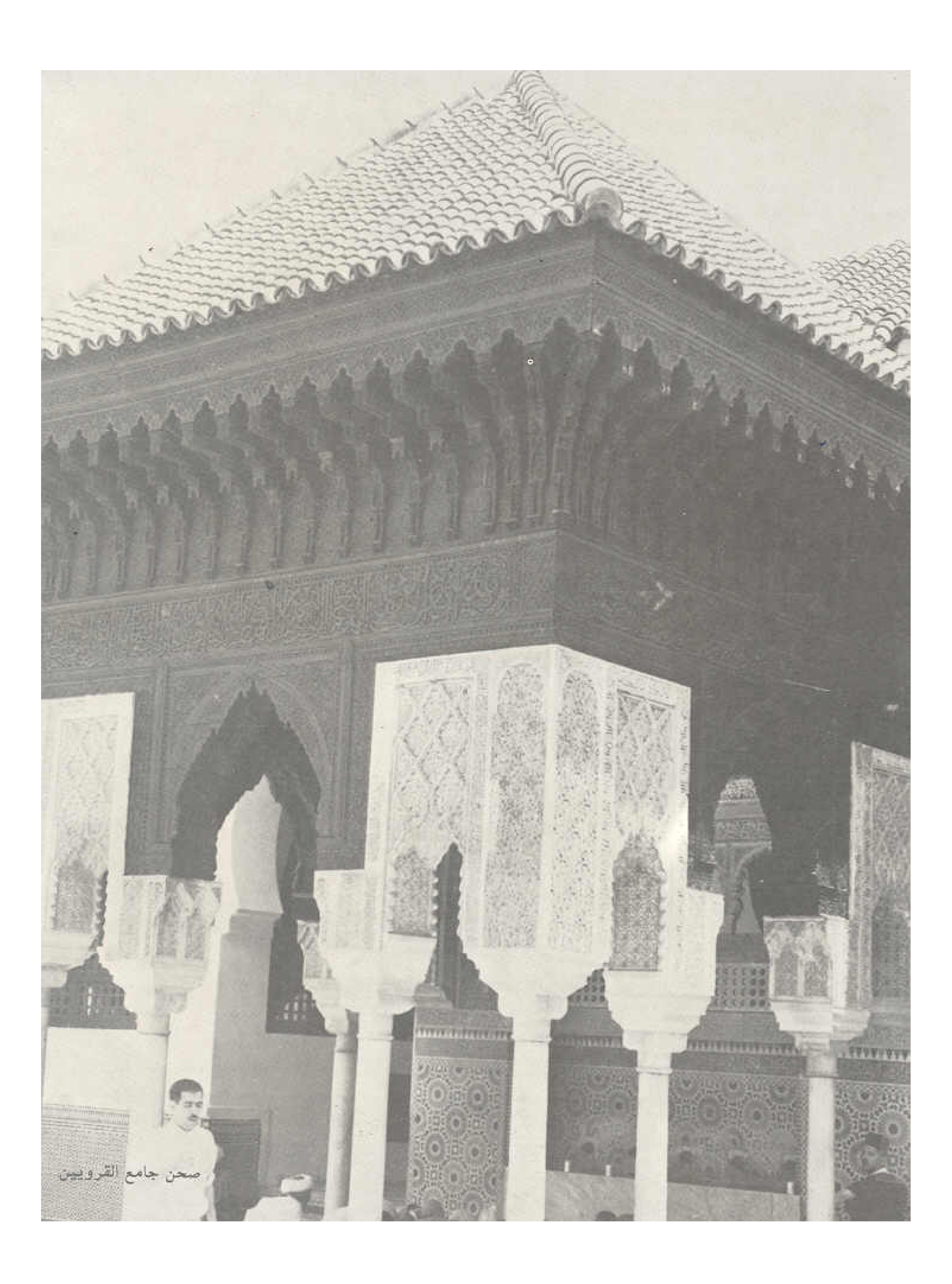
تصويب

ورد على المجلة من الأستاذ العلامة الجليل سيدي عبد الله كنون التصحيح الآتي :

«قرأت في مجلة دعوة الحق (العدد 253) ترجمة للعلامة ابن زكري بقلم الأستاذ ابن زيان جاء في أثنائها بعنوان (تصويب لابد منه) : أن كل المراجع المغربية نسبت كتاب «العرف الشحري» لأحمد بن عبد الوهاب الغساني معتمدة في ذلك على النبوغ المغربي لعبد الله كنون، ويبدو أن هذا الأخير أدرك خطأ هذه النسبة فصححها في الطبعات التالية لكتابه.

وأنا لم أنسب هذا الكتاب لمن ذكر، بل نسبته لمؤلفه الحقيقي وهو تلميذه عبد المجيد الزبادي المنالي، سواء في الطبعة الأولى للنبوغ والطبعات التالية لها فلينظر. وقد جاءت هذه النسبة أولا في ترجمة ابن زكري بالنبوغ وفي تعداد مؤلفات السير والتراجم في العصر العلوي».

عبد الله كنون



صحن جامع القرويين